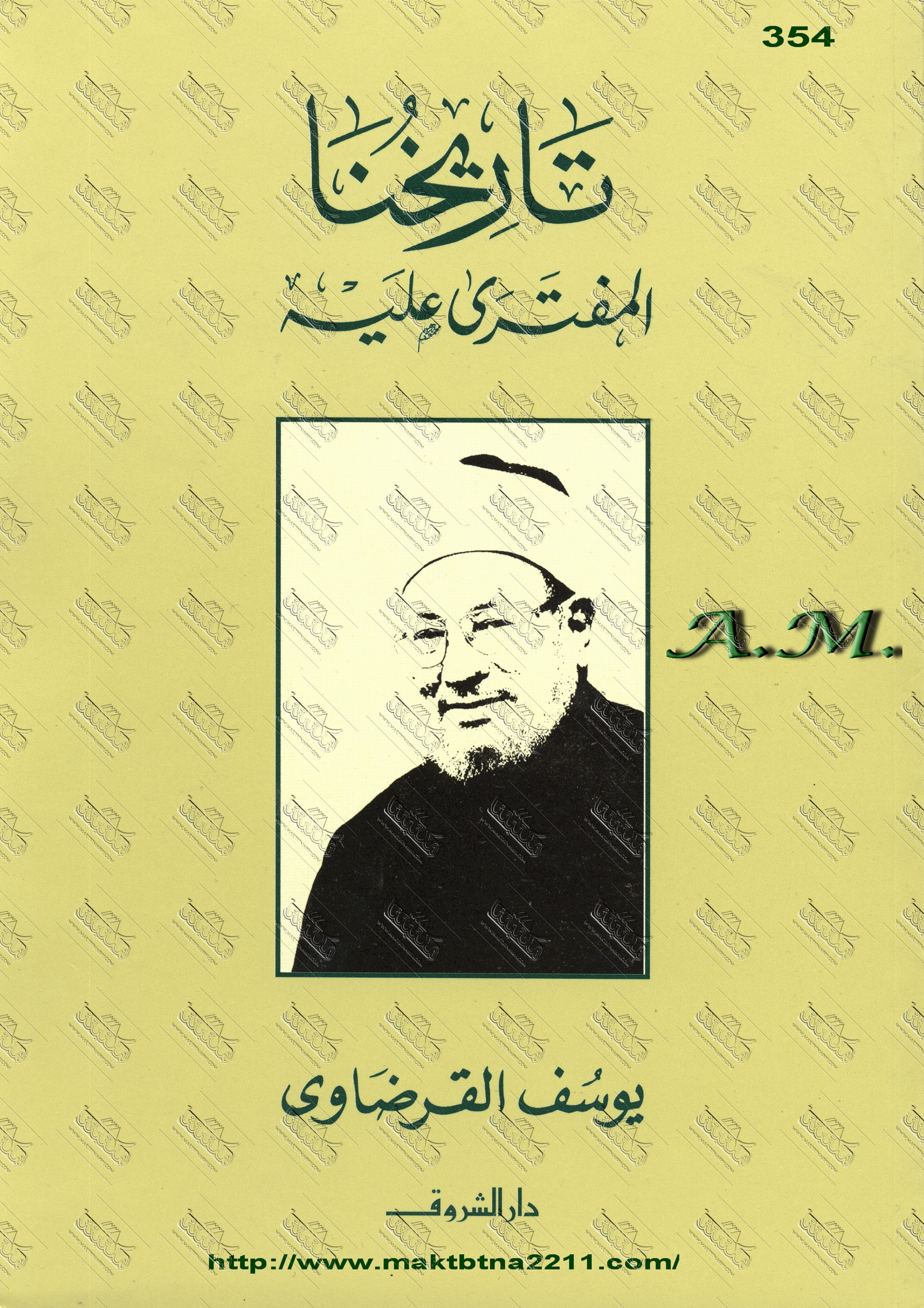
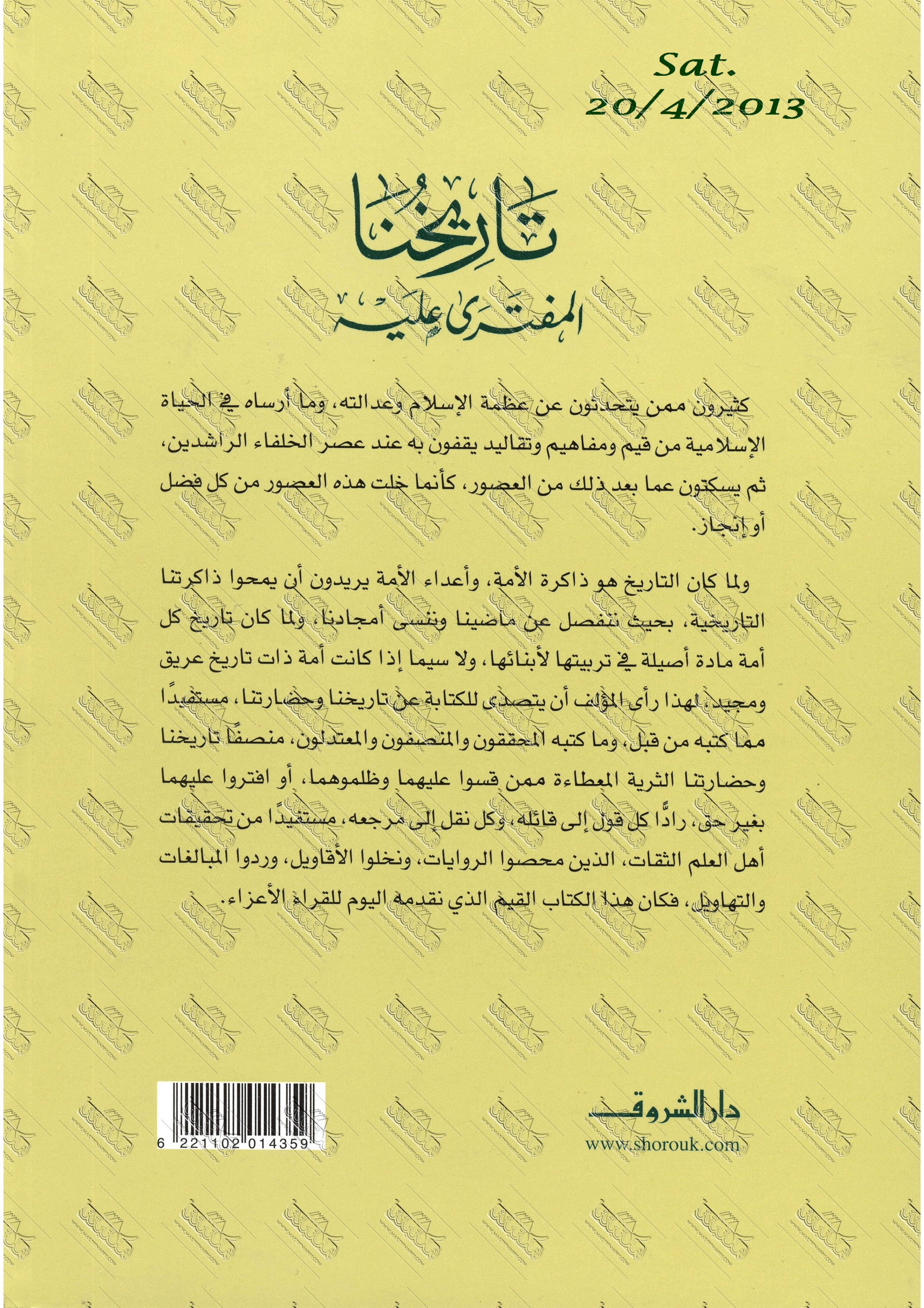

354
تاريخنا
المفترى عليه
A.M.
يوسف القرضاوي
دار الشروق
http://www.maktbtna2211.com/



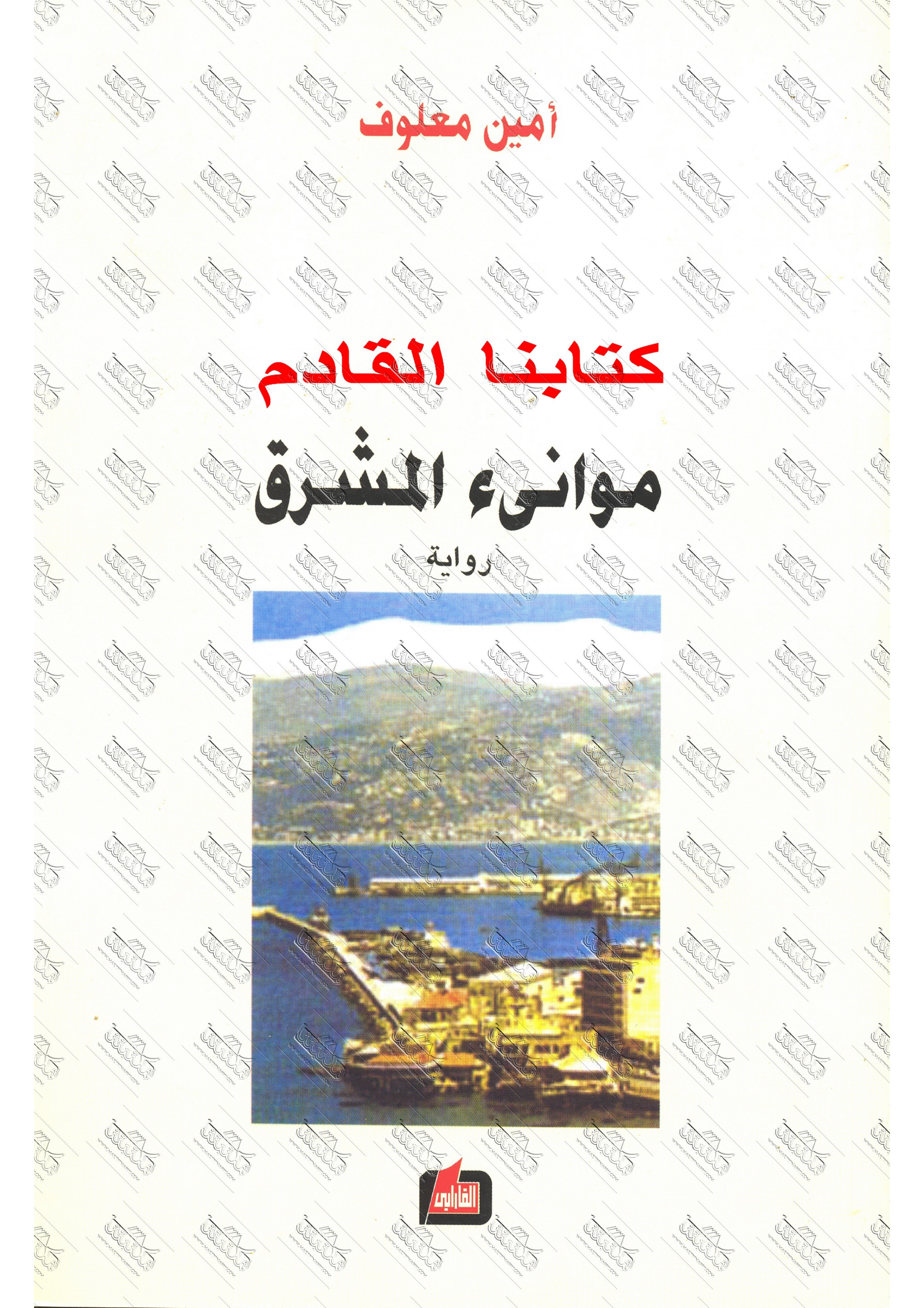
Sat.
20/4/2013

تاريخنا المفترى عليه

كثيرون ممن يتحدثون عن عظمة الإسلام وعدالته، وما أرساه في الحياة الإسلامية من قيم ومفاهيم وتقاليد يقفون به عند عصر الخلفاء الراشدين، ثم يسكتون عما بعد ذلك من العصور، كأنما خلت هذه العصور من كل فضل أو إنجاز.

ولما كان التاريخ هو ذاكرة الأمة، وأعداء الأمة يريدون أن يمحوا ذاكرتنا التاريخية، بحيث ننفصل عن ماضينا وننسى أمجادنا، ولما كان تاريخ كل أمة مادة أصيلة في تربيتها لأبنائها، ولا سيما إذا كانت أمة ذات تاريخ عريق ومجيد، لهذا رأى المؤلف أن يتصدى للكتابة عن تاريخنا وحضارتنا، مستفيدًا مما كتبه من قبل، وما كتبه المحققون والمنصفون والمعتدلون، منصفًا تاريخنا وحضارتنا الثرية المعطاءة ممن قسوا عليهما وظلموهما، أو افتروا عليهما بغير حق، رادًّا كل قول إلى قائله، وكل نقل إلى مرجعه، مستفيدًا من تحقيقات أهل العلم الثقات، الذين محصوا الروايات، ونخلوا الأقاويل، وردوا المبالغات والتهاويل، فكان هذا الكتاب القيم الذي نقدمه اليوم للقراء الأعزاء.

6 221102 014359
دار الشروق
www.shorouk.com


أمين معلوف
كتابنا القادم
موانئ المشرق
رواية
الفارابي



د. يوسف القرضاوى

تاريخنا المفترى عليـــــه

دار الشروقـــ



من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج : ٤٦).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠).

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (الأنعام : ١٥٢).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨).



من مشكاة النبوة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين منها ، يزلّ بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» .

متفق عليه عن أبى هريرة

وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه :

«وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا» .

رواه النسائى والحاكم عن عمار بن ياسر



مقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، سيدنا وإمامنا وأسوتنا ومعلمنا محمد، وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، ورضي الله عمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد دعيت - في صيف ٢٠٠٣م - من أمانة أطباء اتحاد العرب إلى محاضرة في «دار الحكمة» مقر نقابة الأطباء في مصر، على سنة الإخوة في النقابة، الذين تعودوا أن يدعوني في كل عام لأحاضر في دارهم، وأجيب عن تساؤلاتهم.

وكان أهم سؤال وُجِّه إليّ في تلك الليلة هو: سؤال الأخ الكريم الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شوقي مستشار النقابة، وأيده كثير من الأطباء الحاضرين. وخلاصته: أن كثيرا ممن يتحدثون عن عظمة الإسلام وعدالته، وما أرساه في الحياة الإسلامية من قيم ومفاهيم وتقاليد: يقفون به عند عصر الخلفاء الراشدين، ثم يسكتون عما بعد ذلك من العصور، كأنما خلت هذه العصور من كل فضل أو إنجاز.

وقلت للدكتور شوقي وزملائه من الأطباء: للأسف ما قلتموه هو الشائع على الألسنة والأقلام. ولقد سمعت كثيرا منه فيما يقال، وقرأت كثيرا منه فيما يكتب. ومن كثرة تكراره صدقه الناس، واعتقده الكثيرون حقا.

بل أكثر من ذلك: أن بعض الناس يَعُدّون الدولة الإسلامية بعد عصر الراشدين قد انحرفت عن الإسلام، وأصبحت «ملكا عضوضا» أو «ملكا جبريا» يقوم على القهر والجبروت، ولا صلة له بشريعة الإسلام. وبعض الكتاب المتدينين وقعوا في الشَّرَك، وحملوا على بني أمية حملة شعواء، حتى جردوها من التقيد بدين أو خلق، وبعضهم قال: إنها كانت دولة عربية لا دولة إسلامية. وهو غلو لا دليل عليه، وينافي حقائق الدين، وحقائق التاريخ.

وجدنا من يقول: إن الإسلام لم يطبق إلا في عهد الراشدين، ولكن إذا حلّلنا عهد الراشدين: نجد عهد أبي بكر: عهدا قصيرا، اشتغل فيه بمحاربة المرتدين ومانعي الزكاة.. وعهد عثمان: عهد فتن داخلية انتهت بقتله.. وعهد علي: عهد حروب أهلية بين المسلمين بعضهم وبعض.. فلم يبق إلا عهد عمر، وعمر كان «فلتة» لا تتكرر!.

واستنبطوا من هذا الكلام: أن شريعة الإسلام «فكرة مثالية» لم تطبق في التاريخ، ولا يمكن أن تطبق في الواقع.

والعجيب أن هذا الكلام قاله رجل مثل الشيخ خالد محمد خالد في كتابه المعروف «من هنا نبدأ»! وأعجب كيف يصدر هذا من مثله، وهو من علماء الأزهر! لأنه يحمل اتهاما لرب هذا الدين والموحي بشريعته إلى رسوله: أنه كلف الناس ما لا يطيقون! وألزمهم بشريعة غير قابلة للتطبيق، وهو الحكم العدل والعليم الحكيم!!

ولكن من فضل الله تعالى: أن الشيخ خالدا رجع عن قوله هذا، وتاب إلى الله منه، وخطّأ نفسه في صراحة وشجاعة قل أن يفعلها غيره، وبيّن الدوافع التي دعته إلى ذلك. وهذا في كتابه الذي أصدره تحت عنوان «الدولة في الإسلام».

ولكن جماعة العلمانيين الذين يعادون الشريعة، ويريدون أن نستورد قيمنا ومفاهيمنا وقوانيننا وتقاليدنا من الغرب: استغلوا كلام الشيخ خالد، ووسعوه وبنوا

عليه، وإن لم ينسبوه إليه، بل خيلوا إلى قرائهم أن الفكرة فكرتهم، كما رأينا في كلام فؤاد زكريا، الذي رددنا عليه في كتابنا «الإسلام والعلمانية».

ويؤسفني أن أقول: إن عددا من الدعاة الإسلاميين الكبار، ساعدوا العلمانيين ـ عن غير قصد ـ بقسوتهم على التاريخ الإسلامي، وتضخيم مثالبه وعيوبه، والتقليل من محاسنه ومزاياه، غفر الله لهم.

ولا أعني بهذا أن أقول: إن التاريخ الإسلامي تاريخ ملائكة مطهرين، أو أنبياء معصومين، لا خطايا فيه ولا أخطاء، كما يفهم من كلام بعض المتحمسين الذين يتحدثون عن تاريخ الإسلام بعاطفة المحب، لا بعقل الباحث. فهذا ما لا يقوله عاقل، فضلا عن أن يقوله عالم. فالمسلمون كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون، ويستقيمون وينحرفون، ويعدلون ويظلمون، ولكن ينبغي أن نحكم على التاريخ بمجموع أحداثه ووقائعه، وبكل فئاته وطبقاته، وبجميع أقطاره وأمصاره، وبالمقارنة بينه وبين غيره من تواريخ الأمم في عصره. وهنا نجد تاريخنا يتميز ويتفوق على كل تواريخ الأمم في تلك العصور.

حتى العصور التي كان يعدها الغربيون عندهم «عصور الظلام» والتي يسمونها العصور الوسطى، كانت عندنا عصور النور والعلم والحضارة والإبداع. وقد اقتبست منها أوربا جملة من أصول نهضتها.

ومن توفيق الله لي: أني دافعت عن تاريخنا الإسلامي، الذي ظلمه أهله، في كثير مما كتبت، ولا سيما في كتابي «شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان» وكتابي «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» وكتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

إن التاريخ هو ذاكرة الأمة، وأعداء الأمة يريدون أن يمحوا ذاكرتنا التاريخية، بحيث ننفصل عن ماضينا وننسى أمجادنا، ونهيل التراب على تراثنا وحضارتنا، ونبدأ من الصفر، مثل الأمم التي لا تاريخ لها. فإذا لم يستطيعوا محو ذاكرتنا: سعوا إلى إفسادها، فحشوها بمعلومات خاطئة، أو مقلوبة، أو مزورة، عن رسالة الأمة،

وحضارتها وتاريخها ورجالها وتراثها. وبهذا تنخلع الأمة من جذورها، ويلعن آخرها أولها، وتمسي أمة بلا جذور ولا أعماق.

إن تاريخ كل أمة مادة أصيلة في تربيتها لأبنائها، ولا سيما إذا كانت أمة ذات تاريخ عريق ومجيد، وكان لها دورها ورسالتها وأثرها في العالم. على أن الواجب على الأمة أن تتعلم من مآثرها وأمجادها التاريخية، كما تتعلم من أخطائها ونقاط ضعفها.

لهذا رأيت أن أتصدى للإجابة عن هذا السؤال الكبير عن تاريخنا وحضارتنا. الذي أقلق الكثيرين وحيّرهم، وأعني بتاريخنا تاريخ الإسلام وأمته الوسط التي جعلها الله شهيدة على الناس. وذلك ليصدر في بحث مستقل، مستفيدا مما كتبته من قبل، وما كتبه المحققون والمنصفون والمعتدلون. منصفا تاريخنا وحضارتنا الثرية المعطاة ممن قسوْا عليهما وظلموهما، أو افتروا عليهما بغير حق.

وأنا لست مؤرخا، ولكني عالم يحس بأهمية التاريخ، وضرورة تمحيصه وتوظيفه في إيقاظ الشعوب، وتحريك الهمم، وقد عددت «الثقافة التاريخية» إحدى الثقافات الست الأساسية، التي يجب أن يتسلح بها الداعية المسلم المعاصر، وذلك في كتابي «ثقافة الداعية»، وقد أرشدت في هذا الكتاب إلى تنبيهات مهمة في قراءة التاريخ، ينبغي لكل داعية بصير أن يضعها نصب عينيه.

وقد كان كبار علماء الأمة - من المفسرين والمحدثين والفقهاء - معنيين بالتاريخ، وصنفوا فيه، مثل الطبري، وأبي نعيم، والخطيب، وابن عبد البر، وابن الجوزي، وابن عساكر، وابن كثير، والذهبي، والسبكي وابن حجر، والسيوطي وغيرهم.

هذا وقد قسمت هذه الدراسة بعد المقدمة إلى خمسة أبواب:

الأول: عن جور العلمانيين على التاريخ الإسلامي، وتحريفهم له، ومساعدة بعض الدعاة في ذلك.

والثاني: عن الدولة الأموية والدولة العباسية وموقفهما من شريعة الإسلام.

والثالث: عن تاريخنا وماله من مآثر ومفاخر.

والرابع: من المسؤول عن تشويه صورة تاريخنا؟

والخامس: عن إعادة كتابة تاريخنا وكيف تكون.

ولم أتحدث عن الدولة العثمانية، لأني كنت معنيا بالدفاع عن القرون الأولى من ناحية، كما لا أزعم أني أملك رؤية علمية واضحة لتاريخها فاكتفيت بالدولتين: الأموية والعباسية.

وإني لأرجو بهذه الدراسة: أن أصوب خطأ شاع بغير حق، وأن أنصف أمتنا وحضارتنا وتراثنا وتاريخنا، وأن أرد الأمور إلى نصابها، معتمدا على الحقائق لا على الأباطيل، ومستندا إلى المصادر الموثقة، وإلى الأدلة الناصعة، لا إلى مجرد الدعاوى الفارغة، والأقوال المرسلة. رادّاً كل قول إلى قائله، وكل نقل إلى مرجعه، مستفيدا من تحقيقات أهل العلم الثقات، الذين محصوا الروايات، ونخلوا الأقاويل، وردوا المبالغات والتهاويل.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يثقل به موازيننا عنده، وأن يسهم في تصحيح المفاهيم، وإنارة السبيل، وإنصاف الحقيقة، وأن يغفر لنا ما زل به القلم، أو شط به الفكر. وأن يأجرنا على تحرّينا واجتهادنا، إنه سميع مجيب.

الدوحة: شهر رمضان المبارك ١٤٢٤هـ

نوفمبر ٢٠٠٣م

يوسف القرضاوي

(١)

جور العلمانيين على التاريخ الإسلامي وتحريفهم له وقسوة بعض الإسلاميين عليه

١ - إبطال دعوى أن الشريعة لم تطبق إلا في عهد عمر.

٢ - الشريعة كانت أساس المجتمع الإسلامي طوال ١٣ قرنا.

٣ - نموذج صارخ لتحريف تاريخنا الإسلامي.

٤ - قسوة بعض الدعاة الكبار على التاريخ الإسلامي.

٥ - شهادات بعض من قسوا على التاريخ الإسلامي.

(١)

إبطال دعوى أن الشريعة لم تطبق إلا في عهد عمر

حقيقة دعوى العلمانيين:

أشاع العلمانيون في عصرنا فرية ما فيها مرْية، ودعوى تنادي على نفسها بالبطلان، وهي: أن الشريعة لم تطبق إلا في عهد الخلفاء الراشدين، بل قال بعضهم: إنها عند التأمل والتحقيق لم تطبق إلا في عهد عمر بن الخطاب. فكيف تدعوننا اليوم إلى شريعة أخفقت العصور الإسلامية كلها في تطبيقها، فهل يعقل أن يفشل الماضون طوال التاريخ، وننجح نحن في عصرنا هذا فيما أخفقوا فيه؟!

وذهبوا إلى أن الشريعة «فكرة مثالية» تستعصي على التطبيق عند مواجهة الواقع المعيش. والتاريخ ـ فيما زعموا ـ أصدق شاهد على ما يدعون.

والعلمانيون الذين قالوا هذا الكلام وكرروه ورددوه على مسامعنا كثيرا، لم يكن هذا من ابتكارهم، ولا من بنات أفكارهم، بل كان أول من قاله الكاتب المعروف الأستاذ خالد محمد خالد، في بداية ظهوره في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وفي كتابه الشهير «من هنا نبدأ» الذي أثار الزوابع هنا وهناك، وتبنته جهات شتى مشبوهة، خدمها الكتاب من حيث لا يريد مؤلفه، وقد استغلوا الكتاب واستخدموه أسوأ استخدام لتأييد أغراضهم السيئة.

كان مما قاله الشيخ خالد غفر الله له: لا تقولوا: عهد الراشدين، فعهد أبي بكر

كان لمدة سنتين شغلتنا بحروب الردة ونحوها، وعهد عثمان كان عهد فتنة انتهت بالثورة عليه وقتله، وعهد علي كان عهد حروب أهلية!! فلم يبق إذن غير عهد عمر، وعمر كان «فلتة» يصعب أن تتكرر! وبعد ذلك كانت العصور كلها انحرافا عن الإسلام، وشريعة الإسلام، وقيم الإسلام!

هذا الكلام أو نحوه قاله الأستاذ خالد، ونقله عنه العلمانيون[١]، وإن لم ينسبوه إليه. وادعوه لأنفسهم.

وإن مما ينبغي أن نسجله هنا بكل اعتزاز: أن الأستاذ خالدا، قد رجع عن هذه المقولة، وأعلن ذلك على الناس بصراحة وشجاعة قلما تتوافر لكثير من الناس، وخطأ نفسه فيما ذهب إليه من قومية الحكم وعلمانيته[٢]، وكتب في ذلك كتابه «الدولة في الإسلام» الذي أكد فيه أن الإسلام دين ودولة، كما بين في مقدمته الدوافع التي جعلته يسير في هذا الاتجاه في ذلك الوقت، فشكر الله للشيخ خالد، وجزاه عن دينه وأمته خيرا، وغفر له ما أخطأ فيه.

الرد الإجمالي على هذه الدعوى العريضة:

وأبدأ هنا بالرد الإجمالي على هذه الدعوى، التي ظلمت أمة كاملة، وظلمت تاريخا حافلا، وظلمت حضارة أضاءت بها الدنيا قرونا مديدة. ثم نرد عليها ردا مفصلا، ينصف الأمة، وينصف شريعتها، وينصف حضارتها وإنجازاتها، وينصف تاريخها وصُنّاعه في كل ميدان من ميادين العلم والدعوة والأدب والثقافة والفنون والعمران والجهاد بشتى ألوانه وأنواعه. ونبدأ ببيان الأغلاط والمغالطات التي تتضمنها هذه الدعوى الظالمة.

---

(١) مثل د. فؤاد زكريا في كتابه «عن الصحوة» وقد نقلنا كلامه ورددنا عليه في كتابنا «الإسلام والعلمانية».

(٢) رد عليه صديقه الشيخ محمد الغزالي في ذلك الوقت بكتابه «من هنا نعلم» كما رد عليه آخرون.

أغلاط أو مغالطات ثلاث في هذه الدعوى:

إن هذا القول ينطوي على أغلاط أو مغالطات شتى، نذكر منها ثلاثا:

١ـ اختزال عهد الراشدين إلى عهد عمر فقط:

أول هذه الأغلاط أو المغالطات، هو اختزال عهد الراشدين كله إلى عهد عمر وحده، متجاهلين عهد أبي بكر (رضي الله عنه)، وما فيه من إنجازات هائلة، برغم قصره، فقد حارب المرتدين ومانعي الزكاة، وأعادهم إلى حظيرة الإسلام، وحفظ للفقراء حقوقهم، وكانت دولته أول دولة في التاريخ تشن الحرب، وتجيّش الجيوش من أجل حقوق الفقراء، وقد قال في ذلك قولته الشهيرة: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه»[١].

وهو الذي بدأ الفتوح الإسلامية، في حربه مع فارس والروم، وقد لحق بربه ومعركة «اليرموك» مع إمبراطورية الروم قائمة.

وهو الذي أرسى مبادئ أخلاقية في الحرب استمدها من كتاب الله ومن سنة رسوله، فأوصى: ألا يقتل الرهبان، وأن يتركوا وما فرغوا أنفسهم له من التعبد[٢]، وهو الذي أنكر أن ينقل إليه رأس مقتول من الأعداء، وقال: لا ينقل إلي رأس بعد اليوم[٣].

وهو الذي أرسى المبادئ الدستورية في تقييد سلطة الحاكم ورقابة الشعب عليه، منذ أول خطبة خطبها حين قال: «أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني،

---

(١) البخاري (٧٢٨٥) ومسلم (٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٩٨٢) عن يحي بن سعيد، والبيهقي في السنن (١٣ / ٣٧٤) عن سعيد بن المسيب.

(٣) عبد الرزاق في «المصنف» (٥ / ٣٠٦ / ٩٧٠١)، وابن أبي شيبة (٦ / ٥٣٤ / ٣٣٦١٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ١٣٢) عن يزيد بن حبيب.

أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. . .[1] إلى غير ذلك من الأعمال الصالحات، والإنجازات المباركات.

حتى قال د. محمد حسين هيكل، في كتابه «الصديق أبوبكر»: أليست هذه بعض معجزات التاريخ؟! في سنتين وثلاثة أشهر، تطمئن أمم ثائرة، وتصبح أمة متحدة قوية، مرهوبة الكلمة، عزيزة الجانب، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين، اللتين تحكمان العالم، وتوجهان حضارته، لتنهض بعبء الحضارة في العالم قرونا بعد ذلك.

هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله، فلا عجب أن يقتضي من أبي بكر مجهودا، تنوء به العصبة أولو القوة. . وقد تخطى الستين يوم بويع[2]. .

ومتجاهلين - كذلك - السنوات الأولى في عهد عثمان رضي الله عنه وما حققت من رخاء ورفاهية في الداخل، وفتوحات وانتصارات في الخارج، في البر والبحر، كما يشهد بذلك التاريخ، وهو أول خليفة يركب المسلمون البحر في عهده غزاة في سبيل الله، كما بشرتنا بذلك الأحاديث الصحاح. وما خلفه من فقه في السياسة الشرعية، وفتاوى لها قيمتها، مثل: عدم إيقاع «طلاق الفارّ» الذي يطلق امرأته في مرض موته، فرارا من ميراثها له، يريد أن يحرمها من الميراث، فرد عثمان ذلك، وورثها منه إذا مات في هذا المرض، ومثل: إجازة التقاط الإبل الضالة، ووضعها في بيت المال. حتى يأتي صاحبها فيأخذها. وقد كانت الأحاديث النبوية تمنع ذلك. فرأى أن هذا من تصرفات الرسول الكريم بوصفه إماما للأمة، فيجوز للإمام بعده أن يكون له نظر آخر[3].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢ / ٢٣٨).

(٢) انظر: الصديق أبوبكر: ص ٣٤٥.

(٣) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي: فقه الصحابة والتابعين صـ ٨٣ - ٨٥ للدكتور محمد يوسف موسى، وانظر أيضا: كتابنا «الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان» صـ ١٠ - ١٢ نشر مكتبة وهبة القاهرة.

ومتجاهلين ـ كذلك ـ ما أرساه علي رضي الله عنه، وكرم الله وجهه من مبادئ في سياسة الحكم، وسياسة المال، ومعاملة البغاة والخارجين على الإمام، برغم الصراع، الذي وقع بينه وبين الأطراف الأخرى. كما ترك لنا ثروة فقهية، وتطبيقات عملية في أمور شتى في شؤون الحياة، ومنها «تضمين الصناع» إذا أتلفوا ما بأيديهم، ولم يثبتوا أن ذلك كان بشيء فوق قدرتهم.

ومن ذلك: تعامله مع الخوارج بوصفهم حزبا معارضا له، فأقرهم على معارضتهم ما دامت سليمة، وقال لهم: «لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا نمنعكم فيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلوا»[1].

وفي هذا إقرار بشرعية أحزاب المعارضة، ما دامت لا تستخدم السلاح.

إلى فتاوى شتى في فقه المعاملات وغيرها.

٢ـ تكرار النموذج العمري بصورة أو أخرى:

الغلط الثاني أو المغالطة الثانية، هي: الادعاء بأن عمر كان فلتة لا تتكرر، فهو قول يكذبه الواقع التاريخي، فقد رأينا النموذج العمري يتكرر في صور مختلفة، وفي عصور مختلفة، وإن لم يكن في نفس الحجم والدرجة؛ لاختلاف الأعوان، واختلاف العصر.

رأيناه في سَميه عمر بن عبد العزيز، الذي أقام العدل، وأحيا ما مات من سننه، ورد المظالم، ومكن لدين الله في الأرض، وأعاد الحكم إلى نهج الخلافة الراشدة، حتى سماه المسلمون: «خامس الراشدين». وبلغ من زهده أنه لم يكن له إلا قميص واحد، لاحظ الناس اتساخه عليه، فكلموا زوجته في غسله، فقالت لهم: والله ما له غيره!!

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٦٢/ ٣٧٩٣٠) والطبري في تاريخه (٣/ ١١٤) والمغنى لابن قدامة (١٢/ ٢٤٩) طبعة هجر.

وبرغم قصر مدته، استطاع أن يبث الأمن والرخاء والاستقرار في أنحاء دار الإسلام.

رأيناه في سيرة يزيد بن الوليد، الذي ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد، لمجونه وانحرافه، وأراد أن يجدد من سنن الإسلام وعدله ما بلي، وكان يلقب «الناقص»؛ لأنه نقص من أعطيات الجند، لتوفير المال للمصارف الأخرى، وكان هو وابن عبد العزيز أعدل بني مروان، ولكن لسوء حظ المسلمين، وافاه أجله المحتوم بعد ستة أشهر!

رأيناه ـ بعد ذلك ـ في مثل نور الدين محمود الشهيد، الذي كانوا يشبهونه بالراشدين في سيرته، وعدله، وجهاده للغزاة الصليبيين، وتصميمه على تطهير المجتمع من الظلم والفساد.

رأيناه في مثل صلاح الدين الأيوبي، الذي شهد له خصومه قبل أنصاره، شهد له الصليبيون الغربيون، الذي حاربهم وحاربوه، كما شهد له المسلمون.

صحيح أن واحدا من هؤلاء لم يبلغ مبلغ عمر؛ لأن أعوان عمر كانوا من الصحابة الكرام، وعصره كان عصر الصحابة، وهذه ميزة لم تكن لأحد ممن ذكرناهم.

٣ـ المجازفة بتجريح التاريخ الإسلامي كله:

والغلط الثالث أو المغالطة الثالثة: أن من الظلم البَيِّن لحقائق التاريخ أن نطلق الحكم على جميع خلفاء بني أمية، وبني العباس، وآل عثمان، وسلاطين المماليك في مصر والشام، وملوك المرابطين، والموحدين، وغيرهم في المغرب، وسلاطين المغول في الهند، وآسيا وغيرهم: بأنهم كانوا ـ جميعا ـ ظلمة وفجرة، ومنحرفين عن عدل الإسلام، ونهج الإسلام.

فالواقع أن هذا ليس من الإنصاف في شيء، فقد كان من هؤلاء كثيرون،

اتصفوا بكثير من العدل والفضل وحسن السيرة، ولا سيما إذا قورنوا بغيرهم من حكام العالم في زمنهم.

ولكننا كثيرا ما نأخذ أخبار تاريخنا من مصادر غير موثقة، وروايات غير ثابتة، لو عمل فيها مبضع «الجرح والتعديل»، لم تقم لها قائمة.

فكيف، وبعض مصادرنا كتب الأدب والأقاصيص، مثل «الأغاني» للأصفهاني، الذي سماه أحد إخواننا[1] «النهر المسموم»؟!

والأغاني إنما يؤرخ لشريحة معينة من المجتمع هي شريحة أهل اللهو والطرب ومن حولهم، وهؤلاء لا يمثلون المجتمع كله.

إنني أُشبِّه الذي يأخذ صورة الحكم أو المجتمع من كتاب مثل «الأغاني»، بالذي يحكم على المجتمع المصري كله من خلال «الأفلام» السينمائية المصرية، التي كثيرا ما تمثل شريحة محدودة ـ جدا ـ داخل المجتمع، وهي ما يسمونه «الوسط الفني».

فإذا نظرنا إلى رجل مثل هارون الرشيد، نجد الأخباريين والقصاصين صوروه، وكأنه رجل خلاعة وفجور، لا علاقة له بالعلم، ولا بالعمل، ولا بالعبادة، ولا بالجهاد، ولا بالعدل، ولا بالفضل.

والواقع أن الوقائع الثابتة من سيرة الرجل، الذي بلغت الحضارة الإسلامية في عهده أوجها، والذي كان يهابه ملوك العالم، ويقدرونه قدره، والذي كان يغزو عاما، ويحج عاما: تكذب هذه الأقاويل المصنوعة.

وقد دافع عنه ابن خلدون في مقدمته دفاعا علميا رصينا، يرد به على المتقولين والخراصين، وإن كانت حياته، لا تخلو من هنات، غفر الله لنا وله. ولكنّا نقيس

---

(١) هو الدكتور عبد العظيم الديب أستاذ الفقه والأصول بجامعة قطر ومحقق تراث إمام الحرمين الجويني.

أي إنسان بمجموع صفاته وأعماله، مزاياه وعيوبه، حسناته وسيئاته، فمن ثقلت موازين حسناته، فأولئك هم المفلحون. وهذا هو النهج الإلهي العادل في محاسبة الناس.

وإن فيما كتبه الإمام أبو يوسف في كتابه: «الخراج» لهذا الخليفة الجليل، ليهتدي به، ويسير على أحكامه في الشؤون المالية، وما وعظه به في مطلع كتابه، لدليلًا ناصعا على ما للشريعة وقيمها وأحكامها من مكانة عليا في نفسه، وفي حياته كلها.

والشاهد هنا: أن كل خليفة أو ملك أو سلطان عظيم في تاريخ الإسلام: لم تكن عظمته إلا بمقدار صلته بهذه الشريعة الإسلامية، وحسن قيامه عليها، ونصحه لله ولرسوله ولكتابه وللمسلمين عامة.

وحسبنا أن نذكر من عظماء السلاطين والأمراء هنا، ممن حقق الله علي أيديهم الخير للمسلمين، وكتبهم التاريخ في سجل الخالدين: السلطان نور الدين محمود الملقب بالشهيد، الذي أحيا الله به سنة الراشدين، وأقام به معالم الدين، وقهر بسيفه الصليبيين[1].

ذكر الحافظ المؤرخ أبو شامة المقدسي في كتابه المسمى «أزهار الروضتين في أخبار الدولتين»:

أن نور الدين الشهيد لما ولي الحكم، كانت البلاد على أسوإ الأحوال من كل ناحية، ففكر عقلاء الدولة فيما يجب السير عليه في إصلاح شؤون البلاد، وارتأوا أن مجرد تنفيذ أحكام الشرع عند ثبوت إجرام المجرمين ثبوتا شرعيا، لا يكفي في قمعهم، فلا بد من أخذهم بأحكام قاسية سياسية حتى يستتب الأمن، وتصلح الأحوال، فرجوا العالم الصالح الشيخ عمر الملا الموصلي لما له من المنزلة

---

(١) انظر: كتاب الدكتور عماد الدين خليل عن نور الدين محمود: الرجل والتجربة، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت.

السامية عند نور الدين قبل توليه الملك لعلمه ودينه: أن يوصِّل إلى مسامع الملك ذلك الرأي الحصيف في ظنهم، فقبل رجاءهم، وكتب إلى نور الدين يوصيه بالضرب على يد الفئة الآثمة بأحكام صارمة، بدون انتظار إلى ثبوت إجرامهم ثبوتا شرعيا.

وبعد أن قرأ الملك توصية الشيخ، كتب على ظهرها بيده الكريمة ما معناه: «حاش أن أجازي أحدا بجرم قبل أن يثبت جرمه ثبوتا شرعيا، وحاش أن أتهاون في عقوبة مجرم ثبت جرمه ثبوتا شرعيا، ولو جريت على ما رسمته التوصية لي لكنت كمن يفضل عقل نفسه على علم الله جل شأنه، ولو لم يكن هذا الشرع كافيا في إصلاح شؤون العباد لما بعث به خاتم رسله»!

وأعادها إلى الشيخ.

ولما اطّلع الشيخ على هذا التوقيع الملكي الحازم، بكى بكاءً مرا وقال: ياللخيبة! كان الواجب علي أن أقول ما قاله الملك! فانقلبت الأوضاع، وانعكس الأمر..

فتاب من توصيته أصدق توبة، وجرى الملك في تسيير الأمور على ما رسمه الشرع حرفا حرفا، فصلحت البلاد، وزال الفساد، في مدة يسيرة، وأصبحت تلك الأصقاع بحيث لو سافرت غادة حسناء وحدها، ومعها أثمن الجواهر والأحجار الكريمة، من أقصى البلاد إلى أقصاها، ما حدّثت أحدا نفسه أن يمسها بسوء، لا في مالها ولا في عرضها.

وقد اكتظت كتب التاريخ بما تم على يد هذا الملك الصالح من الإصلاحات العظيمة، بعد تطهيره أرض الشام ومصر من عدوان أهل الصليب، حتى ألحق بالخلفاء الراشدين بسيرته الرشيدة[1].

---

(١) عن مقالات الكوثري (٣٢٠-٣٣١).

ومثل الشهيد نور الدين محمود تلميذه وخريجه السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي حقق الله على يديه النصر على الصليبيين في معركة «حطّين» الشهيرة، والذي فتح القدس، واستردها من أيدي الغزاة الأوربيين، بعد أن دامت في أيديهم تسعين عاما.

لقد حرص صلاح الدين على إحياء الأحكام الشرعية والسنة النبوية، بعد أن عاث العُبَيديون ـ المسمون بالفاطميين ـ فسادا في كل شيء، فكانوا يمنعون أهل السنة من قراءة الحديث، حتى اضطر بعض المحدّثين إلى مغادرة مصر، وكانوا يكافئون الناس على لعن الصحابة، ويقولون: «من لعن وسبّ، فله دينار وأردب».. إلى آخر ما ابتدعوا في دين الله، وأفسدوا في دنيا الناس.

أما صلاح الدين، فقد أحيا السنة، حتى إنه اصطحب معه من العلماء من يدرس له صحيح البخاري، وهو في المعمعة، وفي قلب الميدان.

ومما يذكر لصلاح الدين ـ رحمه الله ـ أن أحد رجاله المتميزين عنده، استعداه يوما على رجل غشه في معاملة، فما كان من السلطان المؤمن إلا أن قال له: «ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم؟! والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته، فالحق يقضى لك أو عليك»![1].

ومعنى عبارة السلطان: أنه ليس إلا منفذا لحكم الشرع كالشحنة ـ وهو صاحب الشرطة ـ وأن القضاة مستقلون بالحكم، لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس.

وبهذا الالتزام والتمسك بالشريعة كُتب صلاح الدين في سجل الخالدين وعظماء التاريخ، وأقرّ بفضله العدو والصديق.

---

(١) عن كتاب «الوحي المحمدي» للسيد رشيد رضا (ص ٢٧٦) الطبعة الثامنة ـ طبع المكتب الإسلامي ـ بدمشق.

(٢)
الشريعة كانت أساس المجتمع الإسلامي طوال ١٣ قرنا

وأود أن أقرر ـ منذ البداية ـ أن التاريخ الصادق، يثبت بوضوح لا ريب فيه: أن الشريعة الإسلامية كانت هي الأساس الدستوري والقانوني للمجتمع الإسلامي، في جميع أقطار الدولة الإسلامية، منذ العهد النبوي، وعهد الخلفاء الراشدين، فمن بعدهم، من الأمويين والعباسيين والعثمانيين، لقرون متطاولة، إلى أن دخل الاستعمار بلاد المسلمين، فبدأ يغيّر من أصول المجتمع، ومرتكزاته العقدية والشرعية، ويحاول تبديل هويته، ومسخ شخصيته، ليتحول من الأصالة إلى التبعية، في الفكر والتشريع والتقاليد، وبذلك يسهل تطويعه وتهجينه وتسخيره لما يراد منه.

نعم ظلت الشريعة طوال العصور الإسلامية قبل دخول الاستعمار بلاد المسلمين: مصدر التشريع، ومصدر القضاء، ومصدر الفتوى، ومصدر التوجيه والتربية والتعليم للمجتمع كله، ولم يكن لها مزاحم في ذلك.

وقد شهد المؤرخون الغربيون أنفسهم: أن الفجوة بين المبادئ والقيم من ناحية، وبين التطبيق والسلوك من ناحية أخرى؛ كانت عند المسلمين أضيق بكثير منها عند أصحاب الأديان الأخرى.

كان المسلمون ـ حكاما ومحكومين ـ حريصين على الالتزام بدينهم، وأحكام شريعتهم من أي أصحاب دين آخر ؛ لإيمانهم بأن الالتزام بتطبيق شرع الله إنما هو موجب الإيمان، ومقتضى الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ

إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ (الأحزاب : ٣٦).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٥١).

كانت الجماهير المسلمة في أنحاء الدولة الإسلامية تلتزم بالإسلام مرجعا لها في عباداتها ومعاملاتها وسلوكياتها.

كان الناس يتزوجون ويطلقون، ويرثون ويورثون، وفق شريعة الإسلام.

وكان الناس يبيعون ويشترون، ويؤجرون ويستأجرون، ويمارسون سائر معاملاتهم وفق شريعة الإسلام.

وكانوا يتعاملون مع مواليدهم إذا ولدوا، ومع أمواتهم إذا ماتوا وفق شريعة الإسلام.

وإذا أشكل عليهم شيء في حياتهم : أحلال هو أم حرام؟ أسرعوا إلى العلماء، يستفتونهم في هذا الأمر، ليأخذوا منهم الإذن أو المنع، فلا يملكوا إلا أن يستجيبوا.

وبهذا أصبحت حياتهم في سفرهم وحضرهم، في خلوتهم وجلوتهم، وفي ليلهم ونهارهم : منضبطة بأحكام الإسلام.

هذا من ناحية الالتزام. أما من حيث التطبيق : فالناس متفاوتون، كما ذكر القرآن ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (فاطر : ٣٢). ولكن كلهم من الأمة المصطفاة، حتى الظالم لنفسه، لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ (فاطر : ٣٢).

إن الشعوب المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، كانت طوال التاريخ، تحتكم إلى هذه الشريعة في كل شؤونها، وظل «القضاء» في كل الأقطار يلتزم الحكم بها

دون سواها بلا نزاع، فهي من الناحية الدستورية ـ حسب التعبير الحديث ـ النظام الوحيد، المعترف به والمعمول به في جميع أنحاء دار الإسلام.

كما أن «الإفتاء» الذي يوجه جماهير الشعوب، ويقوم به العلماء الذي يلجأ إليهم الناس طائعين مختارين: ظل ملتزما بالرجوع إلى الشريعة أبدا وإلى اليوم.

هذا إلى أن التاريخ الصادق ينبئنا عن فترات مضيئة ما بين حين وآخر، رزق فيها المسلمون بحكام أوفياء لدينهم، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فحكَّموا شرع الله، وأقاموا عدله في الأرض، ونفّذوا حدوده في القريب والبعيد، ولم يخافوا في الله لومة لائم، فعزّوا وسعدوا وانتصروا، وعزّت بهم الأمة وسعدت وانتصرت، وكان في هذا العزّ والسعادة والنصر تحت سلطان هؤلاء الحكام الملتزمين بشريعة الله: أنصع برهان على صلاحية هذه الشريعة للخلود، وأن الخير كل الخير في اتباعها، والاعتصام بحبلها، والشر كل الشر في الانحراف عنها، واتباع غير سبيلها.

ولعل من أبرز الأمثلة التي تذكر بهذا الصدد في العهد الأموي: سيرة عمر بن عبد العزيز الذي ولي الخلافة بعد أن انحرف الحكم الأموي كثيرا بعد معاوية ـ خصوصا على يد طاغية مثل الحجاج ـ عن نهج الراشدين، وارتكب كثيرا من المظالم، وأمست له سمات كِسروية أو قيصرية بعيدة عن منهج الإسلام، وروح الإسلام.

فما كان من عمر إلا أن أحيا العمل بالشريعة كلها، فألغى مظاهر الترف والأبهة، ورد المظالم، ومنع الفساد، وعدل في الرعية، وقسم بالسّوية، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فلم تمض ثلاثون شهرا ـ هي كل مدة خلافته ـ حتى عم الرخاء والازدهار، وساد الإخاء والاستقرار، وامّحى الفقر من بين الناس. فلا عجب أن عَدَّه علماء المسلمين «مجدد المائة

الأولى» في الإسلام، أخذا من الحديث الشريف الذي رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة مرفوعا: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»[1].

وروى البيهقي في الدلائل عن عمر بن أسيد قال:

«إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا، لا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيه فلا يجده، قد أغنى عمر الناس»[2].

وكان مناديه ينادي في الناس كل يوم: أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟[3]، ليتم الكفاية للمساكين، ويقضي دين الغارمين، ويزوج الراغبين في النكاح.

وذكر واليه على إفريقية (تونس وما حولها): أنه اجتمعت عنده أموال زكوات، فبحث عن فقراء ليردها فيهم، فلم يجد. فكتب إلى عمر يستشيره: ماذا يفعل بهذا المال؟ فقال له: اشتر بها رقابا فأعتقها[4]!

أي إن حصيلة الزكاة تحولت كلها لتحرير الرقيق، بعد أن تحرر الناس من الفقر.

وفي الشهور الثلاثين التي قضاها خامس الراشدين: أحدث ما يشبه «الانقلاب» في الحياة الإسلامية، مما سجله المؤرخون، وتحدث عنه الباحثون[5].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم من سننه (٤/ ١٠٩/ ٤٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٧/ ٨٥٩٢) عن أبي هريرة، وأورده ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٩٥)، وصححه غير واحد من الأئمة.

(٢) انظر «فتح الباري»: (٧/ ٤٢٤) ط. مصطفى الحلبي، وإرشاد الساري للقسطلاني: (٦/ ٥١).

(٣) ذكر ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة عمر بن عبد العزيز.

(٤) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ٥٩.

(٥) من أفضل ما كتب في ذلك: «ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز» د. عماد الدين خليل.

الحجاج ينحني إذعانا للشريعة:

ذكر ابن عبد ربه الأديب الأندلسي في كتابه الشهير (العقد الفريد): أن رجلا يقال له: سُليك ابن سُلكة، دخل على الحجاج يشكو إليه مظلمة حلت به على أيدي رجاله. فكان مما قاله للحجاج:

عصى عاص من عُرْض العشيرة، فحُلِّق على اسمي[1]. وهُدِم منزلي، وحُرمتُ عطائي!

يعني الرجل: أن هذا كله أصابه بذنب واحد من العشيرة! فحمّلوه وزره، وعاقبوه بذنب غيره، كما يفعل الطغاة إلى يومنا هذا. وكما تفعل (إسرائيل) حين تعاقب من يقومون بالعمليات الاستشهادية بهدم منزل أسرته وتركهم في العراء.

قال الحجاج يرد على الرجل: هيهات! أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك، وقد

تُعدي الصحاحَ مباركُ الجُرْبِ!

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة

ونجا المقارفُ صاحبُ الذنب!

فقال الرجل: أصلح الله الأمير! إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى - أي على لسان إخوة يوسف -: ﴿ **قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ (يوسف: ٧٨، ٧٩). قال الحجاج:

(١) يعني أن اسمه وضع داخل حلقة أو دائرة من المداد كما يفعل أمام المواد التي يرسب فيها التلاميذ. وبتعبير العصر: وضع اسمه في القائمة السوداء.

علي بيزيد بن أبي مسلم . . فمثَل بين يديه، فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له (اكتب له صكا) بعطائه، وابن له منزله، ومُرْ مناديا ينادي: صدق الله، وكذب الشاعر![1].

فهذه القصة التي ترويها كتب الأدب تدل بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها، حتى على طغاة الحكام. وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية. كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى: لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله، أو تحدي نصوصها، ولو كان هو الحجاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت.

تأثير الحكام في الشعوب في ذلك الزمن كان محدودا:

وأود أن أكون منصفا فأقول: إن الحكام في ذلك الزمن لم يكن لهم من التأثير ما للحكام في زمننا.

فالحكومة في زمننا أصبح لها تأثير بالغ في المجتمع، فهي التي غدت تملك زمام التعليم والتربية للمجتمع كله، من الحضانة إلى الجامعة.

وهي التي تملك زمام الإعلام كله، بالكلمة المكتوبة، والكلمة المسموعة، والكلمة المرئية، وهي التي تنقل لهم الحدث والخبر والرأي، وتلونها كما تشاء.

وهي التي تملك زمام الأمن والدفاع، والقضاء والنيابة والشرطة وغيرها.

إلى غير ذلك مما أمسى في يد الدولة الحديثة، حتى قال الفيلسوف الوضعي (برتراند راسل): إن من مميزات عصرنا قدرة الدولة الهائلة على التأثير في الشعب.

أما الدولة قديما، فما كانت تملك هذا كله، ولا نصفه ولا عشره.

---

(١) انظر: العقد الفريد جـ١/ ٣١، ٣٢ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

كان العلماء هم الذين يعلمون الناس في المساجد والمدارس، ولم يكن أمر ذلك إلى الدولة.

وكان العلماء هم الذين يفتون الناس في شؤون دينهم وحياتهم، ولا علاقة للدولة بهم.

وكانت الدولة - أي ممثلة في الإمام - تعين القضاة، ولكنهم كانوا يقضون بأحكامهم بمعزل عن الدولة، ولا علاقة لها بأحكامهم، وقد يحكمون عليها نفسها. وكثيرا ما رأينا القضاة يحكمون على الأمراء والخلفاء، فلا يملكون إلا أن ينفذوا، وكان القانون الوحيد الذي يرجع إليه القضاة هو الشريعة.

كانت الدولة مشغولة فى أكثر الأحوال بالحرب أو السلم، وتوفير الأمن وما يتعلق بالمحافظة على بقائها. وكان الناس في مدنهم وقراهم يمارسون حياتهم في ضوء دينهم بمعزل عنها، بكل حرية، دون أن يسائلهم أحد أو يراجعهم، أو يضيّق عليهم.

(٣)

نموذج صارخ لتحريف التاريخ

لقد أصبح تاريخنا هدفا يرميه كل من في يده نبل، من يمين وشمال؛ لأنه لم يعد يجد من يدافع عن بيضته، ويذود عن حماه. وكأن الناس لما عجزوا عن إصلاح حاضرهم، والنهوض به، واللحاق بموكب الأمم المتقدمة: لم يجدوا ما يبرر خيبتهم وإفلاسهم إلا التجني على التاريخ، وتحميله تبعة تخلفهم وتمزقهم وضياعهم. والحقيقة أن الوزر وزرهم لا وزر التاريخ، كما نجد بعضهم يلوم الزمان، ولا لوم على الزمان، بل اللوم على أهل الزمان.

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

وكما قالت الخنساء:

إن الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان، ولكن يفسد الناس!

ومن أسوأ ما رأيت أو ما قرأت من كتابات المتطاولين على تاريخنا المظلوم من العلمانيين المعاصرين من بني جلدتنا: ما كتبه أحدهم ممن دخل على التاريخ وليس من أهله، وادعى دعاوى عريضة لم يقم عليها بينة، وحرف التاريخ تحريفا ظاهرا، فجعل حقه باطلا، وباطله حقا. ولا أدري لحساب من يكتب هذا الباطل، ويروّج هذا الكذب؟ أم زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا، فإن الله يضل من يشاء؟

لقد رأينا هذا الكاتب ـ الذي فتحت له بعض المجلات السيارة أبوابها ـ يشوه سيرة عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الراشد، ويحسِّن صورة الحجاج بن يوسف طاغية بني أمية الجبار المستكبر.

وكأن هذا الكاتب بينه وبين التاريخ الإسلامي ثأر قديم، فقد كتب قبل ذلك ومع ذلك، يذمُّ «السلف الصالح»[1] ويسخر بهم، يقبّح صورتهم، وينتقص مسيرتهم، ويهزأ بعلومهم وفضائلهم، ويزدري صالحات أعمالهم، ولا يدع حسنة إلا أخفاها أو أظهرها في صورة السيئة، ولا يذر نقيصة إلا ألصقها بهم، بلا مستند من علم أو هدى أو كتاب منير.

وهذا ما اضطرنا إلى أن نرد عليه في كتابنا «فتاوى معاصرة» حين ضج الضمير العام، وشكا الجمهور المسلم مما يكتبه هذا الكاتب في بعض المجلات، من مقالات تستفزّ الإنسان الهادئ، وتستثير غضب الحليم.

دعوى اتهام عمر بن عبد العزيز بالجهل بالسياسة والإدارة:

فقد وجه إليّ سؤال يقول:

فوجئنا بكاتب علماني منتفش مغرور[2] يكتب في بعض المجلات ـ التي فتحت لأمثاله المجال ـ يهاجم عمر بن عبد العزيز بما لم يهاجمه به أحد قط فيما نعلم.

ولا بد أنكم اطلعتم على ذلك.

يقول هذا المتطاول الجريء:

«لم ير الأتقياء في حكم أحد من الخلفاء الأمويين ما يوافق مثلهم العليا، إلا عمر

---

(١) نشر ذلك في مجلة «المصور» ثم جمعه في كتاب تحت عنوان «حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية» انظر على الأخص ص ١٠٤. نشر دار النهضة العربية ـ بيروت.
(٢) الكاتب هو: حسين أحمد أمين.

ابن عبد العزيز، الذي أسهم جهله بالشؤون السياسية في تدهور أحوال الدولة ثم سقوطها، وانتقال السلطة من أيدي العرب إلى الفرس!!» «مجلة المصور» القاهرة في ٩/ ١٢/ ١٩٨٣م.

وفي عدد آخر من «المصور» ١٧/ ٤/ ١٤٠٤هـ - ١٩/ ١/ ١٩٨٤م يحمل على الفقهاء، ثم على المؤرخين ويتهمهم بالتواطؤ على تزوير التاريخ، حتى تكونت عند الناس النظرة «الرومانسية» - كما سماها - وبات المسلمون ينظرون إلى الخليفة عمر ابن عبد العزيز على أنه من أعظم الخلفاء، على حين يصفه الكاتب بأنه: لم تجلب سياسته المالية والإدارية إلا خراب الدولة! ثم يقول:

«وإن المسلمين لا يزالون يمصمصون شفاههم إعجابا بموقفه من واليه على حمص الذي كتب إليه: إن مدينة حمص قد تهدم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه، فرد عليه عمر بقوله: «أما بعد، فحصنها بالعدل». ».

ويعقب الكاتب المتحامل على هذا قائلا: «وهذا رد - رغم ما فيه من بلاغة تستهوي العرب - فإنه يستوجب المؤاخذة البرلمانية، في أي نظام حكم ديمقراطي!».

ورجاؤنا أن تبينوا حقيقة موقف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهل لهذه الدعوى التي يدعيها الكاتب أصل أو دليل يعتمد عليه؟.

وقد أجبت عن هذا السؤال الكبير، فقلت:

قرأت ما كتبه الكاتب عن: عمر بن عبد العزيز وعن السلف الصالح، وعن الشريعة الإسلامية قبل ذلك، ولا أدري كيف يسمح لمثله أن يصول ويجول ويقول ما يشاء، ويحطم ما يريد، ولا يسمح لأحد أن يرد عليه.

دعوى يكذبها المنطق والإجماع والتاريخ:

ولا أدري على أي أساس علمي بنى هذا المتطاول الجريء دعواه العريضة، عن

عمر بن عبد العزيز وجهله بالسياسة والإدارة. . إلخ؟ فإن المنطق يرده، والإجماع يرفضه، وتاريخ عمر نفسه يكذبه، وآثار حكمه تنقضه.

دعوى يكذبها المنطق:

أما أنها دعوى يكذبها المنطق، فليس من المعقول أن يكون عمر بن عبد العزيز جاهلاً بالسياسة والإدارة، وهو ابن الأسرة الأموية القح، أبوه عبد العزيز بن مروان، وعمه عبد الملك بن مروان، المؤسس الثاني لدولة بني أمية.

وأبناء عمومته الخلفاء: الوليد وهشام وسليمان، وهم أصهاره كذلك، فإن فاطمة زوجته هي بنت عبد الملك وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة، والخليفة زوجها

أخت الخليفة، والخليفة جدها

وقد كان أبوه أميراً على مصر، وتولى هو إمارة المدينة ومصر. . .

فليس يعقل ممن نشأ هذه النشأة، وتقلب في المناصب، حتى رشح لأعلى المناصب في الدولة ـ الخلافة ـ أن يكون جاهلاً بالسياسة والإدارة! إلا أن يكون مجرد التدين والالتزام بالعدل والتقوى سببًا لحرمانه من الكفاية السياسية والإدارية التي تمتع بها أهله وذووه جميعًا!

ويكذبها الإجماع:

وأما الإجماع، فقد اتفقت الأمة كلها على أنه لم يأت بعد الخلفاء الراشدين خير من عمر بن عبد العزيز، ولهذا سموه: خامس الراشدين. وعَدُّوه مجدد المائة الأولى، وعَدَّه بعضهم مهدي الأمة[1]. وهذا الإجماع ليس لكثرة صيامه وقيامه

---

(١) انظر: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز لعماد الدين خليل ص٧٨، ٧٩، وقول سعيد بن المسيب: هذا هو المهدي!!

فحسب، بل لعدله وتعففه عن المال العام، وحسن إدارته وسياسته، التي أدت إلى رخاء لا نظير له، رغم قصر مدته.

ويكذبها التاريخ الموثق:

وأما تاريخ عمر، فهو ينطق بأنه كان سياسيًا وإداريًا من الطراز الأول.

وأنا أذكر هنا: بعض الوقائع التي تدل على حنكته وحكمته السياسية، وقدرته الإدارية، وحسن فهمه للحياة والدين معًا.

رووا عن عمر بن عبد العزيز: «أن ابنه عبد الملك قال له يومًا: ما لك لا تنفذ الأمور؟! فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في سبيل الله!».

يريد الشاب التقي المتحمس من أبيه - وقد ولاه الله إمارة المؤمنين - أن يقضي على المظالم وآثار الفساد دفعة واحدة - دون تريث ولا أناة، وليكن بعد ذلك ما يكون! فماذا كان جواب الرجل الصالح، والخليفة الراشد، والفقيه المجتهد؟

«قال عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة»[1].

يريد الخليفة الراشد أن يعالج الأمور بحكمة وتدرج، مهتديًا بمنهج الله تعالى الذي حرم الخمر على عباده بالتدرج. وانظر إلى تعليله المصلحي الرصين، الذي يدل على مدى عمقه في فقه السياسة الشرعية: إني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة!

وروى عنه ميمون بن مهران قوله: «إني لأريد الأمر من أمر العامة - يقصد ما يتعلق بالجماهير - فأخاف ألا تحمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من طمع الدنيا.. فإن أنكرت قلوبهم هذا سكنت إلى هذا»[2].

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٩٤).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ١٢٩، ١٣٠، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠٠.

يريد أن لا يصدر قرارا من القرارات التي تمس الجمهور مما يرى أنه الحق من الأعباء والتكاليف، إلا ومعها قرار آخر يتضمن مصلحة دنيوية لهم، فإن أنكروا ذاك آنسوا لهذا، وهذا ما يفعله المحنكون في السياسة إلى اليوم.

ومرة أخرى، يدخل عليه ابنه المؤمن المتوقد حماسة وغيرة، ويقول عاتبا أو غاضبا: «يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، أو سنة فلم تحيها؟! فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا! يا بني، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم: لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقا يكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يراق في سببي محجمة من دم! أو ما ترضى ألاّ يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا، إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة؟»[1].

بهذه النظرة الواقعية العميقة كان عمر يسوس الأمور، وبهذا الأسلوب المتدرج العاقل كان يعالج الأمور الصعبة المعقدة، وبهذا المنطق القوي الرصين، أقنع الأب الراشد ابنه المتوثب المتحمس، فهل يوصف مثل هذا السياسي الحكيم بأنه جاهل بالشؤون السياسية؟!!

إن هذا لا يقوله إنسان يفهم السياسة، أو يفهم الحياة، إنما يقوله من لا يملك إلا الجرأة على الدعاوى العريضة الهائلة، دون أن يقيم عليها دليلا.

واقعة سور مدينة حمص:

وأما ما ذكره عمر بن عبد العزيز عن سور المدينة، وقوله لواليه: «حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم» والذي زعم الكاتب العبقري! أنه لو كان في بلد ديمقراطي لكان موضع مؤاخذة برلمانية! فالحق أن الكاتب في قوله هذا: إما غبي

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٣، ٢٢٤.

لم يفهم ما هو في الوضوح كالشمس، وإما فاهم يحرف الكلم عن مواضعه لهوى في نفسه.

فعمر بكلمته البليغة والحكيمة يشير إلى حقيقة اجتماعية من أعظم الحقائق، وهي: أن المدن لا تحميها الأسوار المادية، وإن علت وعظمت، وإنما يحميها أهلها وسكانها، ولن يفعلوا ذلك إلا إذا شعروا بأن خير هذه المدينة لهم ولذريتهم، وأنهم فيها آمنون مطمئنون، أما إذا شعروا بأن فئة محدودة هي التي تَطْعَم التمر، وتتبرع لهم بالنوى، وتأكل اللحم، وتدع لهم العظم، أو أنهم فيها خائفون مهددون في أرزاقهم، أو أعراضهم، أو حرماتهم، فليس بعيدا أن يتقاعسوا عن الدفاع عنها، ولا يبعد أن يستغل العدو هذا الموقف فيغير عليها، وهو آمن من غضبة الجبهة الداخلية.

لهذا كانت وصية عمر للوالي أن يهتم بما يغفل عنه الولاة، وهو إقامة العدل ومحاربة الظلم، التي تحبب إلى الناس أوطانهم ومدنهم، وتجعلهم يتشبثون بها ويدافعون عنها بالأنفس والنفائس، فأعظم سور يحمي المدن حقا: ما كان من البشر لا ما كان من الحجر!

ويؤكد هذا: أن الوالي كان يريد من عمر، أن يقطع له مالا (أي من الخزينة العامة) لمرمة سور المدينة، كما روى ذلك الحافظ السيوطي في: «تاريخ الخلفاء»[1]. وعمر من أحرص الناس في إنفاق الأموال العامة، فبدل أن تتجه الأموال إلى الجوانب العسكرية التي كثيرا ما تبتلع الميزانيات، وخصوصا عند الحكام الطامحين وأعوانهم من القادة العسكريين، يجب أن توجه أولا إلى النواحي الاجتماعية لسد الخلل، وتحقيق الكفاية لكل محتاج.

لقد كان ابن عبد العزيز مؤمنا كل الإيمان بأن العدل هو أساس الدولة، وسناد الحكم، وحارس الملك، وليس هو الجبروت، والقوة المادية التي

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٢١٦.

عامل بها بعض ولاة بني أمية الناس، دهرا قبل عمر، ورأوها وحدها: أنها التي تحفظ لهم الملك، ناسين أن الظلم لن تدوم دولته، وأن المظلومين لا بد أن ينتفضوا يوما ما، مطالبين بحقوقهم.

ومن هنا كان رد عمر على ولاته ـ الذين اقترحوا عليه أن يسيروا في ولايتهم على سنة من كان قبله من العسف والإرهاب ـ هو الرفض والإنكار والتنديد.

ذكر السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ما أخرجه ابن عساكر عن السائب: «كتب الجراح بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، والسلام»[1].

وقد دلت الوقائع أن فلسفة عمر في الحكم، أصوب من فلسفة من سبقه من المتجبرين، وأن سياسته آتت أكلها دون حاجة إلى الخروج عن أحكام الشريعة وحدودها.

قال يحيى الغساني من ولاة عمر: «لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبا. فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إليّ: أن آخذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق، فلا أصلحهم الله! قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرقة ونقبا»[2].

وكان من حسن سياسته: أنه يوسع على عماله (ولاته) في النفقة، يعطي الرجل

---

(١) انظر: المصدر السابق نفسه ص ٢٢٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٢١.

منهم في الشهر مائة دينار، ومائتي دينار، وكانت حجته: أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، ولم تتطلّع أعينهم إلى شيء آخر، يكملون به ما نقص من حاجاتهم!

وقد قيل له يوما: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عُمّالك؟ فقال: لا أمنعهم حقا لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم[1].

ومن سياساته الاقتصادية الرشيدة ما رواه أبو عبيد في «الأموال»: أنه كتب إلى واليه عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو بالعراق - «أن أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال! فكتب إليه: أن انظر كل من ادّان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، فكتب إليه واليه: إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال! فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال، فشاء أن تزوجه، فزوجه وأصدق عنه - ادفع له الصداق - فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت المال مال! فكتب إليه عمر: أن انظر من كانت عليه جزية، فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا عامين»[2].

وهنا نجد سياسته الاقتصادية لا تقوم على عدالة التوزيع فقط، الذي شمل المدينين وطلاب الزواج، بل تضم إلى ذلك تنمية الإنتاج. ومن هنا وجه واليه إلى «التسليف الزراعي» لأصحاب الأرض، حتى يقووا على الاستمرار في زراعة الأرض التي هي المورد الأول والدائم لقوت الناس.

ومن حسن سياسته: أنه أبطل سب آل البيت، وشغل الناس عن الخوض في الفتن بالجد في العمل، ولما سئل عما وقع بين الصحابة من حروب، قال كلمته الشهيرة: تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا!

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٠٣.

(٢) انظر: الأموال لأبي عبيد بتحقيق هراس ص ٣٥٧، ٣٥٨.

هذا هو عمر بن عبد العزيز في سياسته وإدارته، حكيم ثاقب النظرة، واسع الأفق، يراعي الواقع، ويقدر العواقب، ويؤمن بالتدرج، ويلبس لكل حالة لبوسها[1].

آثار سياسة ابن عبد العزيز في واقع الناس:

ولقد آتت هذه السياسة الحكيمة، والإدارة العاقلة، أكلها في رخاء الدولة وأمنها واستقرارها، وشعر الناس بسيادة العدل والطمأنينة في كل أقطارها، وليس أدل على سلامة البذرة، من طيب الثمرة.

فإذا كان بعض الناس يتصور حسن الإدارة ـ أو يصورها ـ في سوق الناس بالعصا الغليظة، وفرض هيبة الدولة بسيف الإرهاب، وأخذ البريء بالمسيء، حتى يقول الرجل لصاحبه: انج سعد فقد هلك سُعَيد! فلهم ما يشاؤون.

ولكنا نقول لهم ما قاله التاريخ: إن درة عمر بن الخطاب كانت أهيب لدى الناس من سيف الحجاج!

وأما آثار خلافة عمر بن عبد العزيز في السياسة والاقتصاد والإدارة، والأمن في الداخل، والسمعة في الخارج، وانتشار الإسلام، فهي أشهر من أن تذكر.

وحسبي هنا أن أشير إلى بعض المظاهر التي لها دلالتها، والثابتة في أوثق المصادر. وقد أشرنا إليها فيما مضى.

روى البيهقي في «الدلائل» عن عمر بن أسيد ـ ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ـ قال: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا، لا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذه حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم، فلا يجده، فيرجع بماله. فأغنى عمر الناس».

---

(١) انظر: الدراسة القيمة عن «ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز» للدكتور عماد الدين خليل نشر «الدار العلمية» بيروت. وخصوصا: الفصول: الثاني والثالث والرابع.

قال البيهقي في رواية هذا الخبر: «فيه تصديق ما روينا في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه»[1].

وقال يحيى بن سعيد: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيرا، ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس»[2].

ولا غرو أن أجمع علماء الأمة من فقهاء ومتكلمين، ومحدثين وصوفية، ومؤرخين، على فضل عمر بن عبد العزيز، وإعطائه مكانا بارزا في التاريخ الإسلامي وسير رجاله المصلحين.

وحينما شرحوا الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو داود وغيره: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، وأرادوا أن يطبقوه على الواقع التاريخي، أجمعوا على أن عمر هو مجدد المائة الأولى، كما ذكر ذلك الحافظ السيوطي في منظومته عن المجددين قال:

فكان عند المائة الأولى عمر

خليفة العدل بإجماع وقر[3]

وهذه الدلائل كلها، تنقض دعوى الكاتب في اتهامه لعمر بسوء الإدارة، وأنه لو كان في نظام ديمقراطي، لقدم للمحاكمة بتهمة تخريب الدولة!! فها هو ذا التاريخ يثبت أن ابن عبد العزيز أصلح الدولة وعمرها ولم يخربها، كما زعم بجهله وكذبه.

لقد بينا: أن عمر حين قال لواليه في شأن سور المدينة: «حصنها بالعدل»،

---

(١) انظر: فتح الباري ١/ ٤٢٤، وإرشاد الساري للقسطلاني ٦/ ٥١، وعمدة القاري للعيني ١٦/ ١٣٥.

(٢) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٥٩.

(٣) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ١/ ١١.

أراد أن يوجهه ويوجه أمثاله من الولاة إلى أمر عظيم لا يدرك سره الخاطفون المتعجلون المتغطرسون من أمثال هذا الكاتب. هذا الأمر العظيم: أن البلاد لا يحصنها من الغزوات الخارجية، ولا يحميها من الفتن الداخلية، مجرد إقامة الأسوار والتحصينات المادية، إنما يحميها ويحصنها قبل كل شيء: إقامة العدل في ربوعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، ومحاربة المظالم، وردها إلى أهلها، فهذا هو الذي يجعل من أبنائها سورا حقيقيا لحراستها، ويجعل من كل منهم درعا لحمايتها.

أما إذا فقد العدل فمجرد الأسوار لا تحميها، وأهلها لا يبالون بسقوطها، كما حكى تاريخ الجاهلية عن عنترة العبسي، الذي وقف يتفرج على قبيلته، وهي تهزم أمام عينيه، حين أغارت عليها إحدى القبائل، وهو لا يحرك ساكنا، لأنهم ظلموه، وعَدُّوه عبدا كل مهمته أن يرعى الجمال! وقال في ذلك لأبيه حين طلب إليه أن يكر مع قومه: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر!

ولا يعني رد الخليفة عمر - لمن يتذوق معاني الكلام ويفقه مراميه - أن تهمل أسوار المدن وتحصينات البلاد، ولكنه أراد أن ينبههم إلى ما غفلوا عنه، ولكل مقام مقال.

موقف الكاتب من الحجاج:

ومن العجب العجاب: أن الكاتب الذي صوب سهام النقد والإنكار إلى عمر ابن عبد العزيز، يكيل المديح والإطراء إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، طاغية بني أمية!

يقول: قد تكونت صورة شوهاء من الصعب تغييرها عن الحجاج بن يوسف . . . لمجرد قسوته في استئصال شأفة المارقين الخارجين على الدولة،

وهو الذي شهد له المؤرخون الأوربيون بأنه أحد أعظم الإداريين في تاريخ العالم.

هنا يكشف لنا الكاتب عن المؤثرات الموجهة لتفكيره وتكوين رأيه: ما يقوله الأوربيون والمستشرقون! فإذ شهد هؤلاء للحجاج، فلنضرب عرض الحائط بشهادة المؤرخين والفقهاء وجمهور العلماء!

والغريب أن يقول هذا من يريد أن يسوق عمر بن عبد العزيز إلى قفص الاتهام باسم الديمقراطية، فأين الديمقراطية من سلوك الحجاج، الذي كان يحبس بالظنة، ويقتل بالشبهة، ولا يبالي بسفك الدماء، وظلم الأبرياء، في سبيل توطيد الملك لبني أمية؟ حتى قالوا: إنه قهر العرب وأذلهم، فمهد الطريق لظهور الفرس، وغيرهم من العناصر الأعجمية.

والحجة التي ساقها الكاتب (الديمقراطي) لتبرير طغيان الحجاج وقسوته هي نفس الحجة التي يسوقها الطغاة والجبابرة المستبدون في كل زمان، فكم رأينا في عصرنا من برءاء سجنوا، وكم من شهداء سقطوا، وكم من دماء سفكت، وحرمات انتهكت، وأموال صودرت، وأسر شردت، وجلود شويت بالسياط، وأجساد شوهت بالتعذيب، ومدن دمرت على أهلها، وأطفال زغْب الحواصل فقدوا الآباء والأمهات معا، وعذارى اعتدي عليهن في سجون الطغاة؟ . . كل ذلك تم تحت مظلة الحفاظ على «أمن الدولة»، «واستئصال شأفة المارقين الخارجين عليها».

وانظر إلى الكاتب الذي نصب نفسه محاميا عن قسوة الطغاة، كيف نضحت ألفاظه بما في نفسه. إنه يسمي مثل عبد الله بن الزبير الصحابي(1) العالم الفارس

---

(1) هو الوحيد الذي قيل فيه: هو صحابي وأبوه صحابي، وأمه صحابية، وجده لأمه صحابي، وأبو جده صحابي، فأبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين، وأحد الستة أصحاب الشورى: الزبير بن العوام، وأمه ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، وجده: أبو بكر، وأبو جده: أبو قحافة، رضي الله عنهم أجمعين.

المجاهد، أحد العبادلة الأربعة، والذي بويع بالخلافة، ونودي بأمير المؤمنين، تسع سنوات، وكاد الأمر يستتب له لولا ما قدر الله، يسميه «مارقا!» ويسمي من كان معه من الصحابة والتابعين «مارقين».

ويسمي سعيد بن جبير وغيره من الفقهاء الذي ثاروا مع ابن الأشعث على طغيان الحجاج وأمثاله «مارقين»!

إن الكاتب ـ وهو خريج حقوق ـ نصب نفسه ممثل الاتهام لخصوم الحجاج ومعارضيه، وهو يذكرنا بممثلي الاتهام اليوم الذين شاهدنا كثيرين منهم ينادون بقطع الرقاب، وتوقيع أقصى العقوبة لكل حركة أو جماعة تقول للحاكم: «لم؟» أو «لا».

(٤)

قسوة بعض الدعاة على التاريخ الإسلامي

وإذا كنا نشكو من جور العلمانيين على تاريخنا الإسلامي، وعلى حضارتنا الإسلامية، فإننا أكثر شكوى، وأشد ألما، من بعض دعاتنا الإسلاميين الكبار، الذين قسوا على التاريخ الإسلامي، وعلى ما أنتج من حضارة شامخة، وبالغوا في نقده، وتضخيم هناته، وإخفاء حسناته، مما ساعد العلمانيين، وأعطاهم حجة، ليُسَوِّقوا دعواهم في أن الشريعة لم تطبق إلا في عهد عمر، وأنها شريعة مثالية غير صالحة للتطبيق. وهو ما لا يقول به هؤلاء الدعاة الكبار، بلا نزاع.

نذكر من هؤلاء الدعاة الكبار: ثلاثة لهم باعهم الطويل، وجهادهم النبيل، في سبيل الدعوة إلى الإسلام، وإحياء أمته، وإيقاظ شعوبه، ومقاومة أعدائه، وتحرير أوطانه، وتوحيد كلمة الأمة على الإسلام، وتصحيح مفاهيمها المغلوطة عنه، وتجنيد أبنائها للدفاع عنه، والتضحية في سبيل إعلاء كلمته بالنفس والنفيس، جاعلين صلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم لله رب العالمين.

هؤلاء الثلاثة هم الأساتذة الذين أحبهم وأحترمهم وأقدر لهم فضلهم وجهادهم:

١ ـ أبو الأعلى المودودي.

٢ ـ سيد قطب.

٣ ـ محمد الغزالي.

وسنذكر من تراث كل منهم - رحمهم الله - ما يدل على هذا التوجه الخطر، الذي نعتبره من «زلات العلماء» التي تغتفر لهم، ولا تنقص من قدرهم، لأنهم غضبوا لله لا لأنفسهم، وكانت غيرتهم على حرمات الإسلام ومبادئه وقيمه ومثله العليا، ولم تكن غيرتهم من أجل شعب أو قبيلة أو حزب أو طائفة من الناس.

وهو ثمرة اجتهاد منهم، نرجو أن يعذروا فيه بل أن يؤجروا عليه أجرا واحدا، كما هو شأن المجتهد المخطئ في الفقهيات ونحوها. فمن فضل الله تعالى ورحمته - ومن روائع هذا الدين أيضا -: ألا يحرم المجتهد من المثوبة وإن أخطأه الصواب، ما دام أهلا للاجتهاد، وحسبه أنه بذل الجهد، وقصد الخير، وتحرى الصواب (وإنما لكل امرئ ما نوى).

كلام الأستاذ المودودي عن التاريخ وما فيه من غلو:

أول هؤلاء الدعاة هو العلامة الكبير الشيخ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية ومؤسسها في الهند الكبرى.

والحق أنني عندما قرأت كلام الأستاذ المودودي عن التاريخ الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية: قفّ شعري، وارتعدت فرائصي! وإني لأعجب كل العجب أن يغلو في حكمه هذا الغلو، على فضله وسمو منزلته، وعلو كعبه في سعة العلم، وعمق الفكر، وامتلاك الحاسة النقدية.

وهذا يدلنا على أن البشر يظلون بشرا، وهم - وإن بلغوا من العلم والفضل ما بلغوا - يعتريهم القصور، وتخالطهم الغفلة الذهول، ويغلبهم الخطأ شاءوا أم أبوا، نتيجة الغلو أو التفريط. ولا عصمة لأحد إلا للرسول المؤيد بالوحي.

ورأي العلامة المودودي في التاريخ الإسلامي من النقاط التي أثارت عليه نقمة علماء الهند وباكستان، فقد تناول فيها بعض الصحابة بما لا يليق بصحبتهم لرسول

الله صلى الله عليه وسلم، مثل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، دع عنك ما ذكره عن معاوية بن أبي سفيان، وبني أمية.

وقد أثبت رأيه هذا في أكثر من كتاب له، ولا سيما كتبه: «الخلافة والملك» و«موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» و«الحكومة الإسلامية».

ذكر فى كتاب «الخلافة والملك»:

أن سيدنا عثمان فى خلافته خالف سيدنا عمر من قبله، فى تولية الأقارب وتمكينهم من ناصية الدولة، وقد كانوا من الطلقاء وأبناء الطلقاء، وقدمهم على السابقين من الصحابة الفضلاء من المهاجرين والأنصار، مثل سعد بن أبى وقاص، وبعضهم كان مغضوبا عليه فى أيام رسول الله، فأمسوا هم المتصرفين فى أمور المسلمين.. إلى آخر ما ذكره من سياسة سيدنا عثمان وحمله بني أمية على رقاب المسلمين، وهو الذى كان يخشاه عمر وحذّر منه من بعده.

وهذا كان أحد أسباب الفتنة التى أودت بحياة عثمان فى مأساة تدمى لها العيون والقلوب، والتى فتحت على المسلمين باب شر مستطير، ما زلنا نشرب من مر كأسه إلى اليوم[1].

ويقول في كتاب «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» بعد أن تحدث عن عهد النبوة وما تم فيه من إنجازات خارقة في ثلاثة وعشرين عاما، ثم ما تم في عهد الخليفتين الراشدين: أبي بكر وعمر، وكذلك السنوات الأولى في عهد الخليفة الثالث عثمان. فقد كانت كلها امتدادا لعهد الرسالة الخاتمة.

وثبة الجاهلية:

ثم قال المودودي:

«ولكن أمر الخلافة إلى السعة والتقدم على مضي الأيام تبعا لاتساع رقعة

(١) انظر: الخلافة والملك للمودودى.

الحكومة الإسلامية بسرعة، والخليفة الثالث الذي ألقى على عاتقه عبء هذا العمل الجليل، كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيها العظيمان اللذان سبقاه[1].

فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الجماعي الإسلامي، وإن تيارها الجارف، وإن حاول عثمان رضي الله عنه سده ببذل نفسه ومهجته، إلا أنه لم ينكفئ. ثم خلفه علي كرم الله وجهه، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة، وصيانة السلطة السياسية في الإسلام من تمكن الجاهلية منها، ولكنه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتى ببذل نفسه!، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة، وحل محلها الملك العضوض TYRANT KINGDOM وبدأ الحكم والسلطة يقوم على قواعد الجاهلية بدلا من قواعد الإسلام».

فانظر كيف حكم هذا العلامة الكبير على الإسلام بالارتكاس في الجاهلية مبكرا، منذ عهد الصحابة والتابعين والأتباع، وهي خير قرون الأمة، بنصوص الأحاديث الصحيحة، وبقراءة التاريخ الصحيح!

ثم يقول: «ولما أصبح الحكم إلى الجاهلية جعلت عدواها تسري إلى الحياة الاجتماعية، وتدب فيها دبيب السرطان في جسم الحي، ولا غرو فقد كانت مقاليد السلطة بيدها لا بيد الإسلام. وكان الإسلام بعد أن فقد قوة الحكم لا يمكنه أن يمنع أثرها من النفوذ، وسلطانها من الامتداد.

وآفة الآفات: أن الجاهلية لم تمثل بين يدي القوم في حقيقتها العارية المكشوفة، بل واجهت الناس لابسة قناع الإسلام، ملونة بلونه. ولو كان إزاء الإسلام قيم من الملاحدة والكفار والمشركين الصرحاء، لهان الخطب، وسهل الكفاح، ولكنهم

---

(١) قد جاء بعض أفاضلنا المحترمين للإفتاء يستنبطون من جملتنا هذه معنى النيل من قدر سيدنا عثمان رضي الله عنه، والحق أني لم أقصد بها سوى أن عثمان رضي الله عنه كان ينقصه بعض تلك الصفات اللازمة للحكم والأمر -التي كانت على أتمها وأكملها في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهم، وهذه مسألة تاريخية يجوز للباحثين في التاريخ أن يأتوا فيها بآراء مختلفة، وليست بمسألة كلامية أو فقهية حتى يصدر أهل الإفتاء آراءهم بشكل الفتاوي. (المودودي).

كانوا قوما كانت علانيتهم الإقرار بالتوحيد، والإيمان بالرسالة، والمحافظة على الفرائض، والاستشهاد بكتاب الله وسنة الرسول، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب.

وكان أشد وأخطر ما في هذا الانقلاب المركوس: أن جاءت الجاهلية بأنواعها الثلاثة لابسة لباس الإسلام، وجعلت تتأصل في المجتمع العربي الإسلامي، وتتمشى فيه، وغدت آثارها تزداد انتشارا على مرور الأيام.

فأما الجاهلية المحضة: فعمدت إلى الدولة والحكومة فهيمنت عليهما، وانقلبت الخلافة قيصرية، جاء الإسلام يقطع دابرها، ولم يبق فيها من الخلافة إلا اسمها. ولما كان اعتقاد الألوهية للملوك لم يعد يتجاسر عليه أحد فاحتالوا بأخذهم بالأثر المروي: السلطان ظل الله، وتبوأ الملوك والأمراء بهذه الحيلة منزلة المطاع المطلق التي هي خاصة للإله. واسترسل الأمراء والحكام والولاة ورجال الجيش والمترفون إلى الجاهلية المحضة في ظل هذه الملكية، وتأثرت حياتهم - في قليل أو كثير - بوجهة نظرها، وفسدت أخلاقهم ومعيشتهم بعاهتها.

وكان من الطبيعي أن يصحب ذلك كله: رواج فلسفة الجاهلية وآدابها وفنونها، فتدون العلوم والمعارف على طرازها، لأن كل هذه الأمور تتطلب رعاية الدولة وإشراف الحكومة، ولما كانت هاتان تحت استيلاء الجاهلية فلم يكن بد من استيلائها أيضا على تلك الأمور.

ومن هنا تطرقت فلسفة اليونان والعجم وعلومهما وآدابهما إلى المجتمع المنتمي إلى الإسلام، وبفعل هذه العلوم والآداب أخذ المسلمون يشتغلون بالبحث في المسائل الكلامية، ونشأ مذهب الاعتزال، ونجم قرن الزندقة والإلحاد، وجاء التفنن المفْرط في تعليل العقائد وتحليلها يحدث في المسلمين فرقا جديدة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عادت الفنون الجاهلية الخالصة كالرقص والموسيقى والتصوير

تحل محل العناية والتقدير من الشعوب التي قد كان الإسلام كفاها شر هذه المفاسد[1]».

نظرتان متباعدتان للحضارة الإسلامية:

فانظر كيف تضمن هذا الكلام الحيف الكبير على الحضارة الإسلامية الشامخة كلها ووصفها بالجاهلية، على ما كان لها من فضل عظيم على العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية، وعلى البشرية كافة، وقارن بين هذه النظرة المسرفة المتشائمة ونظرة الداعية الكبير الشيخ مصطفى السباعي في كتابه الرائع الفريد الذي سماه «من روائع حضارتنا» وكيف قدم فيه بعض منجزات هذه الحضارة وآثارها المباركة، مما لا يمكن أن توصف معه بأنها حضارة جاهلية![2]

صحيح أن المسلمين نقلوا كتب الحضارات السابقة، ومنها الحضارة اليونانية، وكتب الفلسفة فيها، وفيها نظريات الفلاسفة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهي تخالف العقيدة الإسلامية في نظرتها إلى الألوهية والنبوة والآخرة. وصحيح أن بعض الكبار من المسلمين تأثروا بهذه الفلسفة، وبخاصة أصحاب المدرسة المشائية الإسلامية، مثل: الكندي والفارابي وابن سينا. وأن الثقافة الإسلامية ـ وخصوصا علم الكلام والمنطق والأخلاق والأصول ـ قد تأثرت بهذه الفلسفة بدرجات متفاوتة، ولكنها لم تستطع أن تغير العقل الإسلامي العام، وظل تأثيرها محدودا، كما ظل هناك من يقاومها، حتى جاء الغزالي وكتب كتابه «تهافت الفلاسفة» فأسقط هيبتها، وأنزلها من عرشها، ثم جاء بعده بقرنين أو أكثر: ابن تيمية، فأكمل ما بدأه الغزالي.

---

(١) ومن العجب العجيب أن جاء أمثال العلامة شبلي النعماني، والسيد أمير علي ـ في علو فضلهم وعلمهم ـ يعدون هذه من الأعمال العظام التي جاء بها الملوك، في خدمتهم الجليلة للحضارة المدنية الإسلامية. (المودودي). وأقول: إن ما ذهب إليه العلامة النعماني والسيد أمير علي أقرب إلى الصواب مما ذهب إليه العلامة المودودي. ورحم الله الجميع. القرضاوى.

(١) راجع ما نقلناه عنه فى الباب الثالث: تاريخنا وما له من مآثر ومفاخر.

على أن فلسفة اليونان لم تكن كلها تجافي العقائد، أو الفكرة الكلية عن الوجود والمبدأ والمصير، بل كان من شعبها الأساسية: ما يدخل الآن في «نطاق العلوم الطبيعية والرياضية» من الفيزياء والفلك والكيمياء والطب والتشريح والصيدلة والحساب والرياضيات، وغيرها.

وقد بدا أثر هذه الحضارة في تشييد الجوامع والمدارس والمكتبات والمستشفيات والقصور والقلاع والحصون وغيرها.

وبعد ذلك يضيف المودودي قائلا:

«وأما جاهلية الشرك، فوثبت على عامة الناس، وعدلت بهم عن جادة التوحيد إلى مهاوي الضلال المتشعبة، وإن المسلمين - وإن لم يرجعوا إلى الوثنية الصريحة - إلا أنه لم تبق صورة من صور الشرك لم ترج في مجتمعهم رواجا. وكان من دخل في الإسلام من أفراد الأمم القديمة جاءوا يجرون معهم كثيرا من تصورات الشرك وتقاليده إلى المجتمع الإسلامي. وهناك لما أرادوا ما تعودوه من عبادة غير الله، لم يتكلفوا غير أن يلتمسوا لهم في أكابر المسلمين وأوليائهم آلهة لهم، بدلا من آلهتهم السالفة، ويستبدلوا بمعاهدهم القديمة قبور الأولياء وأضرحتهم، ويبتكروا التقاليد الجديدة مكان تقاليدهم السابقة»[1] أ. هـ.

وما قاله المودودي هنا صحيح، ولكنه لم يعم الأمة كلها، فقد كان هناك من ينكر هذه الشركيات ويرفضها، على أن هذه المبتدعات لم تنقل الأمة من التوحيد إلى الوثنية، كما اعترف الإمام المودودى نفسه.

ثم يقول المودودي:

«وأما الجاهلية الرهبانية فأصابت بحملتها العلماء والمشايخ وأهل الورع والزهد، وراحت تشيع فيهم المساوئ التي قد أشرت إليها آنفا. ومن جراء هذه الجاهلية فشا

---

(١) راجع هذه النقول في كتاب «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» للمودودي ص ٤٣ - ٤٨ نشر دار الفكر - بيروت.

في المجتمع الإسلامي ما فشا من الفلسفة الإشراقية ونظام الأخلاق الرهباني، ووجهة النظر الغنوصيه في جميع مناحي الحياة، ولم يمس كل ذلك فنون الأدب والمعارف فحسب، بل خدر بأثره العنصر الصالح من المجتمع، وفعل في أعصابه فعل المنومات. ثم شد أزر نظام الملكية الجاهلية، وضرب العلوم والفنون الإسلامية بالعقم والجمود وضيق النظر، وجاء يحصر جماع الدين في عدد من الأعمال الدينية المعينة». أ. هـ

إسراف فى التعميم:

أعتقد أن هذه الأحكام القاسية من أستاذنا المودودي على الأمة وتاريخها وحضارتها تشوبها المبالغة والإسراف في التعميم، فمن المقرر أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأن فيها طائفة تظل قائمة بالحق حتى يأتي أمر الله، كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة، وقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١).

وقال علي رضي الله عنه: «لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة»[١].

وقال شوقي:

إن الذي خلق الحقيقة علقما

لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

وقارئ التاريخ - وقارئ الواقع أيضا - يجد بوضوح: أن الأمة الإسلامية - على ما فيها من علاّت - هي خير أمم الأرض؛ لأن الله كلفها أن تحمل خاتمة الرسالات، وجعلها شهيدة على الأمم، فلا بد أن يبقى فيها من يصلح للشهادة.

---

(١) أورده ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٩٤).

اعتراف المودودي نفسه:

وهذا ما اعترف به الأستاذ المودودي حين ذكر الحاجة إلى المجددين فقال:

«ولا يذهب بأحد الظن في هذا الصدد: أن كانت الجاهلية قد محت آية الإسلام تماما، وذهبت بآثاره جميعا، وملكت عليه أمره من جميع الوجوه إبان هجومها وطغيانها، بل الواقع أن الشعوب التي كانت خضعت لتأثير الإسلام حينئذ، أو خضعت لها فيما بعد، لم يزل باقيا فيها أثر الإصلاح الإسلامي - قليلا أو كثيرا - مدى الدهر. ولم يكن إلا من تأثير الإسلام أن كان الآمرون المطلقون من الملوك تأتي عليهم في حياتهم أحيان ترتعد فرائصهم من خشية الله، فيرجعون عن غيهم إلى الرشد، ومن ظلمهم إلى الإنصاف. وليس إلا من ثمرات الإسلام أنك تبصر هنا وهناك في الصفحات السود من تاريخ الملكية: لمحات من نور الصلاح والأخلاق الفاضلة. ولم يكن إلا من فضل الإسلام: أن نبغ في البيوتات الحاكمة رجال مؤمنون متقون عادلون، تولوا الحكم والأمر مع الشعور التام بمسؤوليتهم على قدر الإمكان، على كونهم يملكون سلطان الملكية». [1] أ. هـ.

وسنعود لنقل شهادة المودودي للتاريخ الإسلامي، في موضع آخر، حين نضم كلامه بعضه إلى بعض.

نقد الحضارة الإسلامية بشدة:

وعرض الأستاذ المودودي مرة أخرى لهذه القضية في كتابه «الحكومة الإسلامية» ومما جاء فيه:

«إن لفظ «مسلم» - كما يتضح بذاته - ليس «اسم ذات» بل «اسم صفة» وليس له أي معنى آخر سوى «تابع للإسلام» وهو يعبر عن صفة الإنسان العقلية والأخلاقية والعملية التي تسمى «الإسلام»، ولا يمكنكم إطلاقه على الشخص

(١) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ص ٤٩، ٥٠.

المسلم بنفس الطريقة التي تطلقون بها لفظ هندي، أو صيني، أو ياباني، على إنسان هندي، أو صيني، أو ياباني. وإذا ارتد المسلم الموسوم بهذا الاسم، فإن صفة الإسلام تسلب منه تلقائيا، وما يقوم به بعد ذلك بصفته الشخصية الخاصة، ولا حق له في استخدام اسم الإسلام. وهكذا الأمر بالنسبة للفظ «المصلحة الإسلامية» و«الرقي الإسلامي» و«الحكومة الإسلامية» و«الوزارة الإسلامية» و«المجتمع الإسلامي» وما إلى هذا من الألفاظ التي يمكنكم إطلاقها في مثل هذه الأمور. فإن كانت تطابق الإسلام نظرية ومبدأ، وتتبعه وتهتم بإنجاز مهمة الإسلام التي جاء من أجلها فيها، وإلا فاستخدام لفظ «مسلم» لأي منها هو استخدام خاطئ. ولكم أن تسموها بما شئتم من الأسماء، لكنكم لا تستطيعون تسميتها باسم الإسلام».

إلى أن قال:

«إن هذا الخطأ في الفهم قد دفع ثقاتكم، ومجتمعكم، وحضارتكم، وتاريخكم - بشكل أساسي - في مسار خاطئ، فالدول والحكومات التي كانت تقوم على مبادئ غير إسلامية تسمونها «حكومات ودولا إسلامية» لمجرد أن حاكمها كان مسلما، والحضارة التي ازدهرت في بلاطات وقصور الملذات الدنيوية، في قرطبة وبغداد ودلهي والقاهرة تدعونها «حضارة إسلامية» بينما لا دخل للإسلام فيها ولا صلة! وإذا ما سئلتم عن الحضارة الإسلامية: إذا بكم تشيرون من فوركم إلى «تاج محل» المقام في مدينة «أكرا» بالهند[1] وكأنه النموذج البارز لهذه الحضارة، على حين ليس من الحضارة الإسلامية أن تقتطع أفدنة من الأرض، وينفق على عمارتها ملايين الجنيهات لكي تدفن فيها جثة ميتة.

وإذا أردتم ذكر مفاخر التاريخ الإسلامي: ذكرتم أعمال العباسيين والسلاجقة

---

(١) تاج محل هو المقبرة التي بناها السلطان المغولي شاهجهان ١٥٩٢-١٦٦٦م في الهند لزوجته أرجمندبيكم ممتاز محل، وهو بناء رائع جدا وأعجوبة من أعاجيب العالم في فن العمارة. المترجم.

والمغول العظيمة، بينما هي من وجهة نظر التاريخ الإسلامي الحقيقي تستحق أن تكتب في سجل الجرائم بمداد أسود!

لقد سميتم تاريخ ملوك المسلمين: «تاريخا إسلاميا» بل وتسمونه أيضا: «تاريخ الإسلام» كأن اسم هؤلاء الملوك «إسلام».

وبدلا من أن تضعوا أمام أعينكم مبادئ الإسلام ومهمته، وتقيموا التاريخ الماضي وتروا الفرق - بمنتهى الإنصاف - بين الحركات الإسلامية وغير الإسلامية، وتوضحوه لغيركم، إذا بكم ترون خدمة التاريخ الإسلامي تكمن في الدفاع عن ملوكه وحكامه وحمايتهم. ومن هنا ظهر هذا الاعوجاج في وجهة نظركم، فرحتم تَعُدُّون كل ما أثر عن «مسلم» «إسلاميا»، ظانين أن كل ما يصدر عمن يدعى «مسلما» فهو «إسلامي»، حتى ولو كان أنجزه عن طريق غير إسلامي». [1] أ. هـ.

هكذا وجه الأستاذ المودودي ضربة قاضية إلى الحضارة التي نسميها «إسلامية» في قرطبة وبغداد ودمشق ودلهي والقاهرة، وقطع أي صلة لها بالإسلام، لما كان في قصور حكامها من الترف والملذات الدنيوية.

واختصار الحضارة إلى الملذات الدنيوية فيه ظلم كبير لهذه الحضارة، التي تركت علوما وآدابا وثقافة وفنونا، كان للإسلام - بلا شك - بصماته على كثير منها. بجوار ما تركت من روحانيات وقيم وأخلاقيات لا أحسب أن المودودي يجحدها.

ويرى المودودي: أن الإسلام لا دخل له ولا صلة إطلاقا بهذه الحضارة، ويضرب مثلا لذلك بـ «تاج محل» بمدينة «أكرا» بالهند، الذي يُعَدّ من روائع الفن المعماري في تاريخ المسلمين، على حين ينظر إليه المودودي على أنه أقطع رقعة كبيرة من الأرض، وأنفق عليه ملايين الروبيات أو الجنيهات، لكي يدفن فيه جثة ميتة!

---

(١) انظر: الحكومة الإسلامية للمودودي، تعريب أحمد إدريس، نشر (المختار الإسلامي) ص٢٤٦ - ٢٤٨.

ولكن هناك من ينظر إلى هذا الأمر من زاوية أخرى. فهذا الملك أراد أن يبين للناس، ويسجل للتاريخ مدى الرقي العمراني، ومبلغ الدقة الهندسية، ومقدار التقدم الفني في عهده، حتى لا يتهم المسلمون بأنهم بدو متخلفون في ميدان التحضر والارتقاء الهندسي والعمراني.

وأود أن أسجل هنا: أن رأي المودودي في التاريخ الإسلامي - وإن انتقدناه وأنكرناه - لا ينال من إمامته ومكانته الفكرية والدعوية، فكفى المرء نبلا أن تعد معايبه، وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

مقولة الشهيد سيد قطب:

وندع الأستاذ المودودي، لنقرأ مقولة الأستاذ سيد قطب. لنجد صفحة أخرى من القسوة على تاريخنا. وأعتقد أنه التقى مع المودودي هنا، وإن لم يكن قد قرأ ما كتبه في ذلك، فلم تكن كتبه التي تناولت هذا الجانب التاريخي قد ترجمت إلى العربية فيما أعلم، وكانت مقولة قطب عن التاريخ الإسلامي في أول كتاب له دخل به ميدان الدعوة الإسلامية، والفكر الإسلامي، وهو كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»[1].

على خلاف ما كتبه عن «الحاكمية» وعن «الجاهلية» وعن «الجهاد الهجومي» فقد تأثر تأثرا مباشرا بما كتبه المودودي.

ونحن نذكر هنا بعض ما كتبه سيد رحمه الله في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» فصل «من الواقع التاريخي في الإسلام» وقد تحدث في هذا الفصل عن «روح الإسلام» وأثرها في مسيرة التاريخ، وذكر الكثير من الشواهد على المثالية الإسلامية في عصور شتى.

ولكنه عندما تحدث عن سيدنا عثمان الخليفة الثالث، قسا عليه كثيرا. وأنه ترك لمروان بن الحكم الأموي: أن يتصرف في الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام،

---

(١) لسيد قطب كتابان قيمان في خدمة القرآن، هما: «التصوير الفني في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن» ولكنه ألفهما بوصفه أديبا ناقدا متذوقا لبلاغة القرآن، أكثر مما هو داعية لرسالة القرآن.

كما أن طبيعة عثمان الرخية، وحرصه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في حدوث تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكان لها مضاعفات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيرا[١].

قال الأستاذ سيد:

واعتذارنا لعثمان رضي الله عنه: أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، فكان موقفه كما وصفه صاحبه علي ابن أبي طالب: «إني إن قعدت في بيتي قال: تركتني وقرابتي وحقي؛ وإن تكلمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كَبرته: أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول. وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية، ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام؛ وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان(كما سيجيء) وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر شديد التبكير.

ومع كل ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين، تكشف عن نقلة بعيدة جدا في تصور الناس للحياة والحكم، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية، إلا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى.

مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض، وبخاصة في الشام، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية، إن حقًا وإن باطلاً: أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف؛ ويعزل أصحاب

---

(١) انظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام. الطبعة السابعة ١٩٦٧م. ص ٢٠١.

رسول الله ليولي أعداء رسول الله؛ ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الإنفاق والبر والتعفف . .

فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار، إن حقًا وإن باطلاً، أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس. تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثمًا؛ وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان.

فلما أن جاء علي - كرم الله وجهه - لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة. وقد علم المستنفعون على عهد عثمان، وبخاصة من أمية، أن عليا لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء علي ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيدها، ويختم هو على جراب الشعير ويقول: «لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم». وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء.

والذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما في علي؛ ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم عليّ وواجبه. لقد كان واجب عليّ الأول والأخير: أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها؛ وأن يرد إلى الدين روحه؛ وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية في كَبْرة عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية؛ ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين. إن عليًا إما أن يكون عليًا أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم

يغب عنه - كرم الله وجهه - وهو يقول - فيما روي عنه إن صحت الرواية -: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس»!.

ومضى عليّ إلى رحمة ربه، وجاء بنو أمية.

فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، كانت تقف حاجزًا أمام أمية.. لقد انهار هذا الحاجز.. وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال. ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل. ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار.

غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار مباحًا للملوك والحاشية والمتملقين؛ وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات، ولأذيالها منافع، ولحاشيتها رسوم؛ وانقلبت الخلافة ملكا، وملكا عضوضًا، كما قال عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق[1].

وعدنا نسمع عن الهبات للمتملقين والملهين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد - من ملوك العباسيين - إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلا نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين[2]. أ. هـ.

---

(١) الأولى من هذا التعبير: نقول: كان ذلك بوحي من الله، إذا ثبتت صحة الحديث. وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

(٢) انظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب، فصل «من الواقع التاريخي في الإسلام» ص ٢١٠ وما بعدها. الطبعة السابعة ١٩٦٧.

وقد أثار كلام سيد قطب عن عثمان وبني أمية غضب بعض الكتاب والنقاد الإسلاميين، كان في طليعتهم الأديب المحقق المعروف الأستاذ محمود محمد شاكر، الذي انتقد هذا التوجه بشدة في مقالات نشرها في مجلة «المسلمون» التي كانت يصدرها الداعية المعروف سعيد رمضان في القاهرة، وسنعرض لذلك فيما بعد. كما أثار كثيرا من غضب علماء الدين فى الهند وباكستان، الذين رأوا فى كتاباته تحاملا على سيدنا عثمان رضى الله عنه. وإن كان بعضه حقا، وبعضه باطلا، ويحتاج إلى تحقيق وتمحيص لهذه الفترة من التاريخ، وما دخلها من مبالغات وأساطير.

وما قلناه في الاعتذار عن الإمام المودودي: نقوله أيضا فى الاعتذار عن الشهيد قطب، فهذا مغمور فى بحر حسناته وعطائه للإسلام.

كلام الشيخ الغزالي:

ومن الذين قسوا على التاريخ الإسلامي - وعلى عهد بني أمية خاصة - شيخنا محمد الغزالي رحمه الله.

ذلك أن الشيخ - كما عرفته وعايشته - يعشق الحرية، ويمقت الاستبداد، ويحاربه بقلمه ولسانه، ولو كان له سيف لحاربه بسيفه. ويحَمِّل هذا الاستبداد ما أصاب المسلمين من كوارث وهزائم ونكسات.

ومع قسوة الشيخ على تاريخنا، كانت عباراته أخف وطأة من عبارات المودودي وسيد قطب رحمهم الله جميعا.

تعرض الشيخ لذلك في كتابه «الإسلام والاستبداد السياسي» وهو من كتبه الأولى، وقد ظهر في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين. وكان قد ألقاه علينا - ونحن معتقلون في جبل الطور سنة ١٩٤٩م - في صورة محاضرات، ثم جمعه في كتاب.

يتحدث الغزالي عن الحكم الإسلامي بعد الخلفاء الراشدين، فيقول: أفلت الزمام من أيدي المؤمنين الصالحين، وطاحت الخلافة الراشدة بعد ثلاثين عاما من

قيامها، وبعد أن كان حكام الإسلام أعرف الناس به، وأفقههم فيه، وأحناهم على أهله: أصبح أكثرهم حثالة تافهة، تضر ولا تنفع، وتفسد ولا تصلح. أ. هـ.

ومن هذه الحثالة التافهة - في نظر الشيخ الغزالي -: يزيد بن معاوية، الذي استخلفه أبوه من بعده، وأخذ له البيعة بالرغب والرهب.

قال الغزالي: ويزيد هذا شاب خليع، لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية، بله أن يقف على منبر الرسول، وأبي بكر وصحبه[1].

قال الشيخ راثيا لحال الأمة:

«والليل الذي أطبق على الإسلام والمسلمين بأسدافه الحالكة، يوم غاضت منابع العلم، وخفتت أصوات النقدة، ودَرَسَت سبيل الدعوة إلى الله!. ويوم أمست الصحائف التي تمثل الثقافة العامة لهذا الدين وأهله: مزيجا من الأقوال الفارغة، والآراء التافهة، والتقليد الأعمى، والألفاظ الجوفاء، حتى أشبهت كتب المسلمين في العصور الأخيرة: كتب السحر عند اليهود الأقدمين، تلك التي قال الله في دروسها:

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢، ١٠٣).

وعندي أن فساد العلم والأدب لدى المسلمين أخيرا، يرجع إلى وطأة الحكم المستبد وزيادة توغله، ورغبته في إقصاء كل ما يعوق ظلمه، ويكفكف غلواءه.

وقد تظاهر الأمران معا على تحطيم كيان الأمة التي ظلت تقاوم - بالإيمان المجرد - فساد قرون متطاولة، حتى جاء القرن الرابع عشر للهجرة، فإذا بها مزق مهلهلة في أيدي الطامعين والغاصبين!

(١) انظر: الإسلام والاستبداد السياسي للغزالي ص ١٧٥.

وإليك بعض المآخذ على نظام الحكم في العهد الأموي :

١ ـ تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، واحتكرت زعامة المسلمين أسرة معينة .

٢ ـ ضعف إحساس الأمة بأنها مصدر السلطة، وأن أميرها نائب عنها أو أجير لديها، وأصبح الحاكم الفرد هو السيد المطلق النفوذ، والناس أتباع إشارته .

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا!

٣ ـ تولى الخلافة رجال ميتو الضمائر، وشباب سفهاء، جريئون على معصية الله واقتراف الإثم، وليس لثقافتهم الإسلامية قيمة .

٤ ـ اتسع نطاق المصروفات الخاصة للحاكم وبطانته ومتملقيه، وتحمل هذه المغارم بيت مال المسلمين، وأثر هذا السرف الحرام على حاجات الفقراء ومصالح الأمة .

٥ ـ عادت عصبية الجاهلية التي هدمها الإسلام، فانقسم العرب قبائل متناجزة متفاخرة، ووقعت الضغائن بين العرب والفرس وغيرهم من الأجناس التي دخلت في الإسلام قبلا، وكان الحكم المستبد يثير هذه النزعات الضالة، ضاربا بعضها بالبعض، ومنتصرا بإحداهما على الأخرى .

٦ ـ هانت قيم الخلق والتقوى، بعد ما تولى رياسة الدولة غلمان ماجنون . وبعد ما لُعن السابقون الأولون على المنابر، حتى إن شاعرا مسيحيا مدح يزيد بن معاوية فقال :

ذهبت قريش بالسماحة والندى
واللؤم تحت عمائم الأنصار!

٧ ـ ابتذلت حقوق الأفراد وحرياتهم على أيدي الولاة المناصرين للملك العضوض، فاسترخص القتل والسجن! حتى ليروي الترمذي عن هشام بن حسان قال : أُحصِي ما قتل الحجاج صبرا، فوجد مائة ألف وعشرين ألفًا!

وروى البخاري عن سعيد بن المسيب: «لما وقعت الفتنة الأولى - يعني مقتل عثمان[1] لم تبق من أصحاب بدر أحدا، ثم وقعت الفتنة الثانية يعني - الحرة[2] - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدا، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ[3]»[4].

والواقع أن الهزة التي أصابت الإسلام من هذه الفتن المترادفة، كانت من العنف بحيث لو أصابت دعوة أخرى لهدمتها. ولكن معدن الدين، وتماسك العلماء والجماهير حوله، أمكنه من اجتياز هذه الأزمات العصيبة وهو سالم معافى.

ثم طفق يستأنف سيره في العصور من جديد»[5]..

وهذا الكلام بما فيه من تعميم وإطلاق: غير مسلّم، وسنرد عليه عندما نتحدث عن بني أمية، كما سننقل عن الشيخ الغزالي نفسه في موضع قريب: شهادته العادلة عن التاريخ الإسلامي.

على أن كلا من هؤلاء الدعاة الثلاثة: المودودي وسيد قطب والغزالي: لم يبلغوا في دعواهم ما بلغ العلمانيون، الذين زعموا أن الإسلام قد عزل عن الحياة، وأن الشريعة قد ألغيت من المجتمع، وأنها لم تطبق إلا في عهد عمر، فهي شريعة مثالية، لا تصلح للتطبيق في زمننا الحاضر!

---

(١) عثمان نفسه، رجل جليل نبيل، وقد أحاطت به دسائس بني أمية، فأساءت إليه حيا واستغلت دمه ميتا. الغزالي.

(٢) أرسل يزيد جنوده إلى المدينة فانتهكوا حرمتها، وقتلوا كثيرا من أهلها.

(٣) أصْلُ الطَّبَاخ: القُوَّة والسِّمَن • ثم استُعْمِل في غيره ،وفقيل فلان لا طَبَاخَ له: أي لا عقلَ له ولا خيرَ عنده. أراد أنها لم تُبْق في الناس من الصَحابة أحداً. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١١١).

(٤) هوجمت المدينة على عَهد يزيد، ثم هوجمت مرة أخرى على عهد الحجاج، وهوجمت مكة والكعبة المشرفة، فقتل عبد الله بن الزبير وأنصاره.

(٥) انظر: الإسلام والاستبداد السياسي ص ١٧٨ ـ ١٨٠ طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة.

(٥)

شهادات علماء قسوا على التاريخ الإسلامي

وأود أن أسجل هنا شهادات مهمة ومعتبرة لعلماء ودعاة إسلاميين، كانوا قساة ومتشددين - بل مسرفين - في حكمهم على التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، نتيجة لنظرة سوداء متشائمة لهذا التاريخ، ولكنهم لم يملكوا أن ينكروا أن الشريعة كانت أساس القضاء والفتوى خلال تلك القرون، وأن الشعب في حياته العامة كان يتخذ الإسلام مرجعيته الأولى، ولم يمنعه انحراف الحكام قليلا أو كثيرا: أن يحتفظ بإسلامه في عباداته ومعاملاته وعلاقاته.

شهادة الشيخ الغزالي:

أبدأ بشهادة الشيخ محمد الغزالي الذي ذكرنا أنه نقد التاريخ الإسلامي بشدة، ولا سيما تاريخ بني أمية. وخصوصا في كتابه «الإسلام والاستبداد السياسي» وهو من أوائل الكتب التي ألفها وهو شاب يتوقد غيرة وحماسة، ولكن الداعية الكبير بعد أن صقلته التجارب الطويلة، وزادته السنون والأيام علما ونضجا ورشدا، وجه إليه سؤال مهم ضمن مائة سؤال حول الفكر الإسلامي والثقافة الإسلاميةوجهها إليه الكاتب الكبير الأستاذ/ خالد محمد خالد، نص السؤال يقول: بم تفسر النكسات، التي أصابت الأمة الإسلامية، بدءًا من الخلاف الداخلي بين علي ومعاوية، حتى يومنا هذا؟

فكان جوابه (رحمه الله[1] وأثابه بقدر ما قدم للإسلام ودعوته): أجمع أولو الألباب من عدو وصديق، على أن الإسلام عقائد وشرائع، وعبادات ومعاملات، وأخلاق ونظم، وتراتيب إدارية وتقاليد اجتماعية. . وأنه يكلف أتباعه بتطويع الشؤون العادية لخدمة ذلك كله. .

وكنا في أثناء دراستنا الإسلامية، نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي، وبين الإسلام والحكم الإسلامي. . الإسلام وحي معصوم، لا ريب فيه، أما الفكر الإسلامي، فهو عمل الفكر البشري في فهمه، والحكم الإسلامي هو عمل السلطة البشرية في تنفيذه، وكلاهما لا عصمة له.

وعندما يخطئ مفكر، فإن خطأه لا يبقى طويلا، حتى يستدرك عليه مفكر آخر. . وعندما يخطئ حاكم، فإن زلته لن تطول، حتى يصوبها ناقد راشد. .

والأمة الإسلامية ـ بفضل الله ـ لا تجتمع على خطإ، وجهاز الدعوة بها حساس، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهي، ينصف الحق. .

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحي الخاتم، فإن القدر يؤدبها، إذا استرخت أو فرطت، حتى تلزم الصراط المستقيم، ويتعهدها بالمجددين، الذين يغارون على حقائق الوحي وسبل فقهه وأساليب حكمه. . قال تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٨١).

ومن هذا التقديم يظهر أنه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي والسياسي، وإنما الغرابة في التستر على هذه الأخطاء، أو الاستحماق في معالجتها والتعفية على آثارها. . .

وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الروماني،

---

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى فضيلة الشيخ محمد الغزالي يوم ٢٢ شوال سنة ١٤١٦هـ ١٣ مارس سنة ١٩٩٦م.

والمجوسي، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا، ولكنه يشعر بغضاضة وألم، لما أعقب ذلك من قتال داخلي بين المسلمين أنفسهم، كانت له آثار بعيدة المدى، على حاضرهم ومستقبلهم.

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد: أن علي بن أبي طالب «الخليفة الرابع» كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته، في خروجه على «علي». وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض في بني أمية.

مع أن هذا التحول كان هزيمة للحق، وضربة موجعة للمثل العليا، إلا أن من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه، لما يأتي:

(أ) أن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة، أعلنوا أن ولاءهم للإسلام، وأن التغيير في أشخاص الحاكمين، لا يعني التغيير في القوانين أو الأهداف الإسلامية، ومن أجل ذلك، استأنفوا الجهاد الخارجي، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة، ما لم يمسوا سلطانهم في الزعامة.

(ب) أن العلم الديني مضى في طريقه، يوسع الآفاق، ويربي الجماهير، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية، أي أن الإسلام الشعبي مع ازوراره عن السلطة، بقي قديرا على الامتداد والتأثير...

(جـ) مع أن الدولة كانت عربية، تتعصب لجنسها، فإن الجماهير والت تعاليم الإسلام وحدها، وألقت قيادها في أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم![1] أ. هـ

هذا ما قاله الشيخ، فأنصف وأجاد، برغم شدته المعهودة على المنحرفين والطغاة في القديم والحديث.

---

(١) من كتابه: «مائة سؤال عن الإسلام» ج٢ ص ٣٥٢ـ٣٥٤، ط. دار ثابت، القاهرة.

كلمة الشهيد سيد قطب:

والشهيد سيد قطب (رحمه الله) برغم شدته على التاريخ الإسلامي ، بعد عصر الراشدين، وحملته القاسية على بني أمية في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»: لم يسعه إلا أن يعترف بأن الإسلام ظل راسخ البناء، مرفوع اللواء، منفردا بالفتوى والقضاء والتشريع للأمة الإسلامية، في كل شؤونها، اثني عشر قرنا من الزمان، وبهذا أنصف الإسلام، وأنصف التاريخ، وأنصف نفسه كذلك.

يقول في مقدمة كتابه: «مقومات التصور الإسلامي» و هو الجزء المكمل لخصائص التصور الإسلامي وهو آخر كتاب ألفه، وقد نشر (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، أي بعد استشهاده رحمه الله بعشرين عاما: «وارتفع لواء الإسلام عاليا، وظل مرفوعا أكثر من ألف عام، بل حوالي مائتين وألف عام، ممثلا في النظام الإسلامي في كل الأقطار الإسلامية، وهو النظام الذي يرجع الناس فيه إلى شريعة الله وحدها، ولا يحكم قضاة هذه الأمة إلا بالشريعة الإسلامية في كل أمر من أمور الحياة، ولا يتحاكم الناس إلى غير هذه الشريعة، في شأن واحد من شؤون المعاش»[(١)].

شهادة المودودي:

والإمام أبو الأعلى المودودي- برغم شدته المفرطة على التاريخ الإسلامي، وقسوته البالغة في نقد الحضارة الإسلامية- لم يملك رحمه الله إلا أن يعترف بإسلامية الشعوب، وبتأثير الإسلام في كثير من الملوك والحكام، كما أقر بكثرة الأتقياء والصالحين منهم، كما لم يعرف في تاريخ آخر.

ولهذا أنصح من يقرأ للعلامة المودودي: أن يضم كلامه بعضه إلى بعض، حتى

---

(١) انظر: مقومات التصور الإسلامي، ص٢٦ القاهرة، دار الشروق، طبعة أولى.

يخرج من مجموعه بصورة تكشف عن حقيقة رأيه، ولا يقتصر على ما سطره في كتاب أو كتابين من كتبه الغزيرة، أو في موضع واحد من كتاب، دون أن يقرأ ما كتبه في موضع آخر.

وإذا كنا نفعل ذلك في فهمنا لكلام الله الحكيم، وفي فهمنا للقرآن الكريم: نحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، والمجمل على المفسر، فكيف لا نفعله في فهمنا لكلام المخلوقين، وحكمنا لهم أو عليهم؟!

وأود من القارئ المتأمل المنصف: أن يقرأ معي هذه الفقرة من نفس كتابه الذي شن فيه الغارة على التاريخ والحضارة الإسلامية، يقول في «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» تحت عنوان «الحاجة إلى المجددين»:

«لا يذهب بأحد الظن في هذا الصدد أن كانت الجاهلية قد محت آية الإسلام تماما، وذهبت بآثاره جميعا، وملكت عليه أمره من جميع الوجوه إبان هجومها وطغيانها، بل الواقع أن الشعوب التي كانت خضعت لتأثير الإسلام حينئذ أو خضعت له فيما بعد: لم يزل باقيا فيها أثر الإصلاح الإسلامي - قليلا أو كثيرا - مدى الدهر. ولم يكن إلا من تأثير الإسلام: أن كان الآمرون المطلقون من الملوك تأتي عليهم في حياتهم أحيان ترتعد فرائصهم من خشية الله، فيرجعون عن غيهم إلى الرشد، وعن ظلمهم إلى الإنصاف. وليس إلا من ثمرات الإسلام أنك تبصر هنا وهناك في الصفحات السود من تاريخ الملكية لمحات من نور الصلاح والأخلاق الفاضلة، ولم يكن إلا من فضل الإسلام أن نبغ في البيوتات الحاكمة: رجال مؤمنون متقون عادلون تولوا الحكم والأمر، مع الشعور التام بمسؤوليتهم على قدر الإمكان، على كونهم يملكون سلطان الملكية.

وكذلك مازال الإسلام يعم ببركاته وخيراته - ولو على وجه غير مباشر - قصور الدول والحكومات، ومدارس الفلسفة والحكمة، ودور التجارة والصناعة، وزوايا الخلوة والاعتكاف، وسائر شعب الحياة. واستمر نفوذه في

العامة على رغم أنف جاهلية الشرك التي كانت فاشية فيهم، وبقي يؤثر في عقائدهم وأخلاقهم واجتماعهم من جهتي الأمر والنهي، والتوجيه والتحذير، ومن كل ذلك ظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائما من أخلاق سائر الأمم.

وفوق ذلك كله، ما خلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الإسلام، وبقوا يسعون في إحياء هدايته العلمية والعملية في حياتهم أنفسهم، وفي الحلقة المحدودة والواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم، بيد أن ذلك كله لم يكن كافيا لتحقيق الغاية الرئيسية التي بعث من أجلها الأنبياء عليهم السلام»[١].

وتحدث الأستاذ المودودي حديثا مستفيضا عن المرحلة الأولى للإسلام: مرحلة النبوة والخلافة الراشدة، وما تركته في حياة الأفراد والمجتمعات والأمة من آثار في الفكر والشعور، والخلق والسلوك، لم ينقطع أثره إلى اليوم. ومما قاله هنا:

وهكذا تيسرت للإسلام في أولى مراحله حركة مستميتة قوية ما زالت آثارها في التاريخ واضحة المعالم، جلية الملامح حتى اليوم، وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا على إنشائها. وتستطيعون أن تشاهدوا - مع هذه الحالة التعيسة التي تدنت إليها الأمة الإسلامية - آثار الطابع الذي انطبعت به الأمة الإسلامية في أولى مراحل تاريخها.

إن أي فرد من المسلمين مهما فسد أمره وساءت أخلاقه، إذا استشففت ذات نفسه، وجسست نبضه: تعلم أنه لا يحن إلا إلى نفس المجتمع المثالي الذي أسسه محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون. وهذا هو الهدف الذي يطمح إليه دائما ولا يتناساه أبدا، كأن هذا المجتمع شمس تشرق أمامه بنورها الساطع بصفة دائمة، لا يدعها تغيب عن نظره.

---

(١) انظر: موجز تاريخ تجديد الدين ص ٤٩، ٥٠.

إن كل فرد من المسلمين يرى هذه المرحلة الذهبية نموذجا وقدوة، ويولع بها لحدّ الغرام، ويتمنى رؤيتها متمثلة في الواقع مرة ثانية. وما انفك الإسلام يشع بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم. ولم يبق صقع من أصقاع العالم، إلا قد تغلغلت إليه أشعته. وقد نال هذا الازدهار، على رغم ما منيت به هذه الأمة من الأمراء المنغمسين في حياة الترف والبذخ، ونكبت بالطغاة والجبابرة، ولم تعدم متعاطي المنكرات في يوم من الأيام، ولم تعد - منذ مدة غير قصيرة - أمة مثالية تحتذى، وتنجذب إليها قلوب الناس. ولكن رغم كل ذلك لم تقف دعوة الإسلام من الانتشار. وليس مرجعه كون المسلمين على طريقة مثلى في الحياة تستهوي الناس إلى دينهم، بل الذين يعتنقون الإسلام من غير المسلمين لا يعتنقونه إلا بعد أن يتأكدوا أن الإسلام ليس الذي يتمثل في واقع المسلمين، وإنما الإسلام الحقيقي هو الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ثم إن ما يوجد اليوم في واقع المسلمين من بعض السمو والنظافة وجوانب الخير في تفكيرهم وأعمالهم وسلوكهم وخلقهم، فليس كل ذلك إلا البقية الباقية من الآثار التي تركها الإسلام فيهم، ولا تزال تعمل عملها على مرور أربعة عشر قرنا.

وبكلمة أخرى: إن المرحلة الأولى من تاريخها كانت تبلغ من حيويتها درجة استحال معها أن يزول أثر طابعها على التاريخ. بل إن الحيوية التي تشاهدونها اليوم في العمل الإسلامي هي ناتجة عن تلك الحركة المثالية التي أنشأها الإسلام في أولى مراحله.[1] أ. هـ.

فانظر وتأمل قوله هنا: وما انفك الإسلام يشع بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم، ولم يبق صقع من أصقاع العالم إلا وقد تغلغلت إليه أشعته!

---

(١) انظر: رسالة (الإسلام اليوم) ص ٢٠-٢٥. نشر الدار السعودية.

ويؤكد أن المرحلة الأولى من تاريخنا بلغت من حيويتها وقوة تأثيرها درجة استحال معها أن يزول أثر طابعها على التاريخ!

كما يؤكد أن الحيوية التي نشاهدها في العمل الإسلامي اليوم، هي من آثار تلك الحركة المثالية التي أنشأها الإسلام في أولى مراحله.

بهذا يؤكد ما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل أمتي كالمطر: لا يدرى أوله خير أم آخره»[1].

كثرة الملوك الصالحين في عصور الملكية الإسلامية:

ومع شدة الأستاذ المودودي على المرحلة التي سماها «المرحلة الملكية» من تاريخنا، وما حدث فيها من تغير في الحياة الإسلامية، من قلة النماذج الإسلامية الرفيعة من المسلمين، ومن إهمال الدعوة إلى الإسلام، وتحويل الدولة الإسلامية إلى دولة جباية لا دولة هداية، على خلاف ما قال الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز: إن الله بعث رسوله هاديا، ولم يبعثه جابيا!

على الرغم من هذا اعترف المودودي بكثرة الملوك الصالحين والأتقياء في التاريخ الإسلامي، فقال: «ومما لا يستحق الجدل: أن عصر الملكية في التاريخ الإسلامي لا يقاس أبدا بصور الملكية في تاريخ الشعوب الأخرى، لأن الملكية في تاريخنا الإسلامي مع ما جاءت به مشحونة بكثير من السيئات والويلات، إلا أنك لن ترى عبر التاريخ الإسلامي تلك العصور المظلمة التي هي علائم بارزة في تاريخ الأمم الأخرى. ولا أملك نفسي في هذه المناسبة إلا أن

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٠ / ١٢٣٤٩)، والترمذي (٥/ ١٥٢ / ٨٦٩) عن أنس، والطيالسي عن أنس، وأحمد وابن حبان عن عمار، وأبو يعلى عن علي، والطبراني عن عمر وابن عمرو. وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير بدرجة صحيح (٥٨٥٤).

أسجل إعجابي واستحساني لما توافر في التاريخ الإسلامي من الملوك الأتقياء الصالحين، وما استطاع أي شعب أن ينجب هذا العدد الوفير من الملوك الصالحين»[1].

وإن عاب عليهم: أنهم لم يقوموا بأمر الدعوة إلى الإسلام، كما ينبغي، وهذا أمر عام في التاريخ الإسلامي كله، يجب أن يبحث على حدة.

وبهذا ـ أي بضم كلام الإمام المودودي بعضه إلى بعض ـ يكون الرجل رحمه الله قد أنصف تاريخنا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية، لا كما يبدو لأول وهلة من قراءة بعض ما كتبه.

كلمة د. الجابري:

وفي هذا المعنى أنقل هنا كلمة بليغة نيّرة لأستاذ مغربي معروف، لا يتهم بالتحيز للتيار الإسلامي، بل قد يحسبونه على التيار «اليساري»، هو د. محمد عابد الجابري أستاذ الفلسفة بالمغرب. قال: سدده الله في أحد تعقيباته في ندوة «التراث والتحديات المعاصرة» التي نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية» وعقدت بالقاهرة في سبتمبر ١٩٨٤م.

قال الجابري:

«أنا لست من رجال القانون، ولكن اهتمامي بالتراث، يجعلني أشعر بالقلق والانزعاج، عندما أسمع من يقول: إن الإسلام أو الشريعة الإسلامية ـ بالتحديد ـ لم تطبق منذ عصر الخلفاء الراشدين، يقلقني هذا القول بأن الشريعة «لم تطبق» طوال أربعة عشر قرنا الماضية، ويدفعني إلى التساؤل: وهل يمكن تطبيقها في المستقبل..؟ وكيف؟

(١) انظر: الإسلام اليوم ص ٣٠.

إن هذا القول يؤدي إلى عدمية مخيفة. فأين سنضع آلاف وعشرات الآلاف من الفقهاء، الذين عرفهم تاريخ الإسلام؟! أين سنضع كتب الفقه والاجتهادات والفتاوى؟!

نعم لقد أغلق باب الاجتهاد - كما يقال - في القرن الرابع الهجري، ولكن هذا الإغلاق للاجتهاد، لم يمنع الفقهاء من الاجتهاد داخل المذاهب الأربعة، وداخل الفقه الجعفري «الشيعي»، بل أكثر من ذلك لم يمنع ذلك «الإغلاق» قيام فقيه وأصولي عظيم؛ مثل: ابن حزم، الذي حرم التقليد، وأوجب الاجتهاد على كل شخص، حتى على الرجل العامي، ومثل الأصولي الكبير أبي إسحاق الشاطبي، الذي عمل على إعادة تأصيل أصول الفقه، والتجديد فيه، وذلك بالمناداة بنقل الاجتهاد من الاجتهاد في اللفظ وأنواع دلالاته، وبالقياس والتعليل «قياس الجزء بالجزء»، نقل الاجتهاد بهذا المعنى، الذي كان سائدا قبل، إلى بنائه على مقاصد الشريعة، وذلك باستقراء أحكام الشريعة، وصيغتها في كليات، ثم تطبيق هذه الكليات على الجزئيات المستجدة. هذا ليس اجتهادا فقط، بل هو عودة إلى إعادة تأسيس الاجتهاد، بما يمكِّن الفقه في الإسلام من أن يكون مسايرا للتطور، وقابلا للتطبيق في كل زمان.

على كل حال فأنا مسلم، ويقلقني القول: إن الإسلام أو الشريعة الإسلامية لم تطبق منذ عهد الراشدين؛ لأنني في هذه الحالة أجدني أتساءل عن حقيقة إسلام أجدادي وأسلافي: ألم يكونوا مسلمين؟! ألم يطبقوا الشريعة في عباداتهم وعقود زواجهم وكثير من معاملاتهم؟!

أعتقد أنه يجب الحرص على النظر في التراث، إلى الشريعة والفقه وغيرهما، نظرة تاريخية، وإلا سقطنا في العدمية. نحن نقول: الإسلام دين ودولة. نعم، وقد كان ذلك بالفعل. أما إذا قلنا: إن الشريعة لم تطبق منذ الرسول، أو منذ الخلفاء الراشدين، فمعنى ذلك أن الإسلام لم يكن دينا مطبقا، ولا كان دولة طوال أربعة

عشر قرنا. وهذا غير صحيح تاريخيا، وغير مقبول منطقيا. إنه قول يجر إلى عدمية مخيفة، تتركنا بدون هوية، بدون تاريخ. وبالتالي بدون حاضر، وبدون مستقبل. فهل نقبل بهذا؟!»[١].

بهذا العقل الواعي، وبهذه البصيرة النيرة، يجب أن نقرأ التاريخ، دون تعصب لقديم أو تقليد لجديد.

---

(١) انظر: ندوة: «التراث والتحديات المعاصرة» ص ٦٧٠، ٦٧١.

(٢)

الدولتان: الأموية والعباسية
وموقفهما من شريعة الإسلام

١ـ دولة بني أمية: دولة الفتوحات والتأسيس الحضاري.

٢ـ دولة بني العباس: دولة ازدهار العلم والحضارة.

١ ـ دولة بني أمية

دولة الفتوحات والتأسيس الحضاري

لقد صوب كثير من الكتاب سهامهم إلى صدر الدولة الأموية، وزعم من زعم أنها دولة مدنية، بمعنى: أن لا صلة لها بالدين وقال من قال: إنها كانت دولة عربية، ولم تكن دولة إسلامية! بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لا صلة لها بالدين، بل زعم من زعم: أن لا صلة لها بالأخلاق!

فرية تكذبها حقائق الدين وحقائق التاريخ:

وهذه ـ والله ـ فِرْية ما فيها مِرْية. تكذبها حقائق الدين، وحقائق التاريخ.

أما حقائق الدين، فقد بدأت دولة بني أمية سنة ٤٠ من الهجرة، واستمرت إلى سنة ١٣٢ هـ. فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة، وقرن التابعين، وقرن أتباع التابعين. والقرن هنا بمعنى: الجيل.

وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل حديث ابن مسعود: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[١].

ومثله حديث عمران بن حصين: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدري: أذكر النبي بعد قرنين، أو ثلاثة[٢].

---

(١) متفق عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٤٥).

(٢) متفق عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٤٦).

وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا: قال: يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي صلي الله عليه وسلم؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه. ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فيقال: نعم، فيفتح. ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب من صاحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فيقال: نعم، فيفتح)[1].

ومعنى قوله «قرْني» أي أهل عصري. وهم الصحابة، ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع.

وبعض الشراح حددوا القرن بزمن، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة. وبعضهم قال: ثمانون سنة. وبعضهم جعله مائة سنة، وهو الذي اشتهر في الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفية. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا: ثلاثمائة سنة. وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخي.

فالراجح تفسيره بما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع. وهذه العصور أو الأجيال المفضّلة: حظي بها عهد بنى أبية، وقد شاركها عهد الراشدين بالنسبة لجيل الصحابة، بل هو كان الزمن الأكثر حظا منهم.

ومن الأحاديث الصحيحة التي يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام: ما رواه البخاري في صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنْسي حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل في ساحة حمص، وهو في بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا» - (أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة). قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر: مغفور لهم «فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا». [2]».

---

(١) متفق عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٤٧).

(٢) رواه البخاري في الجهاد من صحيحه (٢٩٢٤) وتكرر في مواضع أخرى.

ومدينة قيصر هي القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية.

قال الشراح: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك في خلافة عثمان. فقد كان يُمنَع من الغزو في البحر، لما فيه من مخاطر، وفي عهد عثمان ما زال معاوية يغريه بالغزو في البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامي منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية.

وفي الحديث كذلك منقبة لابنه يزيد؛ لأن أول جيش غزا القسطنطينية كان هو أميره باتفاق المؤرخين. وفي هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصاري وكان في هذا الجيش رضي الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية.

وتعقب بعض العلماء من قال ذلك من الشراح: بأن وجود يزيد في هذا الجيش لا يلزم أن يكون من المغفور لهم، لجواز أن يخرج من هذا العموم بدليل خاص.

ونحن هنا لا يهمنا التحقيق في أمر يزيد، لكن الذي يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له في الجملة، كان في عهد بني أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنتين وخمسين من الهجرة النبوية[1]، أي في عهد معاوية.

تكذبها حقائق التاريخ:

وأما أن حقائق التاريخ تكذب هذه الفرية، فمن المعلوم للدارسين: أن الدولة الأموية، هي التي نشرت الإسلام في آفاق الأرض، وانتشرت فيها حلقات العلم في كل مكان، كما ابتدأ فيها تدوين العلوم الدينية واللغوية وغيرها. بل بدأت الترجمة من اللغات الأخرى في عهدها، قام بذلك أحد الأمراء، وهو خالد بن يزيد. وهي التي فتحت الفتوح شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، وكان لها جيوشها في البر، وأساطيلها في البحر، وهي التي أكملت ما بدأ في عهد أبي بكر وعمر، والسنوات الأولى في عهد عثمان من الفتوح.

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٠٤، ٥٠٥) طبعة دار أبي حيان.

لقد كان للدولة الأموية في عهد واحد: أربعة من القادة العسكريين في أنحاء العالم، كل يقف على ثُغرة من ثُغر الإسلام.

كان مسلمة بن عبد الملك: يفتح بلاد الصين.

وكان قتيبة بن مسلم الباهلي: يفتح سمرقند وما حولها.

وكان محمد بن القاسم: يفتح بلاد الهند.

وكان موسى بن نصير - ومعه طارق بن زياد - يطرق أبواب أوربا، ليفتح الأندلس.

إن الدولة التي تحارب في جبهتين، يَعُدّها الناس في حالة مخاطرة، فكيف بدولة تحارب في أربع جبهات في جهات متفرقة في أنحاء العالم في وقت واحد؟!!

وقد انتصرت الدولة الأموية في كل هذه الجبهات، فهل من سنن الله في خلقه: أن ينصر دولة منحرفة، أو دولة ظالمة ويمكن لها في الأرض؟.

إن من سنن الله تعالى ما عبر عنه القرآن بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ (يوسف: ٢٣). ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ (طه: ١١١). ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ المائدة: ٥١). ﴿**وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ (إبراهيم: ١٥).

ومما يعجب له المرء ويأسف أيضا: أن يقع بعض الدعاة في هذا المأزق الحرج، ويصدق كل ما قيل عن بني أمية، حتى ربما أصابت نباله من الخليفة الثالث ذي النورين، صهر رسول الله فى ابنتيه، الذي تستحي منه الملائكة، أحد السابقين الأولين من المهاجرين: عثمان رضي الله عنه. وقع في ذلك رجال كبار القدر، عظماء المنزلة والأثر في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله: مثل: الإمام العلامة أبي الأعلى المودودي في باكستان: في كتابه «الخلافة والملك» وكتابه «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» وهذا الذي جلب عليه ما جلب من القيل والقال. وإن كان هذا مغموراً في بحر حسناته.

وكذلك: الأديب الكبير، والداعية المفكر، والمجاهد الصُّلْب: الشهيد سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي حمل فيه على بني أمية حملة عنيفة، حتى جردهم - أو كاد يجردهم - من اعتبار العنصر الأخلاقي في سياستهم وتعاملهم. وهذا أيضًا أثار عليه ثائرة كثير من العلماء في مصر وغيرها، لأنه مس بقدر ما سيدنا عثمان. وهذا أيضًا مغمور في جانب ما قدم للإسلام وأمته، حتى إنه قدم عنقه في سبيل الله.

وأيضًا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي في كتابه «الإسلام والاستبداد السياسي» الذي قال فيه عن يزيد بن معاوية: إنه لا يصلح لإدارة مدرسة ابتدائية، وصوّب سنان قلمه إلى بني أمية بصفة عامة.

وقد نقلت أقوال هؤلاء الدعاة في الباب الأول، وما تحمله من قسوة بالغة على تاريخ الأمة. كما نقلت شهاداتهم للتاريخ الإسلامي أيضا، بما فيها من إنصاف.

وأضيف إليهم الداعية العلامة الشيخ أبا الحسن الندوي الذي أنصف التاريخ الإسلامي في كتاباته، ولكنه أطلق أحيانا على بني أمية أحكاما عامة، ما كنت أحب أن تصدر عن مثله، حتى إنه نقل قصة غريبة كان مصدره فيها «الأغاني» للأصفهاني، فهل يرضى الشيخ أن يؤخذ تاريخ الأمة من كتاب مثل هذا؟

وهناك كثيرون غير هؤلاء العلماء، ولكني اخترت ذكرهم؛ لأنهم من أكبر الدعاة إلى الإسلام، وأنا أحبهم وأقدرهم وأعرف فضلهم ومكانتهم، ومع هذا وقعوا فيما وقع فيه الكثيرون؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم تمحيص الحقائق، ومناقشة الموضوع من جذوره. ولو فعلوا لغيروا موقفهم.

ومما أذكره هنا: ما ثار من جدل على صفحات مجلة «المسلمون» الشهرية، التي كان يصدرها من القاهرة الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان، خلفًا لمجلة «الشهاب» التي أصدرها الإمام حسن البنا، وكان هو مدير تحريرها، وصدر منها خمسة أعداد.

فقد كتب الأديب المحقق المعروف الأستاذ محمود محمد شاكر أربع مقالات يدافع فيها عن معاوية خاصة، وبني أمية عامة، وينقد بشدة ما كتبه بعض الدعاة والكتاب، ومنهم: الأديب المعروف في ذلك الوقت: الأستاذ سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وحمل فيه على بني أمية حملة عنيفة لا تخلو من إسراف، والشيخ محمد الغزالي فيما كتب في «الإسلام والاستبداد السياسي» وغيره.

كان من هذه المقالات: مقالة بعنوان: «حكم بلا بينة»، وثانية بعنوان: «تاريخ بلا إيمان» وثالثة بعنوان: «لا تسبوا أصحابي» ورابعة بعنوان: «ألسنة المفترين». وكان التركيز في هذه المقالات على ما كتبه سيد قطب رحمه الله.

ولم يرد الأستاذ سيد قطب على هذه المقالات، ولكن دافع عنه من سورية: الكاتب الأديب المعروف في ذلك الوقت: الأستاذ علي الطنطاوي، بمقالة في مجلة «الرسالة».

وأحسب أن الأستاذ شاكراً قد بالغ في الرد والدفاع، كما بالغ الآخرون في النقد والهجوم، وخير المناهج الوسط، لا وكس ولا شطط، أو لا طغيان ولا إخسار في الميزان.

وأنا ممن يدافعون عن بني أمية، ولا أقبل التهم الجزافية التي تلصق بهم، وكثير منها لا يثبت عند التمحيص، أو يعطى أكبر من حجمه، ولكني لا أبرئهم من مظالم ارتكبوها، وسنن غير راشدة استنوها. وهي ما اجتهد عمر بن عبد العزيز أن يغيرها، ويضع مكانها سننًا صالحة، ويزيل المظالم، ويرد الحقوق إلى أهلها، ولم يستطع أن يرد أمر الخلافة إلى الأمة، ويحررها من احتكار بني أمية، لأن الأمر كان أكبر من طاقته، ولأن الأجل لم يمهله حتى يغير هذا التقليد الراسخ.

ومن العلماء الكبار في العصور الماضية: من دافع عن الصحابة فيما وقع بينهم من فتن، ودافع عن بني أمية، ولكنه بالغ في الدفاع عن بني أمية، مثل الإمام

القاضي أبي بكر بن العربي في كتابه «العواصم من القواصم» الذي دافع عن يزيد ورجاله الذين قتلوا سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسين بن عليّ، وقال ابن العربي: إن الحسين قتل بشرع جده عليه الصلاة والسلام. مشيراً إلى الحديث المعروف: «إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[1] فقد نفذ يزيد وجماعته الأمر النبوي في هذا الحديث الصحيح.

وهذا ما خطأه فيه العلامة ابن خلدون في مقدمته، رغم تأثره به في كثير من المواضع. قال ابن خلدون: «وقد غلط القاضي أبو بكر العربي المالكي في هذا في كتابه الذي سماه: «العواصم من القواصم»ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده! قال: وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط «الإمام العادل» ومن أعدل من الحسين في زمانه وأمانته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!»[2].

سيرة معاوية مؤسس دولة بني أمية:

ولنحاول هنا أن نلقي نظرة عادلة متوازنة علي تاريخ بني أمية، بادئين بسيرة مؤسس الدولة معاوية بن أبي سفيان، وهو ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنالته بركة الصحبة.

وهذا ما أثبته الإمام البخاري في صحيحه في شأن معاوية، في كتاب فضائل الصحابة. في: باب ذكر معاوية رضي الله عنه. وفيه ذكر حديث ابن أبي مليكة، قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة، وعنده مولى لابن عباس، (أي فذكر له ذلك) فقال: دعه، فإنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٢) عن عرفجة.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون طبعة لجنة البيان العربي ص٥٦٣. وانظر: منطق ابن خلدون د. علي الوردي ص ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٣) البخاري في مناقب الصحابة (٣٧٦٤).

وساق حديثًا آخر لابن أبي مليكة: قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: إنه فقيه[1]. وناهيك ممن يصفه حبر الأمة وترجمان القرآن بأنه فقيه!

وذكر البخاري حديثًا لمعاوية قال فيه: إنكم تصلون صلاة (وهي ركعتان بعد العصر) لقد صحبنا النبي صلى الله عليه وسلم، فما رأيناه يصليها، ولقد نهى عنها.

وهذه الصحبة لرسول الله لا تمنحه «العصمة» فلا عصمة لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها تمنحه شيئًا أشبه بما يسمى اليوم «الحصانة» التي تعطى لأعضاء البرلمان وأمثالهم، فلا يقبل من أحد أن يجرحهم أو يمسهم بسوء، وقد أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى عليهم رسوله في أحاديث كثيرة، وشهدت لهم وقائع التاريخ المتواترة بالفضل ومكارم الأخلاق. وهم الذين نقلوا إلينا القرآن، ورووا إلينا السنة.

قال الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن، إذا رأيت رجلا يذكر أحدًا من الصحابة بسوء، فاتهمه على الإسلام![2]

وقال أحمد: ما انتقص أحد أحدًا من أصحاب رسول الله إلا وله داخلة سوء[3].

ومن الأئمة من بالغ في فضل الصحبة، وجعل أي صحابي أفضل ممن جاء بعده، وإن بلغ في العلم والتقى والجهاد ما بلغ. ولهذا سئل الإمام عبد الله بن المبارك عن معاوية، فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله: «سمع الله لمن حمده» فقال خلفه: ربنا ولك الحمد؟! فقيل له: أيهما أفضل هو أم عمر بن عبد العزيز؟

(١) انظر: المصدر السابق (٣٧٦٥).

(٢) انظر: نفسه (٣٧٦٦).

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٤٥٠) تحقيق د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح الحلو.

فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله: خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز![1]

وهذا مبني على أن خيرية قرن الصحابة للجميع لا للمجموع، فكل صحابي خير ممن بعده، وهذا هو رأي الجمهور.

ولإمام المغرب والأندلس: ابن عبد البر رأي أراه جديرًا بالقبول، هو: أن من الصحابة من لا يلحق بغبارهم أحد مثل السابقين الأولين، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن له فضيلة خاصة ثبتت له، أما باقي الصحابة فخيريتهم لمجموعهم، لا لجميعهم، فقد يأتي بعدهم من يفوقهم فضلا ومنزلة، لتقواه وجهاده، واستباقه للخيرات.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه ترجمة ضافية لمعاوية، سرد فيها الكثير من الأحاديث التي أوردها الموردون في فضله، وأطال في ذلك، ولم يصح شيء من هذه الأحاديث إلا أنه كان من الكتاب الذين يكتبون الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

كما صح الحديث الآخر: أن الرسول أرسل إليه ابن عباس يطلبه عدة مرات، فوجده في كل مرة يأكل، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا أشبع الله بطنه!»[3].

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» في «باب ذكر معاوية»: عبَّر البخاري في الترجمة بقوله: «ذكر» ولم يقل: «فضيلة» ولا «منقبة» لكون الفضيلة لا تؤخذ من حديث الباب.

وقد صنف ابن أبي عاصم جزءًا في مناقبه، وكذلك أبو عمر غلام ثعلب،

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١١/ ٤٠١).

(٣) انظر: رواه مسلم (٢٦٠٤) عن ابن عباس.

وأبو بكر النقاش. وأورد ابن الجوزي في «الموضوعات» ـ أي الأحاديث المكذوبة ـ بعض الأحاديث التي ذكروها. ثم ساق عن إسحاق بن راهويه: أنه قال: لم يصح في فضائل معاوية شيء! فهذه النكتة في عدول البخاري عن التصريح بلفظ «منقبة» اعتماداً على قول شيخه.

لكن بدقيق نظره استنبط ما يدفع به رؤوس الروافض، وقصة النسائي في ذلك مشهورة، وكأنه اعتمد أيضا على قول شيخه إسحاق، وكذلك في قصة الحاكم.

وأخرج ابن الجوزي أيضا من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي: ما تقول في عليّ ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: اعلم أن عليا كان له كثير من الأعداء، ففتش أعداؤه له عيبًا، فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه، فأطروه، كياداً منهم لعليّ. فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل، مما لا أصل له.

وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصح من طريق الإسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنسائي وغيرهما، والله أعلم[1].

معاوية خليفة وحاكما:

ومن نظر في سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضي الله عنه له، وتأمل هذه السيرة بإنصاف: وجد الرجل حريصًا على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية في مجالات الحياة المختلفة.

---

(١) انظر: فتح الباري (٨: ٧١٥) طبعة دار أبي حيان.

فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة في آخر قدمة قدمها، قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم - يوم عاشوراء - يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه». وفي رواية: وإني صائم، فصام الناس. قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا، وأخرج قُصة من شعر من كمه، فقال: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم»[1]، يعني وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح في عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفي رواية أخرى أنه قال لهم: إنكم أحدثتم أي حدث سوء، نهي رسول الله عليه وسلم عن «الزُّور». (سماه الرسول زوراً لما فيه من التزوير والتغرير).

فهنا نراه حريصا على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذي رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصًا على إماتة بدعة ظهرت في الناس، وهي تقليد اليهوديات في زينتهن بوصل الشعر.

وروى عبد الرحمن بن هُرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وقد جعلا (أي العقدين) صداقا (أي كل منهما صداق الأخرى) فكتب معاوية بن أبي سفيان - وهو خليفة - إلي مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال في كتابه: هذا «الشِّغار» الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

فهو يراعي إقامة السنة في حياة الناس في الأمور كلها: أمور الفرد وأمور الأسرة، وأمور الجماعة.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسند معاوية في أكثر من موضع (١٦٨٦٧) و(١٦٨٦٨) و(١٦٨٩١) و(١٦٩٣٤) ورواه مسلم أيضا (١١٢٩/ ١٢٦) وآخرون. وهو حديث صحيح.

(٢) رواه أحمد (١٦٨٥٦) وقال مخرجوه في المسند: إسناده حسن، وقد رواه أبو داود (٢٠٧٥) وغيره.

وقد وصفوه بأنه كان قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان يروي الحديث إلا بمناسبة اقتضته. فقد ورد أنه دخل على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقم ابن الزبير. فقال معاوية: مَهْ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن يَمثُل له عباد الله قياما، فليتبَوّأ مقعده من النار»[1].

وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره (أي في العمرة) بمِشْقَص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية! فقال: ما كان معاوية على رسول الله متّهما[2].

وكان الصحابة رضي الله عنهم، يخالفون معاوية - وهو خليفة - فيما أخطأ أو وهم في روايته، ويعلنون ذلك، كما يخالفونه إذا لم يوافق اجتهادهم.

روى الإمام أحمد في مسنده بسنده المتصل عن أبي شيخ الهُنَائي قال: كنت في ملإ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند معاوية، فقال معاوية: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لُبْس الحرير؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأنا أشهد، قال: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لُبس الذهب إلا مقطعًا؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأنا أشهد، قال: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ركوب النمور؟ (أي السروج المكسوة بجلد النمر لما فيها من الترف والخيلاء) قالوا: اللهم نعم، قال: وأنا أشهد، قال: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب في آنية الفضة؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وأنا أشهد، قال: أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٠٦٨٣٠) وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، كما رواه مسلم (٢١٢٧) والبخاري (٣٤٨٨) و (٢٩٣٨) وغيرهما.

(٢) رواه أحمد في المسند وقال مخرجوه: إسناده صحيح (١٦٨١٣).

عليه وسلم نهى عن جمْع بين حج وعمرة؟ قالوا: أما هذا، فلا، قال: أما إنها معهن[1].

ومن الطرائف التي تذكر: أن معاوية كان يجرّئ الناس على النصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق ولو كان في مواجهة الخليفة نفسه. وبعبارة العصر، وبلغة حقوق الإنسان: يجرئهم على حرية الرأي والتعبير، وحق النقد والمعارضة، الذي يراه الإسلام واجبا على المسلم، وليس مجرد حق يمكنه أن يتنازل عنه.

فعن أبي قبيل عن معاوية بن أبي سفيان: أنه صعد المنبر يوم القمامة، فقال عند خطبته: إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه! فلم يجبه أحد! فلما كان في الجمعة الثانية، قال مثل ذلك فلم يجبه أحد! فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد، فقال: كلاّ، إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا! فنزل معاوية، فأرسل إلى الرجل، فأدخله، فقال القوم: هلك الرجل! ثم دخل الناس، فوجدوا الرجل معه على السرير! فقال معاوية للناس: إن هذا أحياني أحياه الله! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سيكون بعدي أمراء، يقولون ولا يُرَدّ عليهم، يتقاحَمُون في النار، كما تتقاحم القردة». وإني تكلمت أول جمعة،

---

(1) رواه أحمد في مسنده (١٦٨٣٣) وقال مخرجو المسند: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي شيخ الهنائي - واسمه حيوان بن خالد، وقيل: خيوان - فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو حسن.

وقد رواه النسائي في (الكبرى) برقم (٩٤٦١) في كتاب الزينة، وأدرجه تحت عنوان: تحريم الذهب على الرجال، وهو واضح الدلالة في ذلك؛ لأن النهي عن الحرير وعن لبس الذهب إنما هو في حق الرجال، لا النساء. وهذا الذي انتهى إليه أهل العلم الذين تُعتمد أقوالهم ويُرجع إليهم في فقاهة النصوص، فقد أباح السلف جميعا لبس الذهب للنساء مطلقًا، وقام الإجماع إلى ذلك، ولا يعرف لهم فيه مخالف، وأخرجه مطولا ومختصراً عبد بن حميد في (المنتخب) (٤١٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٨٢٥) من طريقين، عن همام، بهذا الإسناد.

فلم يرُدّ عليّ أحد، فخشيت أن أكون منهم، ثم تكلمت في الجمعة الثانية، فلم يرد عليّ أحد، فقلت في نفسي إني من القوم! ثم تكلمت في الجمعة الثالثة، فقام هذا الرجل، فردّ عليّ، فأحياني، أحياه الله[١].

ونحن نعتقد - مع د. عبد الحليم عويس - أن شهادة المسعودي في معاوية - مع أنه معروف بميوله لآل البيت، وتحامله على بني أمية - هي من أوثق الشهادات وأصدقها... قال المسعودي: «كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات، كان إذا صلى الفجر جلس للقاصّ (أشبه بالواعظ) حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه (...) ثم يؤتى بالغداء (...) وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء (...) وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية (...) ثم يؤذن للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشي...»[٢].

قال د. عويس:

وبعد أن ينتهي المسعودي من سرده الذي ذكرنا بعضه، (ونحيل إليه لروعته...) يعقب على البرنامج اليومي لمعاوية - رجل الحكم العظيم - فيقول: «ولقد كان همَّ بأخلاقه جماعة بعده، مثل عبد الملك بن مروان، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه للسياسة، ولا التأني للأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم»[٣]. انتهى.

والحق أننا إذا نظرنا إلى خليفة أو حاكم مثل معاوية بن أبي سفيان نجده من أعظم حكام العالم، وأقربهم إلى العدل والحكمة، وإنما نزلت مرتبته لمقارنته بمثل عمر بن

---

(١) قال الهيثمي (مجمع الزوائد: ٥/ ٢٣٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٤٠.

(٣) نفسه ص ٤٢. وانظر: بنو أمية بين السقوط والانتحار ص ١٩، ٢٠.

الخطاب، وعلي بن أبي طالب، في مثاليتهما الرفيعة، ولأنه انحرف بالحكم عن سنة الخلافة الراشدة، من ترك المسلمين يختارون لأنفسهم، أو استخلاف أحد من غير عصبته. ترك ذلك إلى «الملك»، القائم على الوراثة، ولأنه بغى على أمير المؤمنين «عليّ» في حربه في صفين. وعواطفنا نحن المسلمين جميعًا مع عليّ ومن معه. ونؤمن أن الحق كان معهم.

وقد ورد عن الحسن البصري أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليًا، وقتله حُجْر بن عَدي(١)، واستلحاقه زياد بن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه.

ونحن مع الحسن في إنكار هذه الأمور الأربعة، وإن لم تكن كلها في درجة واحدة.

فأما قتاله عليا، فلا ريب في أنه كان باغيًا عليه(٢)، وقد ثبت ذلك بالحديث الصحيح، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»(٣) وكان الذي قتله معاوية ورجاله.

قيل لشريح القاضي: كان معاوية حليما؟ قال: ليس بحليم من سفه الحق وقاتل عليا!(٤)

وسئل الإمام أحمد عما جرى بين عليّ ومعاوية، فقرأ: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ١٣٤)(٥).

وقال رجل لأبي زُرعة الرازي: إني أبغض معاوية: فقال له: ولم؟ قال: لأنه

---

(١) ترجم له الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/ ٣١٤، ٣١٥) رقم (١٦٢٩).

(٢) مما أخذته على صديقنا عبد الحليم عويس: أنه عاب المؤرخ الرحالة الكبير المسعودي: أنه كان يحمل - سلفًا - تحيزا ضد معاوية في صراعه مع علي!! ومن في المسلمين من يقف مع معاوية ضد علي، وقد ثبت بالحديث الصحيح: أنه على رأس الفئة الباغية؟! انظر: بنو أمية بين السقوط والانتحار ص٢٠.

(٣) رواه البخاري في فضائل الصحابة عن أبي بكرة (٣٧٤٦) وكرره في مواضع أخرى.

(٤) انظر: البداية والنهاية (١١/ ٤٢٧).

(٥) انظر: البداية والنهاية (١١/ ٤٢٧).

قاتل عليا. فقال له أبو زرعة: ويحك! إن رب معاوية رب رحيم، وخصم معاوية خصم كريم! فأيش دخولك أنت بينهما؟![1]

وعلى كل حال فإن الذي يهمنا هنا هو: فترة خلافته وإمارته للمؤمنين.

وأما قتل حُجْر بن عدي، فنحن لا نقره عليه، وإن ذَكَر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، وهو أنه قتل واحدا، ليقي مائة ألف من القتل! أي إن تركه كان سيفتح باب فتنة، يتقاتل فيها المسلمون، ويضرب بعضهم رقاب بعض. وسيجزيه الله بما يستحقه. وقد قال القاضي شريح عن حجر: كان صوامًا قوامًا. ولامت عائشة معاوية على قتله حُجْراً، فقال لها: إنما قتله الذين شهدوا عليه!

وروى الطبري: أن معاوية لما حضره الموت جعل يغرغر بروحه، وهو يقول: إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل! قالها ثلاثًا[2].

وأما استلحاقه زيادًا، فهو أمر جزئي، لا يبلغ مبلغ الأمور الثلاثة الأخرى.

وأما أخذه البيعة ليزيد في حياته، وتوريثه الملك لذريته، فهذه هي التي حولت الخلافة الإسلامية إلى كسروية أو قيصرية. وهي التي جعلت طراز حكمه غير طراز الخلفاء الأربعة، أو قل: الخمسة (إذا أضيف إليهم الحسن بن عليّ) من قبله. وبهذا صدق حديث سفينة «الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون الملك»[3].

ولا غرو أن نقل السيد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» - وهو في تفسير المنار أيضا عن أحد كبار العلماء الألمان، أنه قال لبعض علماء المسلمين في الآستانة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا

---

(١) انظر: المصدر السابق (١١/ ٤٢٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (١١/ ٢٣٧)، وقد رواه أحمد (١٩٦٩).

(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه عن سَفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، ومداره على سعد بن جُمْهان، وفيه كلام، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٣٤١) وفي سلسلته الصحيحة (٤٦٠) وسيأتي مناقشتنا لهذا الحديث في فصل «مسؤولية المحدثين عن تشويه تاريخنا» من الباب الأخير من هذا الكتاب، ورد ابن العربي وابن خلدون لهذا الحديث، وتضعيف بعض الأئمة لابن جمهان الذي عليه مدار الحديث.

من عاصمتنا (برلين)! قيل له: لماذا؟ قال: لأنه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغالب! ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله ولكنا، نحن الألمان ـ وسائر شعوب أوربا ـ عربا ومسلمين[1].

ومع هذه السيئة كان معاويا نفسه يجد في الصحابة من يعارضه ولا يمسه بأذى، كما عارضه أبو سعيد الخدري فى تقدير صدقة الفطر بالقيمة وقال: تلك قيمة معاوية لا أقبلها ولا أعمل بها!

وقد رأينا من الصحابة، بل من التابعين من يجبهه بمر الحق، وصريح القول، فيقابله بالسماحة واللطف، لا بالخشونة والعنف.

ذكر الحافظ الذهبي في «سير الأعلام» عن ابن عون قال: كان الرجل يقول لمعاوية: والله لتستقيمن بنا يا معاوية، أو لنقومنّك، فيقول بماذا؟: فيقولون: بالخُشُب. فيقول: إذن أستقيم! (والخُشُب: جمع خشيب، وهو السيف الصقيل).

ووجدنا أبا مسلم الخولاني، يدخل عليه، فيقول: السلام عليك أيها الأجير، ويرد عليه مَنْ حول معاوية، مصححين عبارته: السلام عليك أيها الأمير، ويصر أبو مسلم على قوله. فيقول معاوية: دعوا أبا مسلم، فهو أعلم بما يقول. فقال أبو مسلم: أنت أجير المسلمين، استأجروك على رعاية مصالحهم.

الأخباريون ظلموا بني أمية:

ولكن معاوية ـ وبني أمية بصفة عامة ـ ظلمهم فئتان من الناس:

الأولى: من الأقدمين، وهم: «الأخباريون»[2] من رواة التاريخ الذين حرفوا الوقائع بالهوى، أو تناقلوها بغير تمحيص، وبخاصة أن تاريخ بني أمية لم يكتب إلا بعد أن زالت دولتهم، وجاء خصومهم من بني العباس.

---

(١) انظر: تفسير المنار جـ١١ / ٢٦٠.

(٢) مصطلح أطلقه علماء المسلمين على جامعي الأخبار، الذين يروون منها ما له سند، وما ليس له، وما يصح ومالا يصح، دون تمييز. فهم أشبه بمعظم الصحفيين في عصرنا، الذين ينقلون الأخبار من أي مصدر كان ولا يتحرون الدقة والصدق في مصادرهم كلها.

وقد رأينا بأعين رءوسنا: كيف يكتب المنتصرون تاريخ «العهود البائدة» من قبلهم. وكيف يظهرون مساوئهم، ويخفون حسناتهم. بل رأينا رئيس جمهورية يحذف اسمه من التاريخ، وهو حي، ولا يعترف به إلا بعد سنين، حين مات خصمه! وهو محمد نجيب أول رئيس جمهورية في مصر!

ولو كان معاوية بالسوء، الذي تصوره بعض الروايات، ما تنازل له عن الخلافة راضيًا: رجل مثل الإمام الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، حرصًا على وحدة الكلمة، وجمع شتات الأمة، وحقن الدماء المعصومة، تنازل له بعد أن بويع بالخلافة، ونودي بأمير المؤمنين، وكان أنصاره مستعدين للتضحية بدمائهم وأرواحهم دفاعًا عنه، إيمانًا منهم بأحقيته لمنصب الخلافة.

ولكن الإمام الحسن رأى أن يحقن دماء الأمة بالتنازل والصلح، زهدا وإيثارا، رضي الله عنه، وجزاه عن أمة الإسلام خيرا.

ولهذا فرح المسلمون في كل مكان بموقف الحسن وزهده وإيثاره رضي الله عنه، وسموا هذا العام «عام الجماعة». وبهذا تفرغت الدولة الإسلامية للبناء والإصلاح في الداخل، ونشر الإسلام في الخارج.

وقد نوه الحديث النبوي الصحيح بموقف الحسن السبط رضى الله عنه بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]. وكان هذا من إنبائه صلى الله عليه وسلم بالغيوب المستقبلة، التي صدقها الواقع. وهذا لا يعرف إلا بالوحي.

الغاضبون من المحْدثين:

والفئة الثانية، التي ظلمت بني أمية، من الكتاب المحْدثين، الغاضبين على بني أمية، والمتحاملين عليهم، وقد سبق أن نقلنا عن بعض الدعاة الكبار، من الأقوال التي تحمل كثيرا من المجازفة والغلو في بني أمية خاصة، وفي تاريخ الأمة

(١) رواه البخاري (٢٧٠٤) عن أبي بكرة.

الإسلامية بصفة عامة. بناء على أحكام عاطفية، تصدق كل ما يشاع، دون تمحيصه وتحقيقه.

وإذا كان هذا موقف بعض الدعاة الكبار، فلا عجب أن نجد هذا التحامل - وربما أكثر منه - عند بعض الكتاب الآخرين ممن لا يعيش لدعوة الإسلام، كما عاش هؤلاء الدعاة، مثل الأساتذة الأكاديميين المتخصصين في التاريخ، المتأثرين بكتابات المستشرقين، ونظرتهم إلى التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والأمة الإسلامية، والرسالة الإسلامية. مثل: «بولوس فلهوزن» وكتابه «تاريخ الدولة العربية: من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية»، وكتاب «فان فلوتن» عن «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية».

ومن أبرز الأكاديميين الذين كتبوا عن بني أمية معتبرين أنها «دولة عربية» لا «دولة إسلامية» أي أنها دولة تتعصب للعرب ضد غيرهم، ولا تتقيد بالقيم الإسلامية التي جاءت تسوي بين الناس، وتذيب الفوارق بين الأجناس والألوان... من أبرز هؤلاء: الدكتور عبد الرزاق الأنباري وكتابه «تاريخ الدولة العربية» وعنوان الكتاب يحمل اتهاما لبني أمية، من أول الأمر[1].

وهناك كتاب كثيرون داروا في هذا الفلك، وأخذوا كل ما وجدوا في الكتب قضية مسلمة، وحملوا بني أمية أوزارا ليس عليهم عبؤها. ومن هؤلاء الكاتب المعروف، الذي كتب العبقريات الإسلامية المعروفة، وترجم لعدد كبير من الشخصيات الإسلامية وغيرها: عباس محمود العقاد، ولا سيما في كتبه: «عبقرية علي» و«معاوية في الميزان» و«أبو الشهداء» أي الحسين رضي الله عنه وغيرها.

ومن باب أولى: كتابات طه حسين في التاريخ الإسلامي، مثل «الفتنة الكبرى» و«علي وبنوه» وغيرهما.

ومن ذلك: ما كتبه الكاتب اليساري: أحمد عباس صالح «حول اليمين واليسار في الإسلام».

---

(١) انظر: بنو أمية بين السقوط والانتحار لعبد الحليم عويس نشر دار الصحوة بالقاهرة ص ٨، ٩.

وما كتبه عبد الرحمن الشرقاوي عن «علي إمام المتقين» وقد نشره على صفحات الأهرام، ثم جمعه في كتاب.

رأي ابن خلدون في ضم فترة معاوية إلى الخلافة الراشدة:

والحق أن الأخباريين من الأقدمين، والغاضبين من المحدثين: جاروا كثيراً على بني أمية عموما، وعلى معاوية خصوصًا، ولم يكن معاوية بالصورة السيئة التي صورها الكثيرون، وهذا ما جعل رجلا في وزن ابن خلدون حكيم المؤرخين، ومؤسس علم الاجتماع، يقول في تاريخه (طبعة فاس بتعليق الأمير شكيب أرسلان) بعد الحديث عن الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم:

«وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة. ولا ينظر في ذلك إلى حديث: «الخلافة ثلاثون سنة» فإنه لم يصح. والحقيقة: أن معاوية في عداد الخلفاء. . .»[1].

وسبقه إلى ذلك القاضي الإمام أبو بكر بن العربي رأس المالكية في عصره، وصاحب المصنفات التي ذاعت ولقيت القبول، فقد قال في كتابه «العواصم من القواصم»: وهذا حديث لا يصح[2].

وأيد ذلك العلامة محب الدين الخطيب في تعليقه على «العواصم»، وقد نشر الجزء الخاص بمواقف الصحابة، وما حدث بينهم من فتن بعد رسوا الله صلى الله عليه وسلم، وعلق عليه تعليقات ضافية.

وقد خالف المحدّث الألباني: السيد محب الدين، كما خالف ابن العربي وخالف كذلك: ابن خلدون، واتهمه بأنه ليس له قدم راسخة في علم الحديث.

وهو خلاف طبيعي بين عقلية المحدِّثين وعقلية غيرهم من العلماء. والمحدّثون - وخصوصًا في العصور المتأخرة - يصعب عليهم أن يضعّفوا حديثًا، كما يصعب

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٥٨).

(٢) العواصم من القواصم ص ٢٠١.

عليهم أن ينظروا إلى مضمون الحديث ومعناه، وهو ما يعبرون عنه بـ «متن الحديث».

وقد اعتمد الشيخ الألباني في تصحيح حديث ابن جُمهان ـ الذي عليه مدار حديث سَفينة ـ على توثيق أحمد وابن معين وأبي داود وابن حبان له، ولم يبال بقول البخاري عنه: في حديثه عجائب! وقول الساجي: لايتابع على حديثه. قال الألباني: فهذا جرح مبهم غير مفسر، فلا يجوز الأخذ به[1].

وأنا أعجب من قول الألباني هذا. فهذا في الواقع جرح مفسر، لأنه لم يقل: لا يحتج به، وسكت، كما قال أبو حاتم. بل بيّن السبب، وهو نظره إلى متون الأحاديث التي يرويها، بأن فيها عجائب، أي أشياء منكرة لا تقبل بمنطق الدين أو منطق العلم. وكذلك قول الساجي: لا يتابع على حديثه: معناه: أنه ينفرد بغرائب من الحديث، لا يتابعه عليها أحد، ومن كان كذلك ردت أحاديثه.

وقد أيد السيد محب الدين الخطيب تضعيفه لحديث سفينة بأنه يعارضه الحديث الصحيح الصريح الذي رواه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه، عن جابر بن سَمُرة قال: دخلت مع أبي على النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي منهم اثنا عشر خليفة.. كلهم من قريش»[2].

وفي بعض الروايات: «لا يزال الإسلام عزيزاً، إلى اثني عشر خليفة... كلهم من قريش».

وقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي. وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[3].

---

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ج ١ حديث (٤٦٠).

(٢) انظر: الحديث (١٨٢١) من كتاب الإمارة.

(٣) متفق عليه: انظر: اللؤلؤ والمرجان (١٢٠٨).

ووفق بعض العلماء بين هذه الأحاديث الصحيحة وحديث سفينة بأن المقصود بحديث «الخلافة ثلاثون سنة» هو خلافة النبوة، كما جاء في رواية أبي داود (٤٦٤٦) وغيره. وبالأحاديث الأخرى: مطلق خلافة[١].

وتبين لي من رواية أبي داود: أن سفينة رضي الله عنه ذكر هذا الحديث، ليرد على الذين زعموا أن عليًا رضي الله عنه ليس داخلا في خلافة النبوة، لاختلاف الناس عليه، بخلاف الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان. ولذا ذكر أبو داود في روايته: قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء (يعني خصوم عليّ) يزعمون أن عليّا عليه السلام لم يكن بخليفة! قال: كذبت أستاه بني الزرقاء؟ يعني: مروان[٢].

والقصد من إيراد الحديث: إدخال عليّ، لا إخراج من عداه.

الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد:

ومن المعلوم لقارئ التاريخ: أن شر من ولي الخلافة من بني أمية، كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذي خلف عمه هشام بن عبد الملك، وقد اشتهر بالفسق والمجون وشرب الخمر، والشذوذ الجنسي، وقد سخط عامة الناس عليه، وانتهى الأمر بقتله، وانتقال الخلافة إلى ابن عمه الرجل الصالح العادل: يزيد بن الوليد.

هذا وقد بالغ الناس في أمر الوليد بن يزيد، ونسبوا إليه أشياء لم تصح نسبتها إليه من الكفر والزندقة. حتى قالوا: إنه قرأ القرآن يومًا، فوقف عند الآية الكريمة من سورة إبراهيم: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٥). قالوا: فمزق المصحف، وقال:

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ١٨٢).

(٢) انظر: الحديث (٤٦٤٦) في أبي داود (ج ٥ ص ٣٦، ٣٧).

أتوعِد كل جبار عنيد؟

فها أنذاك جبار عنيد!

إذا لاقيت ربك يوم حشر

فقل: يا رب مزقني الوليد!

وهذا شعر تبدو عليه الصنعة. وقد ذكر الذهبي في «سير الأعلام»: «أن الوليد بن يزيد ذُكر عند الخليفة المهدي العباسي، فقال رجل من جلسائه: كان زنديقًا. فقال المهدي: مَهْ! خلافة الله أجل من أن يجعلها في زنديق!

وذُكر عن الوليد بن هشام القحذمي عن أبيه قال: لما أحاطوا بالوليد نشر المصحف وقال: أقتل كما قتل ابن عمي عثمان!

وذكر أيضا عن حماد الراوية قال: كنت عند الوليد بن يزيد، فقال منجِّمان له: نظرنا، فوجدناك تملك سبع سنين! فقلت: كَذَبَا! نحن أعلم بالآثار، بل تملك أربعين سنة! فأطرق الوليد، ثم قال: لا ما قالا يكسرني، ولا ما قلت يغرّني. والله لأجبين المال من حله جباية من يعيش الأبد، ولأصرفنه في محله صرف من يموت الغد!»[1].

ولا يصدر مثل هذا القول من زنديق.

وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام»[2] قلت: مقت الناس الوليد لفسقه، وتأثموا من السكوت عنه، وخرجوا عليه، ولم يصح عنه كفر ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمر والتلوط (عمل قوم لوط)!

ومع هذا لم يطل عمر الوليد في الحكم، فإنما تملك سنة وثلاثة أشهر، فثار الناس عليه ورموه بالحجارة، فدخل القصر، فأحاطوا به، وقتلوه. وسلموا الأمر إلى ابن عمه يزيد بن الوليد. الذي يعد - مع عمر بن عبد العزيز - أعدل بني مروان.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) ٥/ ١٧٦ - ١٧٩. المصدر السابق ص ٣٧٣. الحاشية.

وهذه ثورة شعبية يقوم بها الجمهور المسلم، الذي يغضب لدينه، ويحاصر الخليفة، ويرميه بالحجارة، ويجبره على التنازل، وينقل الحكم إلى من هو أهل له. ولا أدري: لماذا لم ينوه المؤرخون بهذه الثورة الجماهيرية التلقائية، التي أسقطت حاكمًا وولت غيره مكانه؟!.

نقل الحافظ الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» عن خليفة بن خياط، ذكر بسنده: أن يزيد بن الوليد، خطب عند قتل الوليد، فقال: إني والله ما خرجت أشرًا ولا بطرًا، ولا حرصًا على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضبًا لله ولدينه، وداعيًا إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين دَرَسَت معالم الهدى، وطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار المستحل للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذ غشيكم ظلمه أن لا يُقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعو أناسًا إلى ما هو عليه، فاستخرت الله، ودعوت من أجابني، فأراح الله منه البلاد والعباد.

أيها الناس: إن لكم عندي إن وليت: أن لا أضع لبنة على لبنة، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد، حتى أسُدَّ الثغور، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه، حتى تستقيم المعيشة، ونكون فيه سواء، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم، فأنا لكم، وإن ملت، فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أقوى مني عليها، فأردتم بيعته، فأنا أول من يبايع، ويدخل في طاعته، وأستغفر الله لي ولكم[1]. أ. هـ

وكأنا نسمع هنا عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنهما.

ولكن من سوء حظ الأمة: أن توفى يزيد بعد ستة أشهر من توليه الخلافة، فقد مات بالطاعون. حتى قال الذهبي: إنه ما متع، ولا بلع ريقه!

---

(١) أعلام النبلاء: ٥/ ٣٧٥.

٢ ـ دولة بني العباس

دولة العلم وازدهار الحضارة

لقد دالت دولة بني أمية، حين شاخت، وولي الأمر فيها أمراء ضعفاء لا يملكون من المؤهلات ما يمكنهم من مقاومة عوامل الضعف في نظام الحكم، حتى إن آخر خلفائهم «مروان بن محمد» كان يسمى «مروان الحمار!».

وورثها بنو العباس، الذين كان في أوائل خلفائهم أمراء أقوياء مثل: المنصور والرشيد والمأمون، وبقيت هذه الدولة عدة قرون، ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية التي قادت العالم قرونًا من الزمن. كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة الرائدة في العالم، وكانت جامعاتها هي موئل الطلاب الذين يفدون إليها لطلب العلم من أوربا وغيرها.

وكانت أسماء علمائها هي أشهر الأسماء في دنيا العلم في العالم كله: ابن حيان وابن الهيثم والبيروني والرازي وابن سينا والزهراوي والخوارزمي وابن النفيس وابن رشد، وغيرهم.

وكانت كتبهم العلمية هي المراجع المعتمدة عند العلماء في الشرق والغرب: في الطب نجد: الحاوي للرازي، والقانون لابن سينا، والتصريف لمن عجز عن التأليف للزهاوي، والكليات لابن رشد وغيرها.

وكانت اللغة العربية هي لغة العلم الأولى في العالم، وكان من يريد التبحر في العلم يجتهد في إتقانها، وكان التكلم بها، من دلائل الرقي الثقافي.

تميزت هذه الحضارة بشمولها للجوانب العمرانية والجمالية، فتلاقت فيها العلوم والآداب والفنون، كما تميزت بالوسطية والتوازن، فالتقى فيها العلم والإيمان، وتعانق فيها الإبداع المادي والسمو الروحي والأخلاقي، فاجتمع في ظلالها الدين والدنيا معا، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا!

مدح شاعر المأمون بقصيدة قال فيها:

أمسى إمام الهدى المأمون مشتغلا

بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل!

فقال للشاعر: مازدت على أن جعلتني راهبا في محراب! هلا قلت كما قال الشاعر في جدي المنصور:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله!

فهكذا كانوا ينظرون إلى أن الدنيا موصولة بالدين، وان المادة ممزوجة بالروح، ولا ينبغي أن يفترقا.

فكيف يقول بعض الناس: إن التاريخ الإسلامي مجموعة من النقائص والسلبيات، بل قال بعضهم: إنه ظلمات بعضها فوق بعض؟!!

وكيف نتجاهل هذه الحضارة الشامخة، وقد دامت قرونًا؟ وكيف ينبثق من الظلمات هذا النور الذي أضاء العالم، وتعلم منه الغرب، واقتبس منه كثيراً من أصول حضارته، ولاسيما «المنهج التجريبي» الذي قامت على أساسه نهضة أوربا؟

وإن الغرب إنما نهض حين مسته نفحة من الشرق، فأيقظته من سباته العميق، وذلك حين التقى الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي من خلال قنوات عدة: في الحروب الصليبية، وفي الأندلس، وفي صقلية، وغيرها.

وبهذه المناسبة ينبغي أن نذكر هنا بحضارة المسلمين التي أقاموها في قلب أوربا، في الأندلس «إسبانيا» وبقيت ثمانية قرون، حتى قضى عليها التعصب الصليبي، وحكم عليها بالإعدام، ولم يبق للمسلمين في إسبانيا ديار ولا نافخ نار.

دولة ازدهار العلم والمدنية:

كانت دولة بني أمية - كما رأينا - دولة الفتوحات والتأسيس الحضاري، حتى إن بداية الترجمة كانت في عهدهم، وبدأت على يد أحد أمرائهم: خالد بن يزيد.

ومن سنن الله: أن تبدأ الأشياء صغيرة ثم تكبر، ضعيفة ثم تقوى، بسيطة ثم تتركب وتتعقد. وهذا ما حدث للنهضة العلمية والأدبية والثقافية في الإسلام، كما أرّخها المسلمون وغيرهم، مثل: أحمد أمين في كتبه: «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» وكما أرخها الغربيون المعنيون بحضارات الأمم وتواريخها.

كان العصر العباسي - وخصوصا العصر العباسي الأول: عصر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم - هو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية بلا نزاع.

وكان هؤلاء الخلفاء العظام معنيين بأن تقوم دولتهم على أقوى الدعائم من العلوم والمعارف الدينية والدنيوية، وأنه لا يرقى ملك بغير العلم والمعرفة، فالعلم النافع هو أساس العمل الصالح، وركيزة الحياة الطيبة.

ولهذا وجدنا خليفة كالمنصور يهتم بالعلم الديني، وبالعلم الدنيوي معا.

فأما اهتمامه بالعلم الديني فلا عجب، فقد كان أحد أقطابه، وقد قال لإمام دار الهجرة مالك بن أنس: تعلم أنه لم يبق غيري وغيرك في هذا الميدان، وتعلم أني مشغول بأمر الرعية، وأريدك أن تصنف للناس كتابا صفته كذا وكذا. وتوطئه للناس توطئا. . قال مالك: فعلمني التصنيف.

ولما فرغ منه مالك وعرضه عليه، أراد أن يحمل الناس عليه، أي يجعله بمثابة قانون رسمي للدولة، يحتكم إليه القضاة وغيرهم، لولا أن نصحه مالك بغير ذلك، واستجاب لنصيحته.

وأما اهتمامه بعلم الدنيا، فيتمثل في حثه على ترجمة كتب العلم والحكمة من اليونانية والفارسية إلى العربية، ومكافآته عليها.

وقد تبنى أبناؤه وأحفاده من الخلفاء عملية الترجمة، وشملوها برعايتهم، وأغدقوا على المترجمين، وأعطوا بسخاء، فنشطت حركة الترجمة، ونقلت كتب الفلاسفة والأطباء الكبار من اليونانية إلى العربية.

ومن المعروف: أن كتب الفلسفة - وكانوا يعبرون عن الفلسفة بـ «الحكمة» - لم تكن مقصورة على الجانب النظري والتجريدي الذي يبحث عن الأسرار والعلل، حول الوجود والمعرفة والقيم العليا: الحق والخير والجمال - التي هي أسس الفلسفة كما قال د. توفيق الطويل - بل كانت تضم في رحابها: كل ما نسميه الآن «العلوم» من الفيزياء والفلك والكيمياء والأحياء والطب والرياضيات وغيرها. فكانت هذه العلوم تعد شعبا من شعب الفلسفة. وكانت هذه العلوم هي المقصودة أساسا بالنقل، لحاجة المجتمعات العملية إليها، ولأنها مقدمة ضرورية لنمو المجتمعات، وارتقائها في سلم الحضارة.

فكانت الترجمة عملا أساسيا ترعاه الدولة، ويعدُّ من «إستراتيجيتها» وتخطيطها، وليس عملا ارتجاليا ولا عشوائيا، ولا فرديا.

لقد كان الإقبال على العلم بكل صنوفه وألوانه قويا ورائعا، اندفع إليه الأفراد ببواعثهم الذاتية، وبخاصة البواعث الدينية، وأسهمت فيه الدولة بالتأييد والتشجيع والترغيب والتخطيط أحيانا.

لقد اندفع المسلمون - بدافع من دينهم - يطلبون العلم حيثما وجدوه؛ علم الدين،

وعلم الدنيا، فكل علم نافع يجب أن يطلب، سواء كان طلبه فرض عين، أم كان فرض كفاية. ولم يقل واحد منهم: إن العلم المحمود طلبه هو: علم الدين فقط، فقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩). فنفى التسوية بين من يعلم ومن لا يعلم، بغض النظر عما يعلمه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٧). والعلم هنا ليس علم الدين يقينًا.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

والعالمون هنا: ليسوا علماء الدين.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). وهذه الأسماء ليست من علم الدين.

إن الذي فهمه المسلمون: أن كل ما يكشف عن حقيقة، في الدين أو الدنيا، أو يعين على فهم شيء من الأشياء في النفس أو الآفاق، أو ييسر على الإنسان معيشته، أو يوفر عليه جهدا أو وقتا: فهو علم نافع ينبغي الحرص عليه، وطلبه من مظانه، ولو كان عند غير المسلمين. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وقد انتشرت بين المسلمين هذه الحكمة: «اطلب العلم ولو بالصين» حتى ظنها الكثيرون حديثا، وما هي بحديث. ولكن معناها صحيح، وهو أن يطلب المسلم العلم ولو بأقصى الأرض.

وقد علم القرآن المسلمين: أن الإنسان يمكن أن يتعلم من غراب، كما تعلم ابن آدم الأول، من الغراب كيف يواري سوءة أخيه الميت، وأن يتعلم من هدهد، كما تعلم سليمان عليه السلام، حين قال له مبينا سبب غيابه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢).

ولهـذا أقـبل المسلمـون على «علوم الأوائل» أي الأقـدمـين من الأمـم التـي سبقـتهـم في مضـمـار المدنية، كـالفـرس والهنود واليـونانيين، الـذين نبـغ فيـهـم فلاسـفة كبـار، مثـل سقراط وأفـلاطون وأرسطو، وكـان لهم تراث امـتزج فـيه العلـم بالفلسـفة، فـبادروا بترجـمتـه، وتسابقوا في ذلك، وشـجعـهم الخلفـاء، وكـافـئوهم بالعطايا الـجزيلة، فسرعـان مـا قـامـت نهـضـة علمـيـة في مـختلـف جوانـب العلـم والفكـر: فـي الفيـزيـاء والكـيمـيـاء والفلك والأحيـاء والرياضيـات والطب والتشريح والصيدلة وتقويم البلـدان وغيرها.

وكـانت اللغة العـربيـة ـ كـمـا ذكـرنا ـ هي لغة العلم الأولى في الدنيـا كلها. ومنها تترجم الكتب إلى اللاتينية وغيرها.

وقـد تـأصل المنهج الاسـتقـرائي التـجـريبي ـ القـائم على الملاحظة والتـجـربة ـ في العـالم الإسـلامي: نظريّا وعـمليّا، على خلاف مـا كـانت عليه الروح اليـونانية من الاستغراق في الفكر الفلسفي، والتجريد النظري بعيدا عن الحياة العملية.

وسبق المسلمون بنقد المنطق الصوري الأرسطي، كـما نرى ذلك فيـما كتبه الإمام ابن تيـمية في نقض المنطق على أسس علمية وفكـرية. وهذا قبل نقد: (إسـتوارت مل) وغيره من فلاسفة الغرب.

كما طبقه المسلمون عمليّا في الطب والتشريح والجراحة، وفي الكيمياء والفيزياء والفلك والأحياء وغيرها.

ومن المسلمين اقتـبست أوربا هذا المنهج العلمي التـجريبي، الذي كـان أسـاس نهضتها الهائلة، وعن طريقه حققت الثورة الصناعية، وما بعدها من ثورات في دنيا العلم وتطبيقاته.

فـالفـضل في هـذا المنهج الذي انتـفع به الغـربيـون، ووسـعـوه وطوروه إلى أبلغ مـدى: يرجع إلى الحـضـارة الإسلاميـة، لا إلى فرنسـيس بيكُن، ولا إلى روجـر بيكُن.

وهذا ما اعترف به مؤرخو العلم والحضارة الغربيون، فأنصفوا بذلك العرب والمسلمين، وأنصفوا أنفسهم.

أعلن ذلك بصراحة: المؤرخ الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه: «حضارة العرب». وكذلك الكاتب الأمريكي «درايْبر» في كتابه: «النزاع بين العلم والدين» ومثله «بريفولت» في كتابه «بناء الإنسانية».

وأيضًا مؤرخ العلم الشهير جورج سارتون في كتابه: «تاريخ العلم».

بحث د. النشار عن المنهج العلمي عند المسلمين:

وقد ألف الأستاذ الدكتور علي سامي النشار كتابا قيما سماه: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العملي في العالم الإسلامي» بين فيه أن جمهرة علماء المسلمين في التخصصات المختلفة، يرفضون المنطق اليوناني الأرسطي الصوري القياسي، لأنه ينافي الروح الإسلامية، والتوجه الإسلامي الأساس.

كان هذا موقف علماء أصول الفقه، وعلى رأسهم: الإمام الشافعي. وموقف علماء أصول الدين، أي علماء الكلام. . وموقف علماء الفقه والحديث، كابن الصلاح والنواوي، انتهاء إلى ابن تيمية، الذي انتفع بنقد من سبقه للمنطق، وأضاف إليه إضافات لها وزنها.

بالإضافة إلى رجال العلم الطبيعي والرياضي، الذين طبقوا بالفعل المنهج الاستقرائي التجريبي.

ولقد بين د. النشار العلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الأرسططاليسي أو اليوناني، وذكر أننا لا نستطيع أن نتبين هذه العلة من الجانب الهدمي من نظر المسلمين على العموم، بل من الجانب الإنشائي.

وقد رأينا أن هذا الجانب الإنشائي هو المنهج التجريبي أو الاستقرائي - وقد وصل

المسلمون إلى وضع عناصر هذا المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التجربة، وتنظمه قوانين الاستقراء - وهذا المنهج الاستقرائي هو المعبر عن روح الإسلام، والإسلام في آخر تحليل هو: تناسق بين النظر والعمل. . يقيم نظرية فلسفية في الوجود، ولكنه يرسم أيضا طريقا للحياة العملية.

فالعلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الأرسطاليسي: أن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسي la methode deductive لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري. ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانا في هذا المنهج، وهي إحدى ركائز الإسلام الكبرى.

وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة. لأنه إذا عرفنا أن الإسلام كان يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي، استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة - وهي القائمة على هذا المنهج - في الإسلام، وحُسبان ما يدعونهم «فلاسفة الإسلام» أو الشراح الأرسطاليسيين - كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم - مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي.

يقول ابن تيمية: «وكان يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف الإسلام في وقته، أعني الفيلسوف الذي في الإسلام - وإلا فليس للإسلام فلاسفة - كما قالوا لبعض القضاة الذين كانوا في زمان ابن سينا: من فلاسفة الإسلام؟ فقال: ليس للإسلام فلاسفة[١].

وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي نستطيع أن نفسر سر هجوم علماء المسلمين على الغزالي في محاولته مزج المنطق الأرسطاليسي بعلوم المسلمين. فقد قام الغزالي بعملية المزج هذه في مطلع حياته العملية[٢] - فيما يرجح - بدون أن يتبين

(١) السيوطي: صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام صـ ٢٨٨.

(٢) يعكِّر على هذا ما ضمنه كتابه «المستصفى في علم الأصول» وقد صنفه قبل موته بقليل، وفيه مقدمة منطقية، ادعى أنه لا غنى عنها!

له التناقض التام بين روح الإسلام والروح اليونانية التي أملت هذا المنطق. وقد توصل في آخر حياته إلى المتناقضات التي تحدث عن هذا المزج، فهدم فكرته الأولى عنه. ولكنه في الوقت عينه انتقل إلى طريق آخر من طرق المعرفة، وهو التجربة الباطنية أو الكشف الصوفي.

وهذا المنهج الإسلامي الاستقرائي يفسر لنا أيضا أخذ بعض مفكري الإسلام المتأخرين لبعض العناصر الرواقية، بعد أن قام الغزالي بعملية المزج، لأن المنطق الرواقي أولا ليس منطقا ميتافيزيقيا، ولا يتصل بإلهيات يونانية كما يتصل منطق أرسطو بإلهياته المخالفة لعقائد المسلمين. ولذلك نرى كثيرا من المفكرين المتأخرين - وبخاصة شراح السلّم[1] يتكلمون عن تحريم المنطق الفلسفي الممزوج بالعقائد الفاسدة، أما المنطق غير الممزوج، فلا مانع من الاشتغال به. ولا يبحث المتأخرون في بعض المباحث الميتافيزيقية المنطقية كالمقولات، ولا يبحثون في البرهان إلا عرضا.

والنتيجة الأولى إذن التي نستطيع أن نصل إليها من هذا البحث، هو: أن مفكري الإسلام الممثلين لروح الإسلام، لم يقبلوا المنطق الأرسططاليسي، لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي. والنتيجة الثانية: أن المسلمين وضعوا هذا المنهج بجميع عناصره، ولقد كانت إسبانيا هي المعبر الذي انتقل خلاله العلم الإسلامي إلى أوربا.

يقول مفكر الهند المعاصر محمد إقبال رحمه الله «إن دبرنج Dubring» يقول: إن آراء روجر بيكون عن العالم أصدق وأوضح من آراء سلفه. ومن أين استمد روجر بيكون دراسته العلمية؟.. من الجامعات الإسلامية في الأندلس»[2].

ويقرر الأستاذ بريفولت Briffault في كتابه Making of Humanity أن روجر

---

(١) السلّم: متن منظوم في علم المنطق، كان طلاب الثانوي في الأزهر يدرسونه مشروحا.

(٢) Muhammad Iqbal: The Reconstruction of Religions Thought Islam .p.123 .

بيكون درس العلم العربي دراسة عميقة، وأنه لا ينسب له ولا لسميه الآخر: أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا. ولم يكن روجر بيكون في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربة المسيحية. ولم يكف بيكون عن القول لمعاصريه بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة.

ثم يذكر بعد ذلك: أن مناقشات عدة تقوم حول واضعي المنهج التجريبي، وأن هذه المناقشات تعود في آخر الأمر إلى تصوير فاسد محرف لمصادر الحضارة الأوربية. أما مصدر الحضارة الأوربية الحق، فهو: منهج العرب التجريبي، وقد «انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون، وتعلمه الناس في أوربا، يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة»[1].

ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها. ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي، هو: تأثيرها في «العلم الطبيعي والروح العلمية»: «وهما القوتان المميزتان للعمل الحديث، والمصدران الساميان لازدهاره[2]». ويقرر في حسم وإصرار: «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة. إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا.. إنه يدين لها بوجوده. وقد كان العالم - كما رأينا - عالم ما قبل العلم».

«إن علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكانا ملائما في الثقافة اليونانية. قد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام، ولكن طرق البحث، وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها، ومناهج العلم الدقيقة، والملاحظة المفصلة العميقة، والبحث التجريبي، كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني... إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربا نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في

---

(١) Briffault: Making of Humanity .p.292 .

(٢) Ibid: p. 160 .

الاستقصاء . . . طريق التجربة والملاحظة والقياس Measurement، ولتطور الرياضيات في العالم الأوربي(١) .

المسلمون إذن هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي .

إننا لنعلم أن «فرنسيس بيكون» قام بعد ذلك يشرح هذا المنهج، ثم بحث فيه «جون ستيوارت مل» محتذيا حذو العرب، آخذا بكل ما توصلوا إليه، مرددا عباراتهم وأمثلتهم .

وقد خطا المنهج التجريبي بعد بيكون وملْ خطوات مختلفة ومتعددة في عهدنا الحاضر، واتخذ صورا أخرى على أيدي الأَوربيين . ولكن المسلمين هم أول من تنبه - في تاريخ رواد الفكر الإنساني - إلى جوهره واتخذوه أساسا لحضارتهم . . وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوربية الحديثة الأولين(٢) . أ . هـ .

شهادة لوبون عن مناهج العرب العلمية:

وتحدث «لوبون» في كتابه : «حضارة العرب» عن «مناهج العرب العلمية» حديثًا مستفيضًا قال فيه : «ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، وقد يستطيع المرء أن يكون مطلعًا على علوم الآخرين . وقد يبقى عاجزًا عن التفكير وابتداع أيٍّ شيء مع ذلك، فيظل تلميذًا غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ! وسيبدو من الاكتشافات التي نذكرها في الفصول الآتية مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس . والآن أقتصر على ذكر المبادئ العامة التي وَجَّهَتْ أبحاثهم :

لم يلبث العرب، بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن

---

(١) Ibid: p. 196 .

(٢) انظر : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص ٣٧٧ - ٣٨٥ طبعة دار المعارف الثانية .

التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جَدَّ علماء القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها!

ويُعْزَى إلى «بيكُن» على العموم، أنه أول من قام بالتجربة والترصد - اللذَيْن هما ركن المناهج العلمية الحديثة - مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعْتَرَف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم. وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب، ولا سيما هَنْبُولدُ، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير: أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، قال: «إن العرب ارْتَقَوْا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبًا».

وقال مسيو سيديُّو: «إن أهمَّ ما اتصفت به مدرسة بغداد في البُداءة هو: رُوحُها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقًا مؤديًا إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدم التسليم بما يَثْبُت بغير التجربة: مبادئ قال بها أساتذة من العرب. وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنْهَاج المُجْدي الذي استعان بها علماء القرون الحديثة، بعد زمن طويل، للوصول إلى أروع الاكتشافات».

قام منْهَاجُ العرب على التجربة والترصد، وسارت أوربة في القرون الوسطى على درس الكتب، والاقتصار على تكرار رأي المعلِّم، والفَرْقُ بين النَّهْجَيْن أساسيٌّ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفَرْق.

واختبر العرب الأمور وجرَّبوها، وكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم، وظَلُّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً، قال: دُولَنْبر في كتابه «تاريخ علم الفلك»: «تَعُدُّ راصدَيْن أو ثلاثة بين الأغارقة، وتَعُدُّ عددًا كبيرًا من الرُّصَّاد بين العرب». وأما في الكيمياء فلا تَجدُ مُجَرِّبًا يونانيًا، مع أن المُجَرِّبين من العرب فيها يُعَدُّون بالمئات.

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقةً وإبداعًا لا يُنْتَظَر مثلها من رجلٍ

تَعَوَّدَ درسَ الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التى كان يتعذر قيامها على التجربة .

ونشأ عن منْهاج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة، وسترى من مباحثنا في أعمال العرب العلمية: أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات: ما يزيد على ماحقَّقَه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيراً. وكان تُراث اليونان العلميُّ قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى العرب حَوَّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقاه ورثتهم مخلوقًا خلقًا آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كذلك، بما أقاموا من جامعات، وما ألفوا من كتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية. وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير: أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدَّة قرون، وأننا لم نطَّلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب، وأَن التعليم في جامعاتنا لم يَسْتَغْن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا في الأزمنة الحاضرة(١).

وتحدث عن الاكتشافات الكيماوية، فقال:

ويظهر لنا مدى اكتشافات العرب الكيمياوية، من كَثْرَة ما كان مجهولاً قبلهم من المركّبات التي ذكروها في مؤلفاتهم الطبية، وابتدع العرب فنَّ الصيدلة، وتبدو لنا معارفهم في الكيمياء الصناعية من حِذْقهم لفنِّ الصِّباغة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ ودباغة الجلود، إلخ(٢).

التطبيقات العلمية والصناعية:

ثم تحدث «لوبون» عن العلوم التطبيقية ـ الاكتشاف ـ في حضارة العرب، فقال:

---

(١) انظر: حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر: ٤٣٥ ـ ٤٣٧ .

(٢) انظر: حضارة العرب: ٤٧٧ .

«لم يُهمل العرب أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية، وكان لصناعات العرب تَفَوُّقٌ عظيم بفضل معارفهم العلمية، ونعلم ما أدت إليه صناعاتهم من النتائج، وإن جَهِلْنا أكثر طرقها، فنَعْرف، مثلا: أنهم كانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم كانوا ماهرين في الدِّباغة، وفي فَنِّ تسْقيَة الفولاذ، كما تشهد بذلك نصال طُلَيْطلَة، وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وجلودهم وورقهم شهرة عالمية، وأنه لم يَسْبقهم أحد في كثير من فروع الصناعة إلى عصرهم.

ونرى ـ بين اختراعات العرب ـ ما لا يجوز الاكتفاء بذكره لأهميته، كاختراعهم للبارود مثلاً . . . وأفاض في القول في سبق العرب باختراع البارود[١].

العلوم الطبية:

وتحدث الأستاذ لوبون عن «العلوم الطبية» في «حضارة العرب»، وإن شئت قلت: «الحضارة الإسلامية» فقال:

«يعد الطب والفلك والرياضيات والكيمياء أهم العلوم التي عُنِيَ بها العرب، وأتمَّ العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وتُرْجمَت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوربة، ولم يتلف قسم كبير منها كما أصاب كتبهم الأخرى».

وذكر آثار العرب الطبية فقال:

عدد المؤلفين من أطباء العرب كبير إلى الغاية، وخَصَّص ابن أبي أُصيبعة مجلداً من كتابه لتراجم أطباء العرب، فنكتفي بذكر من اشتهر منهم. وهنا ذكر «لوبون» شيئا عن كل من: الرازي، ومعاصره عليّ بن العباس، وابن سينا أشهر أطباء العرب جميعًا[٢].

ولا حاجة بنا لنقل هذا الكلام ـ على ما فيه من إنصاف ـ لأنه بات معروفا لكل الدارسين.

---

(١) انظر: حضارة العرب: ٤٧٧.

(٢) انظر: حضارة العرب: ٤٨٨ وما بعدها.

تراثنا العلمي والأدبي الذي عدت عليه العوادي:

ولقد أنتجت الحضارة الإسلامية: كمّا هائلاً من الكتب في مختلف صنوف العلوم والآداب والفنون. ولا يكاد يوجد فرع من العلم إلا صنف فيه مصنف، وكتب فيه كاتب. بل مصنفون وكاتبون.

وبعض هذه المصنفات: رسائل صغيرة الحجم، وبعضها كتب متوسطة، وبعضها موسوعات في بابها.

وسر ذلك: أن الإسلام يَعُدّ ما خلفه الإنسان من علم يفيد الناس في أي جانب من جوانب الدين أو الدنيا: امتداداً لعمله، يبقى له أجره بعد موته، ما دام الناس ينتفعون به، فهو يضيف إلى عمر المرء أعماراً أخرى، بمقدار بقاء ما تركه منتفعاً به. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

ويدخل في هذا كل من أسهم بنصيب في إيصال هذا العلم إلى الناس، مثل «النسخ» أي الكتابة باليد للمؤلفات، قبل عصر الطباعة. ومثل إقامة المكتبات لحفظ الكتب، وتسهيل قراءتها والانتفاع بها لطلاب العلم.

وعرفت في العالم الإسلامي مكتبات تضم عشرات الألوف ومئات الألوف من الكتب، في بغداد ودمشق والقاهرة واليمن والمغرب والأندلس ونيسابور وخراسان وسمرقند وبلاد ما وراء النهر وغيرها.

وكلها يدل على أن هذه الأمة كانت هي الأمة الأولى في العالم كله لعدة قرون. كانت هي الرائدة والمعلمة والقدوة.

---

(١) رواه مسلم، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي والنسائي كما في صحيح الجامع الصغير (٧٩٣).

ومما تحزن لـه القلوب، وتبكي عليه الأعين: ما أصاب مكتبات المسلمين الكبرى من دمار في نكبة بغداد وغيرها من المدن، حين غزاها التتار، وخربوا كل شيء، ولم يكونوا يقيمون للعلوم والمعارف أي وزن، فألقوا كتب الحضارة الإسلامية خلال القرون في نهر دجلة، واسودّ النهر من كثرة ما أريق من مداد، وحرقوا ما حرقوا من تراث، ولا يعرف قيمتها إلا العالمون.

ومثل ذلك: نكبة المسلمين بالأندلس، التي ظل المسلمون فيها نحو ثمانية قرون، وأقاموا فيها حضارة عالية الذرا. تتلمذت عليها أوربا، واقتبست من أنوارها، يوم كانت لا ترى الضوء إلا من سم الخياط.

ومن قرأ الكتب المؤلفة في العلوم والتخصصات المختلفة: أدرك قيمة ما أسهم به المسلمون في تاريخ العلم والحضارة، مثل الفهرست لابن النديم، وكشف الظنون في أسماء العلوم والفنون، وتكملته «هداية العارفين».

ما بقي من تراث المسلمين في مكتبات العالم:

على أن ما بقي من هذا التراث الذي ضاع منه ما ضاع: يشير إلى مجد هذه الأمة وعظمتها، واتساع حضارتها، وتنوع معارفها وثقافتها.

ومن قرأ كتاب «تاريخ الأدب العربي» للمؤرخ الألماني المعروف «بروكلمان» وإشاراته إلى كتب شتى في مكتبات العالم: عرف ذلك بيقين. وأهم منه ما كتبه العالم المؤرخ البحاثة المسلم الأستاذ فؤاد سزكين في كتابه القيم «تاريخ التراث العربي» الذي استدرك به على بروكلمان وغيره، وصحح أغلاطًا، وأضاف إضافات أصيلة وقيمة(١)، حتى استحق أن يحصل على جائزة الملك فيصل العالمية من أجل كتابه الكبير. وقد صدر في أحد عشر مجلداً، ونشرته جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض.

(١) كتبه في الأصل بالألمانية، ونقله إلى العربية د. محمود فهمي حجازي، وراجعة د. عرفة مصطفى، ود. سعيد عبد الرحيم.

وينبغي التركيز هنا على الجزء الذي جعل موضوعه: مجموعات المخطوطات العربية في مكتبات العالم.

كما أن مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي في العاصمة الأردنية عمّان، قد أضافت إلى هذه الجهود الفردية المتميزة: جهداً جماعيّا يتمثل في إصدار فهارس للتراث الإسلامي أكثر استيعابا وشمولاً. وقد طبعت منه عدة مجلدات طبعة أولى، ولا يزال العمل مستمراّ.

فضل العرب والإسلام على النهضة الأوربية:

وفضل العرب والإسلام على النهضة الأوربية، وتأثير الحضارة الإسلامية - بمناهجها ومدارسها وجامعاتها وعلمائها ومراجعها - في إيقاظ الغرب، وتحريكه للنهوض والاقتباس: أصبح أمرا معروفا ومدروسا، ومقررا، سبق الغربيون بإثباته وتقريره قبل العرب والمسلمين.

صنفت في ذلك كتب كثيرة، اشتهر عدد منها على الأقل لدى الباحثين، منها: كتاب «حضارة العرب» لغوستاف لوبون، وكتاب «بناء الإنسانية» لبيرفولت، وكتاب «النزاع بين العلم والدين» لدرايبر، وكتاب «تاريخ العلم» لجورج سارتون. وكتاب «شمس الله تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة.

كما كتب بعض العرب في هذا الجانب أيضا، منهم الأستاذ عباس العقاد في كتابه «أثر العرب في الحضارة الغربية» وكتاب الأستاذ جلال مظهر «حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي»، ومن ذلك: الدراسة القيمة التي أعدت بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، وعنوانها: «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية» وقدم لها الأستاذ الكبير محمد خلف الله أحمد، بمقدمة تحليلية وتلخيصية رائعة، يحسن بنا أن نقتبس سطورا منها، لقوة دلالتها.

قال الأستاذ خلف الله:

«وموضوع أثر الحضارة الإسلامية في ثقافة الغرب ومدنيته: موضوع واسع متشعب النواحي، احتل كثيرا من دراسات العلماء المستشرقين، منذ أواخر القرن الماضي. ومن الحق أن نقرر أنهم عبَّدوا طرقه ومناهجه، وأن جهودهم فيه قد تنوعت: فكان منها الفردية التي تناولت موضوعا محدودًا، أو ظاهرة، أو مرحلة، أو علما من أعلام الفكر: كالبحث في المؤثرات الإسلامية في «الكوميديا الإلهية» لدانتي، أو في أثر الموشحة العربية الأندلسية في الشعر الغنائي الأوربي، أو تأثير آراء «ابن سينا» في الفلسفة الغربية في أوائل عصر الإحياء، أو التاريخ للعلم العربي ومكانه في تطور العلم العالمي. أو تصوير النهضة العربية الإسلامية ومنجزاتها في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. وكان منها الجماعية التي تعاونت فيها طائفة من الباحثين على دراسة تراث الإسلام في ميادينه الكبرى، وبيان مسالكه إلى الفكر الأوربي. وإلى هذه الجهود الغربية تتكرر الإشارة في فصول هذا الكتاب، والتنويه بقيمته.

وقد شهدت الخمسون سنة الأخيرة منذ بدء النهضة الجامعية في البلاد العربية مشاركة جادة من علماء الشرق. في هذا الميدان ظهرت بعض ثمارها ـ في مؤتمرات المستشرقين والمؤتمرات العلمية الدولية، والندوات العالمية في الثقافة الإسلامية ـ في طائفة من البحوث التي كشفت عن جديد من النصوص والوثائق ونطاق التأثير والتأثر بين الفكرين الإسلامي والغربي، كما أخرجت المطبعة العربية دراسات في الموضوع تناول بعضها منجزات الحضارة الإسلامية ومقوماتها، وتناول بعضها آثار التراث الإسلامي في الحضارة الغربية.

ومن حسن الحظ أنه قد انقضت ـ أو كادت ـ تلك المرحلة التي كانت معالجة هذا الموضوع فيها يشوبها أحيانا شيء من التحامل والتعصب من جهة، والرغبة في الدفاع عن الكيان وعن التراث القومي من جهة أخرى.

وحلت محلها مرحلة من العمل المتواصل في إحكام روابط التفاهم العالمي. وفي اتخاذ دراسة الحضارات البشرية سبيلا إلى إبراز الوحدة الإنسانية، ودافعا إلى التعاون الحقيقي في إزالة الخصومات، وتخفيف حدة الأطماع، والسعي إلى إقرار السلام بين الأمم على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها وثقافاتها، ومنبها إلى أن الازدهار الحضاري الذي تنعم به بعض دول العالم في العصر الحديث، إنما هو حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى، التي تركت طابعها على تاريخ البشرية وتقدمها، ومن حق الأمم جميعا أن تشارك في خيراته، وتفيد من مجالات تطبيقه، وإن التاريخ الحضاري لبني الإنسان قائم على التعاون والأخذ والعطاء، فلا محل فيه لشعور بالاستعلاء من جانب المعير، أو بالغضاضة والنقص من جانب المستعير.

ولعل هذا المعنى هو الذي أشار البروفيسور كويلر يونج إلى بعض جوانبه حين قال في خاتمة بحث له عن «أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي»[(١)]:

«وبعد: فهذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدَّيْن الثقافي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه الألف سنة - نسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم،

---

(١) . . . بحث مطول بعنوان: «The Cultural Contribution of Islam to Christemdom» للبروفيسور T.CUYLER الأستاذ (حينذاك) بقسم اللغات الشرقية وآدابها ورئيسه الآن بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، قدمه للندوة العالمية عن الثقافة الإسلامية، التي عقدت في برنستون وواشنطن سنة ١٩٥٣ بدعوة من جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس الأمريكي واشترك فيها عدد من علماء الشرق الإسلامي، وعلماء الغرب المعنيين بالدراسات الإسلامية. وقد نشرت ترجمة ذلك البحث مع مجموعة البحوث التي قدمت للندوة في كتاب باللغة العربية (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة- بحوث ودراسات إسلامية». محمد خلف الله أحمد - القاهرة ١٩٥٥). وقد عقدت الحلقة الثانية من الندوة في لاهور - باكستان سنة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ وتناولت بعض بحوثها أثر الإسلام في نهضة الغرب ونشرت البحوث في كتاب باللغات الأردية والعربية والإنجليزية INTERNATIONAL COLLOQUIUM ON ISLAMIC CULTURE -LAHORE ١٩٦٠.

وفلسفة الحياة الإنسانية، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام، حتى استطاعت أوربا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه، كل هذا يجب أن يمازج الروح التي نتجه بها - نحن المسيحيين - نحو الإسلام تحمل إليه هدايانا الثقافية والروحية، فلنذهب إليه - إذن - في شعور بالمساواة نؤدي الدين القديم.

ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ما علينا بربحه، ولكننا سنكون مسيحيين حقا إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب واعتراف بالجميل».

كان هذا الروح الجديد من البواعث الأساسية للاقتراح الذي أقره المؤتمر العام لليونسكو في دروته الثانية عشرة (نوفمبر - ديسمبر ١٩٦٢) وهو أن تتبنى الشعبة القومية لليونسكو في الجمهورية العربية المتحدة مشروع دراسة لأثر الغرب والحضارة الإسلامية في النهضة الأوربية، تعد باللغة العربية ثم تترجم إلى بعض اللغات الكبرى.

وقد دعت الشعبة لجنة من علماء الجمهورية في مختلف ميادين المعرفة في الأدب والعلم والفلسفة والفن لوضع خطة المشروع وتنفيذه. وحددت اللجنة الهدف الرئيسي للمشروع بأنه الدراسة العلمية لنواحي الاتصال بين نتاج الحضارة العربية الإسلامية وأوربا في أوائل عصر النهضة في مرحلة تمتد من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي، وما تؤيده الشواهد والأدلة من نواحي تأثر الفكر الأوربي في ذلك العصر بمنجزات الفكر الإسلامي.

واختارت اللجنة من ميادين هذا التلاقي تسعة هي: الأدب، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والطب، والجغرافيا، والمعارف الملاحية، والتاريخ، والعمارة والتحف الفنية، والموسيقى، وعهدت بكل قسم إلى من يقوم به من علمائه.

وسارت معالجة لهذه الميادين على النهج المقترح، فعرض الباحثون - كل في

موضوعه ـ لمنجزات الحضارة العربية الإسلامية في الموضوع، وللطريقة التي وصل بها ما وصل من تلك المنجزات إلى أوربا، ومواطن تأثر العلماء والمفكرين الأوربيين بها ـ إن وجدت ـ في أوائل عصر النهضة، ولتقييم ذلك في ضوء البحث التاريخي المقارن.

وكان من الطبيعي أن تتكرر الإشارات في البحوث إلى معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا ـ وإن كان كل باحث قد نظر إليها من زاوية موضوعه ـ وأن يسجل الباحثون العرب في الموضوع نتائج دراسات زملائهم المستشرقين فيه، موجهين اهتمامهم إلى ما جد من بحوث، ونشر في السنين الأخيرة من نصوص ومخطوطات، على يد الباحثين المختصين من شرقيين ومستشرقين، تلقي على الموضوع أضواء جديدة»[1] أ. هـ

ولكن فضل الحضارة العربية والإسلامية لم يقف عند هذا الجانب العلمي والتقني وما يتعلق بذلك فحسب، بل تعدى إلى جوانب الحياة كلها: إلى الدين والعقيدة والأخلاقيات وغيرها، فقد أثبت الباحثون أن حركة الإصلاح الديني تأثرت بالتوحيد الإسلامي[2] وخلو الإسلام من الكهنوت الصارم في الكاثوليكية، وأن الفرد المسلم حر في عبادته وصلته بربه، ليس بينه وبين الله سماسرة يحتكرون حق الوساطة بين الله وعباده. وقد رأوا بأعينهم الحياة الإسلامية حياة متوازنة، تتصل فيها الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والمادة بالروح، بلا انفصال ولا خصام ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

استفاد الأوربيون من ذلك عندما احتكوا بالمسلمين في الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وغيرها، هذه الحروب التي صدمتهم و أيقظتهم من سباتهم، وحركتهم من جمودهم الطويل. فكان ذلك من أبرز أسباب انبعاث نهضتهم.

---

(١) انظر: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ـ مقدمة د. محمد خلف الله أحمد. ص٤ – ٧.

(٢) انظر: أثر الإسلام في إصلاح المسيحية. للشيخ أمين الخولي.

(٣)

تاريخ له مآثر ومفاخر

١ـ عمق الجانب الرباني.

٢ـ وضوح المعاني الإنسانية.

٣ـ رسوخ القيم الأخلاقية.

٤ـ شيوع التسامح الديني.

٥ـ قدرة الإسلام على الانتشار السلمي.

٦ـ القدرة على تجاوز المحن الكبرى.

من مآثر تاريخنا

من قرأ تاريخنا، قراءة بصيرة ومستوعبة، متحرراً من رواسب المواريث التي كدرت صفو هذا التاريخ، والتي تضغط على عقله في النظر إلى التاريخ. . . ومتحرراً كذلك من الأفكار الوافدة التي غزت عقول كثير من أبنائنا، مما أنتجته أقلام المبشرين والمستشرقين المتحيزين: رأى أن هذا التاريخ ـ الذي لا يخلو من أخطاء وخطايا ككل تواريخ البشر ـ يتميز عن غيره من تواريخ الأمم ذات الحضارات، بجملة من المآثر والمزايا، لم تتوافر كلها لتاريخ أمة أخرى ولحضارتها.

ومن حقنا ـ بل من واجبنا ـ أن نلقي شعاعًا على هذه المآثر والمناقب، حتى تتجلى للقارئ الذي يريد أن يعرف هذا التاريخ على حقيقته، بعيداً عن إفراط المتعصبين له، وعن تفريط المتعصبين عليه، بل يريد الحكم عليه بالقسط والعدل، كما علمنا الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ (الأنعام: ١٥٢). ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ (المائدة: ٨).

وعلينا أن نكون كما وجّهنا الله تعالى: ﴿**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ (الرحمن: ٨، ٩).

وهذا هو المنهج الحق في تناول كل الأمور: لا طغيان ولا إخسار. وسنركز هنا على عدد من المآثر البارزة في تاريخنا، لنخص كلا منها بحديث، وهي:

١ ـ عمق الجانب الرباني.

٢ ـ وضوح المعاني الإنسانية .

٣ ـ رسوخ القيم الأخلاقية .

٤ ـ شيوع التسامح الديني .

٥ ـ قدرة الإسلام على الانتشار السلمي .

٦ ـ القدرة على تجاوز المحن الكبرى .

١ ـ عمق الجانب الرباني في تاريخنا

لا يخفى على أي مؤرخ لحضارتنا: أنها تتميز عن كثير من الحضارات التي سبقتها والتي لحقتها بهذه الخصيصة، وهي: امتزاجها بالمعاني الربانية في كل جوانبها امتزاج الجسم بالروح.

ومعنى الربانية فيها: أن مصدرها رباني، وأن غاياتها ربانية.

فالأمة التي صنعت هذا التاريخ، وأنشأت هذه الحضارة: أمة «مجعولة» لم تنبت في بريِّة، كما نبتت نباتات الصحراء، التي يسميها بعض الناس: نباتًا شيطانيًا، أيْ لم يغرسه غارس، ولم يزرعه زارع. أما هذه الأمة فهي أمة أنبتها الله وغرسها، و«أخرجها للناس»، و«جعلها أمة» وسطا، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠).

أجل، صنعت هذه الأمة تعاليم الوحي الإلهي، المستمد من كتاب الله تعالى (القرآن)ومن سنة النبي محمد، الذي أنزل عليه القرآن ليبلغه للناس ويبينه نظريا وعمليا. ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (النحل: ٤٤).

ومن ناحية أخرى، فإن غايات هذه الحضارة القصوى: غايات ربانية، تتمثل في

ابتغاء مرضاة الله تعالى، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فكل مسلم يضع نصب عينيه: أن يكون مخلصًا لله تعالى، وأن يرضى عنه، فيفوز بمثوبته، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

فلا عجب أن نجد البواعث الدينية، والأهداف الدينية الربانية، هي المحركات الأولية، والموجهات الأساسية في هذه الحضارة، بحيث تكاد تقرأ «اسم الله» وراء كل مظهر من مظاهر هذه الحضارة. وقد علمها كتابها في أول آية نزلت منه على قلب رسولها الكريم، أمرين أساسيين:

أولهما: القراءة، والقراءة هي مفتاح العلم، والعلم هو أول مقومات الحضارة.

وثانيهما: أن تكون القراءة باسم الله، خالق الكون، وخالق الإنسان، ومربيه الأكرم، ومعلّمه ما لم يكن يعلم.

وذلك قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ ـ ٥).

ومن هنا تعلم المسلمون ما علمهم القرآن: أن يبدءوا أعمالهم كلها باسم الله، فكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر. ولهذا بدئت كل سور القرآن بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد قرءوا في قرآنهم: أن نوحا عليه السلام حين صنع سفينته قال للمؤمنين معه: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

وأن سليمان عليه السلام، حين كتب كتابه إلى ملكة سبأ، بدأه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٠، ٣١).

ومن هنا قامت حضارتنا المجيدة بدوافع من الدين، ولأهداف تتعلق بنصرة الدين، وخدمة الدين، وابتغاء مرضاة رب العالمين.

وبهذا رسخت المعاني الربانية، والقيم الإيمانية، في الحياة الإسلامية، وبالتالي في الحضارة الإسلامية، فاتصلت فيها الأرض بالسماء، واتصلت الدنيا بالآخرة، واتصلت المادة بالروح، واتصل المخلوق بالخالق.

أثر الدين في حضارتنا:

والمؤرخون لحضارتنا من الغربيين أنفسهم يعلمون، بل يلمسون بوضوح: أثر الدين في تأسيس هذه الحضارة، وفي دفعها إلى الأمام، وفي تعميق جذورها، وإمدادها بكل ما يعلي منارها، ويقرب ثمارها.

في كتاب المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي المعروف غوستان لوبون «حضارة العرب»، نقرأ فيما كتبه عن «تأثير الدين في المسلمين» في الفصل الخامس من كتابه هذه الفقرة المعبرة:

تكلمنا فيما تقدم عن أحكام القرآن كما علَّمه محمد منذ ثلاثة عشرَ قرنًا، ولكن القرآن دستورٌ مكتوب، ويوجد فَرْقٌ بين التعاليم المكتوبة والعمل بها في الغالب، وإذا ما أراد الإنسان أن يعلم أهمية هذه التعاليم؛ وجب عليه أن يدرس درجة تأثيرها في الحياة. وحدود هذا التأثير هو الذي تُهمُ معرفته إذن، وهذا لا نستطيعه إلا بالدخول فيما لم نأته حتى الآن من التفصيل:

تأثيرُ دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه، كما كانت تفعل منذ ثلاثةَ عشرَ قرنًا، أجلْ، قد تجد بين المسلمين عددًا قليلاً من الزنادقة والأخلياء، ولكنك لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية، كالصلاة في المساجد، وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة، مع ما في هذه الأحكام من صرامة، لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به بعض النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسية وإفريقية.

ومن ذلك: أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مُقرّنين في الأصفاد، ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية، مستخفين بأقسى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبيّ، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة، ليسجدوا لله القهار ويعبدوه!

وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق - التي لم يدرك الأوربيون أمرها إلاّ قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين ذي التأثير الضئيل فينا: نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يُؤثّر في نفوسهم، ولولا الدين ما حُرّك ساكنُ المصريين منذ الثورة الحديثة التي ضَرّجت مصر بالدماء...

وذكر لوبون فيما ذكره نقطة مهمة ,وهي: أن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقًا! فعلى الراصد المؤمن أو الملحد: أن يحترم هذا الإيمان العميق، الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير[1]. أهـ.

وقد أثبت التاريخ الموثق: أن اعتصام المسلمين بدينهم كان هو طوق النجاة لهم في الشدائد والأزمات الكبرى في تاريخهم، كما أثبت أن «المد والجزر» في تاريخ الإسلام الطويل يرتبط بمدى قربهم من الالتزام الصادق بالإسلام أو بعدهم عنه، كما أثبت ذلك العلامة أبو الحسن الندوي في بحث قيم له[2].

كما أثبت التاريخ الحديث: أن كل حركات التحرير الحديثة لمقاومة الاستعمار، وطرده من بلاد المسلمين، كانت في أصلها حركات دينية، والذين حركوها أو قادوها في غالب الأمر، كانوا الزعماء الدينيين، كما أثبت ذلك المؤرخ اليهودي الأمريكي المعروف برنارد لويس في كتابه «الغرب والشرق الأوسط»[3].

---

(١) انظر: حضارة العرب: ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) بعنوان «المد والجزر في تاريخ الإسلام» نشر ضمن مجموعة رسائل للندوي تحت عنوان «إلى الإسلام من جديد».

(٣) نقله إلى العربية الدكتور نبيل صبحي.

تعانق الدين والعلم في تاريخنا الإسلامي:

والدارس لحضارتنا الإسلامية، ولتاريخنا الإسلامي، بعمق: يجد فيه مآثر ومزايا لا توجد في غيره من تواريخ الأمم والحضارات، وكلها من آثار الإسلام وتعاليمه، ونضحه على الأمة التي صنعت هذا التاريخ.

من هذه المآثر والمناقب المشهورة: أن العلم والدين في حضارتنا يتعانقان، ولا يتصارعان، ويتفقان ولا يختلفان. فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين. ولهذا لم يقم عندنا ما قام عند أمم أخرى - مثل الأمم الأوربية في عصورهم الوسطى - من صراع تأججت ناره بين العلم والدين، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين الشريعة والحكمة.

لقد عرف تاريخ أوربا هذه المعارك المشتعلة بين العلم والدين، وبعبارة أخرى: بين رجال العلم والفكر من رواد الابتكار والاختراع في مجالات العلم المختلفة من ناحية، وبين رجال الكنيسة الغربية الممثلين للدين والمتكلمين باسمه من ناحية أخرى.. فقد تبنوا نظريات معينة تلقوها من فلسفة اليونان، أضفوا عليها لونا من القداسة والعصمة - وهي فكر بشري محض - ولم يسمحوا لأحد أن يخالفها، أو يخرج عن إطارها، ومن فعل ذلك استحق لعنة الله، وحكم عليه بالإلحاد والهرطقة، والمروق من الدين.

وأنشئت «محاكم التفتيش» الرهيبة، لتلاحق هؤلاء الذين اجترءوا على حرمة الدين، واستباحوا الحمى المحرم، وخرجوا عن النطاق المرسوم، فقرروا مثلا أن الأرض كروية، وليست مبسوطة.

هذا في الوقت الذي كان فيه طلاب العلم من المسلمين يقرءون في كتب التفسير مثل تفسير الفخر الرازي، وفي كتب «علم الكلام» مثل كتب الجرجاني والتفتازاني، وفي كتب «الملل والنحل» مثل كتاب ابن حزم: فكرة

كروية الأرض والتدليل عليها[1]، ولا يجدون في ذلك حرجا في الدين، ولا عنتا في الدنيا.

لقد نشأ المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي في تربة الحضارة الإسلامية، ونما وترعرع على أيدي علماء المسلمين، نظريًا وفلسفيًا، وعمليًا وتطبيقيًا. ونمت علوم الفيزياء والفلك والكيمياء والتشريح والطب والرياضيات وغيرها، نموًا حافلاً، توج بتطبيقات ناجحة، في شتى مجالات الحياة والإنسان. وكذلك نقد المسلمون المنهج الصوري القياسي الأرسطي، كما نرى ذلك في نقد ابن تيمية للمنطق نقدًا علميّا رصينا[2].

وعن الحضارة الإسلامية أخذ الأوربيون المنهج التجريبي. روجر بيكون، وفرنسيس بيكون وتلاميذهما، إنما تتلمذوا على المسلمين وعلومهم وحضارتهم، واقتبسوا منهم، ونقلوا عنهم. وهذا ما اعترف به المؤرخون والباحثون المنصفون من الغربيين، كما نقلنا من قبل.

التلاقي بين النقل والعقل:

ومن المؤسف: أن بعض الكتاب العلمانيين أوهموا في كتاباتهم: أن البيئة الدينية لا تهيئ لمناخ علمي مزدهر، وذلك لما افترضوه في زعمهم من وجود صراع

---

(١) انظر على سبيل المثال: ما كتبه ابن حزم في كتابه: «الفصل في الملل والنحل» تحت عنوان: «مطلب كروية الأرض» ذكر فيه: أن أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الأمانة بالعلم، لم ينكروا تكوير الأرض، ولم يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها. قال عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥). وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض. ومضى ابن حزم يدلل على كروية الأرض بالنقل والعقل. انظر: الفصل: (٢ / ٢٤١) وما بعدها. طبعة دار عكاظ. جدة.

(٢) انظر تحليلا علميا مفصلاً لهذا النقد في كتاب د / على سامي النشار «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» طبعة دار المعاف الثانية من صـ ١٩٠ إلى صـ ٢٠٢.

بين النقل والعقل، أو بين النص الإلهي والاجتهاد البشري، وهذا يصدق في غير الإسلام والمسلمين.

أما بالنسبة لهما، فهو بالقطع غير صحيح، بل ترده النصوص، ويرده التاريخ، ويرده الواقع؛ فالعقل هو المخاطب بنص الشارع، والمكلف بفهمه والعمل به، والاجتهاد في دلالته، وملء الفراغ فيما لا نص فيه. وقد ترك النقل أو الوحي للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول، ولم يحجر عليه في ذلك، بل أمره وحرضه ودعاه للبحث الحر والإبداع.

حتى إن علماء المسلمين عَدُّوا تعلم العلوم الكونية من الطب والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها فرض كفاية على الأمة، إذا قام به عدد كاف يلبي الحاجة في كمه ونوعه: رفع عنها الإثم، وإن لم يقم أثمت الأمة كلها. وقد ذكرنا أنه لم يقم في حضارتنا صراع قط بين العلم والدين، أو بين الوحي والعقل، كما قام عند غيرنا.

والمحققون من علماء الأمة رأوا الوحي والعقل هاديين للخلق إلى الحق. يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة»:

«لله عز وجل إلى خلقه رسولان، أحدهما: من الباطن وهو العقل، والثاني: من الظاهر وهو الرسول، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدم الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجّة بقوله، ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها. فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما كما قال الله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (النور: ٣٥)[١]. أهـ

---

(١) النور: ٣٥، وانظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص ٢٠٧ بتحقيق د. أبو اليزيد العجمي، طبع دار الصحوة بالقاهرة.

ويؤكد ذلك معاصر الراغب الإمام أبو حامد الغزالي في عدد من كتبه. ففي مقدمة «المستصفى» يَعُدّ العقل: القاضي الذي لا يُعزل ولا يبدّل، والشرع: الشاهد المزكّى المعدَّل، ويجعل العقل مركب الديانة، وحامل الأمانة[1].

وفي «الإحياء» يقرر: أن لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع «فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء». وينكر على من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن. وهو في رأيه ظن صادر عن عمًى في عين البصيرة[2].

وفي «الاقتصاد في الاعتقاد» يصف عصابة الحق وأهل السنة أنهم الذين وفّقوا بين مقتضيات الشرائع، وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول، والحق المعقول[3].

وفي كتاب «معارج القدس» الذي ينسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات:

«اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل. فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ».

وأيضاً، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان[4].

---

(١) المستصفى: ١/ ٣.

(٢) الإحياء: ٣/ ١٧، طبع دار المعرفة، بيروت. ويلاحظ أن الراغب في «الذريعة» يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر ص ٢٠٨.

(٣) من مقدمة كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي.

(٤) «معارج القدس» ص ٥٧، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت. وانظر تعليقنا عليه في كتابنا «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» ص ٤١.

ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيراً ممن نبغوا في المجالين: العلوم الشرعية، التي تستفاد من الوحي والعلوم العقلية، التي تستفاد من العقل. ومن هذه العلوم العقلية: العلوم الطبيعية، (من الفلك والفيزياء والكيمياء وغيرها) والرياضية، والطبية.

فجابر بن حيان يسمى جابراً الصوفي.

والخوارزمي مبتكر علم الجبر، إنما وصل إليه، وهو يؤلف رسالة في الوصايا والفرائض (أي علم الميراث). وقارئ الرسالة يجد القسم الأول منها: فقهيًا بحتًا، والقسم الثاني: رياضيًا بحتًا.

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب «الكليات» في الطب، الذي تتلمذت عليه أوربا عدة قرون: هو نفسه صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، وهو من أعظم ما كتب فيه، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكية.

والفخر الرازي صاحب «التفسير الكبير» والكتب الشهيرة في أصول الدين، وأصول الفقه، وهو من فقهاء الشافعية، ومتكلمي الأشعرية: كان من أشهر الأطباء في زمنه، وقال الذين ترجموا له: لم تكن شهرته في علوم الطب تقل عن شهرته في علوم الدين.

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية هو: أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي في «طبقاته»، وترجم لهم الذهبي وغيره من مؤرخي الأعلام في الإسلام[1].

---

(١) انظر في تراجم هؤلاء: سير أعلام النبلاء للذهبي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، «الأعلام» للزركلي.

٢ـ وضوح المعاني الإنسانية في تاريخنا

ومن أبرز المعالم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان، وفطرة الإنسان، وحرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولمن يعول.

وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ: يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وأكد القرآن مع كتب السماء: ﴿ **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة: ٣٢).

كما أكد الإسلام: أن البشر جميعًا سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا إقليم ولا طبقة، وإنما يتفاضلون عند الله بالتقوى. والتقوى محلها القلب. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (الحجرات: ١٣).

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر جميعا: بيضًا وسودًا، عربًا وعجمًا، حكامًا ومحكومين، أغنياء وفقراء، شرفاء ووضعاء، مسلمين وغير مسلمين.

رأينا الرسول الأعظم يسوي بينه وبين أصحابه في سفره وحضره، في مظهره

وفي مخبره، حتى يأتي الرجل الغريب فلا يعرفه منهم؛ لأنه لا يتميز عنهم بشيء من زي أو مقعد أو شارة، فيقول: أيكم محمد؟

وفي إحدي الغزوات يكشف عن صدره ليقتص منه أحد أصحابه، حين كان يعدل الصفوف، فقال له: أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فمكني أستقد (أقتص) منك!

وكان مع أصحابه أول من يجوع، وآخر من يشبع، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي من أجل أوساق من شعير استلفها منه لقوت أهله.

ولم يقبل وساطة أسامة بن زيد - حبه وابن حبه - حين شفع لامرأة من قريش، سرقت، فوجب عليها الحد، وقال لأسامة: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ وايم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» متفق عليه. أعاذها الله من ذلك.

وعلى هذا الهدي مضى أصحابه، وبخاصة الخلفاء الراشدون الذين عُدَّت سنتهم امتدادًا لسنته، وهديهم مقتبسا من هديه.

فرأينا عمر بن الخطاب يسوي بين جبلة بن الأيهم - ملك غسان - ورجل من عامة الناس، حين لطمه، وهو يطوف بالكعبة، وأصر الرجل على أن يثأر لنفسه، ويلطمه كما لطمه، وحكم له عمر بذلك حين احتكما إليه، وقال لجبلة: «إما أن يلطمك وإما أن ترضيه!» قال: كيف تسوي بيننا وأنا ملك وهو سوقة؟! قال: إن الإسلام قد سوى بينكما!

ولما شكا رجل قبطي إلى عمر: أن ابن الوالي على مصر عمرو بن العاص ضرب ابن القبطي، وقال له: أنا ابن الأكرمين! استدعى أمير المؤمنين عمْرا وابنه من مصر، وأمر ابن القبطي أن يضرب ابن الوالي عدد ما ضربه من السياط، وقال له: اضرب ابن الأكرمين! ثم وجه كلمته التاريخية إلى عمرو قائلاً: يا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

والعبرة هنا في هذه القصة: أن هذا القبطي وأمثاله في عهد الرومان الذين يشاركونهم في الديانة المسيحية، كانوا يضربون ويجرحون ويهانون ويسلبون، ولا يحركون ساكنا، أو يرفعون رأسًا، أو يجأرون بشكوى، لأن من يشكون إليه أظلم ممن يشكونه، فما الذي جعلهم يشعرون بقسوة ظلم هيّن وقع على واحد منهم، وكلفه أن يذهب من الفسطاط إلى المدينة، وهي رحلة تستغرق نحو شهر ذهابا، وشهر إيابا، ليشكو إلى خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين؟

إنها الكرامة التي شعروا بها في ظل الإسلام، والإيمان بأن هناك عدلاً حقيقيّا في هذا الدين، وأن هذا الدين لا يفرق في عدالته بين مسلم وغير مسلم، ولا بين راع ورعية.

ولم تَضِع رحلة الرجل سدى، ولم يضع حقه، بل أخذه على الملإ، وسمع هذه الكلمة التي قالها عمر على البديهة، وهي الآن تفتتح بها الدساتير، ومواثيق حقوق الإنسان: يولد الناس أحرارًا متساوين.

والعجب أن هذا الرجل لم يسلم، برغم ما رأى من إنصاف الإسلام وأهله.

ومما يذكر هنا: أن القاضي الشهير شُرَيْحا: قضى على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، حين وجد درعه مع نصراني، فأنكر النصراني ذلك، وزعم أنها درعه. فلم يكن من أمير المؤمنين إلا الالتجاء إلى القضاء، فسأل القاضي شريح عليا: أعندك بينة على دعواك؟ قال: لا، فحكم للنصراني على أمير المؤمنين. ثم اعترف الرجل بأن الدرع لعلي، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وظل هذا المعنى الإنساني: المساواة بين بني البشر مرعيًا طوال التاريخ الإسلامي بصورة من الصور، حتى وجدنا بعض القضاة يحكمون على الخلفاء والأمراء إذا تحاكموا إليهم، مؤدين حق الله عليهم.

أصالة معنى البر والخير:

ومن المعاني الإنسانية العميقة والبارزة في تاريخنا الإسلامي: البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصًا الضعفاء والمحرومين منهم، أيا كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسكين، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الأب والراعي كاليتيم، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل. ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق. وقد أوصى الإسلام بهم جميعًا، كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾ (الإنسان: ٨، ٩). وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾ (البقرة: ١٧٧).

وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة، وبعضها مندوبة. وبعضها تطالب به الدولة، حتى تعاقب من امتنع عنها، بل قد تقاتله إذا كان ذا شوكة ورفض أن يؤدي حق الفقراء. وبعضها يدفعه المرء المسلم بباعث من ضميره الديني، ورجاء مثوبة ربه. بعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثلت في نظام الوقف الخيري. الذي رسخت جذوره، وبسقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره، في الحياة الإسلامية، وتميز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم.

من آثار البر والخير في تاريخنا الإسلامي:

ولقد برز أثر ذلك الخلق العظيم، والمعنى الإنساني الكريم، في معاملة المسلمين مع مخالفيهم، وسنفردها بفصل وحدها، كما تجسدت في العلاقات الاجتماعية الداخلية، فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض

بالرفق والمرحمة، وتتدفق بالبر والخير، وتجلّت هذه المشاعر والعواطف فيما عرف بنظام «الوقف الخيري» عند المسلمين.

فقد سجل التاريخ لكثير من أهل الخير والثراء من المسلمين: أنهم وقفوا ـ بدافع الرحمة التي قذفها الإيمان في قلوبهم، والرغبة في مثوبة الله لهم، وألاّ ينقطع عملهم بعد موتهم ـ أموالهم كلها أو بعضها على تعليم الجاهل، ومساعدة العالم، وإطعام الجائع، وسقاية الظمآن، وكسوة العريان، وإعانة المحروم، ومداواة المريض، وإيواء المشرد، وكفالة الأرملة واليتيم، وعلى كل غرض إنساني شريف، بل أشركوا في برّهم الحيوان مع الإنسان.

ولقد تأخذ أحدنا الدهشة ـ وهو يستعرض حجج الواقفين ـ ليرى القوم في نبل نفوسهم، ويقظة ضمائرهم، وعلوّ إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم: يتخيرون الأغراض الشريفة التي يقفون لها أموالهم، ويرجون أن تنفق في سبيل تحقيقها هذه الأموال.

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذا البر يعين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال. فإلى هذه النفوس المستشرفة نسوق هذه الأمثلة:

وقف الأواني المكسورة:

وهو وقف تشترى منه صحاف الخزف الصيني، فكل خادم كسرت آنيته، وتعرّض لغضب مخدومه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناء صحيحًا بدلاً منه. وبهذا ينجو من غضب مخدومه عليه.

وقف الكلاب الضالة:

وهو وقف في عدة جهات، ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب، استنقاذًا لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت أو الاقتناء.

وقف إعارة الحليّ في الأعراس:

وهو وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه. وبهذه يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة، ولعروسه أن تجلّى في حلّة رائقة، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتنجبر الخواطر المكسورة.

وقف الزوجات الغاضبات:

وهو وقف يؤسس من ريعه بيت، ويعد فيه الطعام والشراب، وما يحتاج إليه الساكنون، تذهب إليه الزوجة التي يقع بينها وبين زوجها نفور، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من جفاء، وتصفو النفوس، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد.

وقف مؤنس المرضى والغرباء:

وهو وقف ينفق منه على عدة مؤذنين، من كل رخيم الصوت، حسن الأداء، فيرتلون القصائد الدينية طول الليل، بحيث يرتّل كل منهم ساعة، حتى مطلع الفجر، سعيًا وراء التخفيف عن المريض، الذي ليس له من يخفف عنه، وإيناس الغريب الذي ليس له من يؤنسه.

وقف الإيحاء إلى المريض بالشفاء:

وهو وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة في المستشفيات، وهي تكليف اثنين من الممرِّضين يقفان قريبًا من المريض، بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فيرد عليه الآخر: إن الطبيب يقول: إنه على خير، فهو مرجو البرء، ولا يوجد في علّته ما يقلق أو يزعج، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام[1]!

---

(١) من بيان لوزير الأوقاف الشيخ أحمد حسن الباقوري عن الأوقاف ودورها، ألقاه في مجلس الشعب المصري.

فهذا لون من الإيحاء النفسي للمريض يقرب الشفاء، واكتساب العافية. وقد ثبت علميا: أن هذا له أثره الإيجابي في التعجيل بالشفاء بإذن الله.

وفي بلاد المغرب: عرفت أنواع أخرى من الأوقاف، مثل: الوقف على من يريد دخول «الحمامات العامة» ولا يجد أجر الحمام، فيأخذ من هذا الوقف ما ينظف به جسده، ويقضي وطره.

وفي مدينة فاس: وجد وقف على نوع من الطير، يأتي إلى فاس في موسم معين، فوفق له بعض الخيّرين ما يعينه على البقاء، ويسهل له العيش في تلك المدة من الزمن. كأنما شعر هؤلاء الخيّرون من المسلمين: أن هذا الطير المهاجر الغريب له على أهل البلد حق الضيافة والإيواء!!

وهكذا سلك الواقفون كل مسالك الخير، فلم يدعوا جانبًا من جوانب الحياة، دون أن يكون للخير نصيب فيه.

وهم بهذا إنما يصدرون عن إحساسات إنسانية عميقة، تنفذ إلى مواطن الحاجة التي تعرض للناس في كل زمان ومكان. بل هي لم تقتصر على الإنسان، حتى شملت الطير والحيوان!!

ولا شك فى أن العقيدة هي صاحبة الفضل في خلق هذه الأحاسيس الرقيقة، وإيقاظ تلك المشاعر السامية التي تنبهت لتلك الدقائق، في كل زاوية من زوايا المجتمع، وكل منحى من مناحي الحياة. ولم يكفهم أن يكون برهم مقصوراً على حياتهم القصيرة، فأرادوها صدقة جارية، وحسنة دائمة، يكتب لهم أجرها ما بقيت الحياة، وبقي الإنسان.

المؤسسات الخيرية في تاريخ المسلمين:

ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا، ووضوحها في تاريخ أمتنا: كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان والبر بالإنسان.

ويسرني أن أنقل هنا صفحات مشرقة مما كتبه الداعية الكبير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه البديع «من روائع حضارتنا» عن هذه المؤسسات ـ قال:

«كانت هذه المؤسسات نوعين: نوعا تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعا ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء. ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلمّ بأهمها:

فمن أول المؤسسات الخيرية: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي، مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال.

ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات. وسنفرد لها حديثا خاصّا إن شاء الله.

ومن المؤسسات الخيرية: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر.

ومنها: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل.

ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

ومنها: السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعًا.

ومنها: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُرْبة) وحلوى، ولا يزال عهدنا قريبًا بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق.

ومنها: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

ومنها: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون - في تلك الأيام - لخطر العطش.

ومنها: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر. ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا - أيام الهدنة - ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن، فأصبحنا عالةً على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا..

ويتبع ذلك أوقاف خاصة يُعطى رَيعها لمن يريد الجهاد، وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنةً عرضها السماوات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعًا للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق، لأقمنا من أموالنا كل يوم - لا أسبوعًا واحداً في العام - مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح

والعتاد، حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار..

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفًا لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور.

ومنها: ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

ومنها: ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

ومنها: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضًا.

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.

ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيان العزّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم!

ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّضها للخير الخالص لله عز وجل، وقد كان من مَبَرَّات صلاح الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة ـ الباقية حتى الآن في دمشق ـ ميزابًا يسيل منه الحليب، وميزابًا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف «الزبادي»[1] للأولاد الذين يكسرون

(١) جمع زبدية، وهي إناء من الفخار عادة يوضع فيه اللبن حتى يتخمر.

الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة، ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئًا.

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يُقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفًا للخيول والحيوانات العاجزة المُسنة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد، فهذه ثلاثون نوعًا من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا، فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا، يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتظالم، اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيدي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعًا متراصًا، ينعم فيه الناس جميعًا بالأمن والخير والكرامة والسلام؟»[1].

---

(١) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي (١٧٨ ـ ١٨٢).

٣ـ رسوخ القيم الأخلاقية في تاريخنا

ومن أظهر المعالم في تاريخنا الإسلامي وفي حضارتنا الإسلامية: بروز العنصر الأخلاقي فيه، ورسوخ القيم الأخلاقية الأصلية: من الصدق والأمانة، والوفاء، والعدل، والإحسان، والرحمة، والعفاف، والشجاعة، والسخاء، والعزة والتواضع، والحياء، وغير ذلك من الأخلاق، التي عَدَّها الإسلام مجسدة للإيمان، وعدها من خصال المؤمنين، كما عَدَّ الرذائل المضادة لها من آيات النفاق، وخصال المنافقين.

جاء في وصف المؤمنين في القرآن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ١ ـ ٨).

وجاء في وصف الكفار: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النحل: ١٠٥).

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال: ٥٦).

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١ ـ ٣).

ووصف القرآن المنافقين بكل الرذائل الأخلاقية من الكذب والخيانة والغدر والتلون والخداع والذبذبة وغيرها .

وفي الأحاديث الصحاح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان»[1] . «أربع من كن فيه : كان منافقًا خالصًا . ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»[2] .

والعبادات الشعائرية الكبرى في الإسلام التي تعد في نظر المسلمين عامة : أركان الإسلام ومبانيه العظام ، من الصلاة والزكاة والصيام والحج : لها - مع الأهداف الروحية - أهداف أخلاقية معروفة ومطلوبة ، بحيث إذا أديت على وجهها آتت أكلها ، وأعطت ثمراتها الأخلاقية .

فالصلاة - كما ذكر القرآن - ﴿ **تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ (العنكبوت : ٤٥) . والزكاة ﴿ **تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ (التوبة : ١٠٣) . والصيام يؤهل للتقوى ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة : ١٨٣) . والحج المقبول ﴿ **فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ (البقرة : ١٩٧) .

وبين نبي الإسلام منزلة الأخلاق في رسالته ، فقال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3] .

ولهذا قلنا فيما كتبناه من قديم : الإسلام رسالة أخلاقية . حتى إن الله تعالى حين أثنى على رسوله قال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم : ٤) .

---

(١) متفق عليه : البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩) عن ابن عمر .

(٢) متفق عليه : البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨) عن ابن عمرو .

(٣) رواه الترمذي فى نوادر الأصول (٢ / ٣١٢) ، والطبراني فى الأوسط (٧ / ٧٤ / ٦٨٩٥) ، والحاكم في المستدرك (٢ / ٦٧٠ / ٤٢٢١) وقال : صحيح على شرط مسلم . وصححه الألباني فى الجامع الصغير (٢٣٥٠) عن أبي هريرة .

وحتى إن الرسول الكريم ليعلمنا: أن العبادة التي لا تثمر ثمرتها الأخلاقية: تكون عبادة مدخولة مغشوشة، غير حائزة للقبول عند الله. فيقول عليه الصلاة والسلام: «رب قائم حظه من قيامه: السهر، ورب صائم حظه من صيامه: الجوع والعطش»[1].

ويقول: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2].

ولا غرو أن أثرت هذه التوجيهات القرآنية، والتعليمات النبوية، من أوامر ونواه وإرشادات، في حياة المسلمين، ودعت بقوة إلى أن يعمقها العلماء والدعاة والمربون في أنفس الأمة، وأن يكون لها صداها وأثرها على امتداد القرون، وتوالي العصور.

ومن تأمل في تاريخ المسلمين العلمي والفكري، أو السلوكي والعملي: يجد أنهم حفلوا بالأخلاق والفضائل، واهتموا بها نظرا وتطبيقا، وقولاً وفعلاً.

ربط المسلمون بين العلم والأخلاق، فلا قيمة لعلم لا يطابقه العمل والسلوك. والعالم المنحرف السلوك مطرود عند الله، مذموم عند الناس. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف: ٢، ٣). ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة: ٤٤).

وأثر عن المسلمين قولهم: علم بلا عمل، كشجر بلا ثمر، أو كسحاب بلا مطر.

---

(١) رواه أحمد (٨٨٤٣)، والحاكم (١٥٧١)، والبيهقي (٨٠٩٧) عن أبي هريرة، صحيح الجامع الصغير (٣٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (٥٧١٠) في كتاب الصوم عن أبي هريرة.

وربط المسلمون بين العبادة والأخلاق، فمن أدى العبادات، وأساء في المعاملات، انتقده الناس وسخروا منه، وقالوا عنه: يصلي الفرض، ويفسد في الأرض! لسانه يسبِّح، ويده تذبِّح! وقال في مثله أبو العلاء:

إذا رام كيدا بالصلاة مقيمها

فتاركها عمدا إلى الله أقرب!

ولذا شاع بين المسلمين هذه الحكمة: الدين المعاملة! حتى عَدَّها بعض الناس حديثا نبويا، وما هي بحديث، ولكن معناها صحيح[1].

وربط المسلمون بين الاقتصاد والأخلاق، فلم يجيزوا كسب المال من الحرام، ولا تنميته بطريق حرام، ولا إنفاقه في مصرف حرام. وقد حرم الله الخمر مع ما فيها من منافع اقتصادية لبعض الناس، لأن إثمها أكبر من نفعها. وحرم القرآن دخول المشركين المسجدَ الحرام، مع ما كانوا يكسبون من ورائهم. قال تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ** ﴾ (التوبة: ٢٨)[2].

وربط المسلمون السياسة بالأخلاق، فلم يعرفوا في تاريخهم نظرية: «الغاية تبرر الوسيلة» والوصول إلى الحق بطريق الباطل، وارتكاب الموبقات لتحقيق هدف نبيل في نظر صاحبه. بل لابد من الغاية الشريفة، والوسيلة النظيفة. فلا يجوز بحال استباحة الدماء المحظورة، وانتهاك الحرمات المصونة، والاجتراء على الأموال والأعراض المحرمة: من أجل عمل يراه صاحبه خيراً أو طيبًا. فمثله كمثل من يأكل الربا، أو يقبل الرشا، ليبني مسجداً، ومثل هذا المسجد لا تحل الصلاة فيه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولا الخبيث بالخبيث.

---

(١) انظر: كتابنا «العبادة في الإسلام»، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) عيلة: فقرا. ولمزيد من التفصيل حول أخلاقية الاقتصاد في الإسلام، يراجع كتابنا: «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي»، طبعة مكتبة وهبة القاهرة ومؤسسة الرسالة- بيروت.

وربط المسلمون الحرب بالأخلاق، فلا يجوز أن يقتل إلا من يقاتل، لهذا نهى الإسلام عن قتل النساء والصبيان. ورأى الرسول امرأة مقتولة في إحدى الغزوات، فأنكر ذلك، وقال: «ما كانت هذه لتقاتل»[1].

ونهى خلفاؤه من بعده قواد جيوشهم عن قتل الولدان والنساء والشيوخ، وعن قطع الأشجار، وهدم البنيان، وقتل الحيوان إلا لمأكلة، وعن قتل الرهبان، وقتل الفلاحين، وكل من لا شأن له بالحرب.

ونهى الرسول نهيًا شديدًا عن الغدر في الحرب، وعن التمثيل بجثث الأعداء، فالإنسان في نظر الإسلام له حرمته حيًا وميتًا. ولا ينبغي للمسلمين أن يفعلوا ذلك، ولو كان أعداؤهم يفعلون ذلك بهم، لأن المسلمين تحكمهم مثلهم وشريعتهم، بخلاف غيرهم.

أرسل بعض قواد المسلمين إلى أبي بكر رضي الله عنه - وهو خليفة - بصرّة، ففتحها، فوجد فيها رأسًا، ومعها رسالة تفيد أنها لأحد الأعداء الكبار. فأنكر ذلك أبو بكر، فقالوا له: يا خليفة رسول الله! إنهم يفعلون ذلك بقادتنا. أي يبعثون برؤوسهم إلى ملوكهم وأمرائهم. فقال أبو بكر بلهجة حازمة: آستنان بفارس والروم؟ والله لا يُبعث إليّ برأس بعد اليوم! إنما يكفي الكتاب والخبر[2].

وانظر إلي قوله: آستنان بفارس والروم؟ يريد: أتستنون بهم، وتتخذونهم أئمة لكم تسلكون مسالكهم، وأنتم الأمة الوسط، التي تعلم الناس؟![3]

---

(١) رواه أبو دراود (٢٩٦٩)، وابن حبان في الصحيح (٤٧٩١)، والطبراني فى الكبير (٣٤٨٩)، والبيهقي في الكبير (٩/ ٨٢) عن رباح بن ربيع.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٠٦/ ٩٧٠١) وسعيد بن منصور في السنن (٢٦٣٥) والبيهقي في السنن (٩/ ١٣٢) عن يزيد بن حبيب.

(٣) لمزيد من التفاصيل يراجع كتابنا «فقه الجهاد» باب «جيش الجهاد الإسلامي: واجباته، وآدابه، ودستوره».

والأخلاق في الإسلام تشمل الحياة كلها : السلم والحرب، والعلم والعمل، والاقتصاد والسياسة. كما تدخل في العلاقات الأسرية، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات السياسية : بين الراعي والرعية. وبين الدول بعضها وبعض. كلها يجب أن تحكمها القيم الأخلاقية.

وأذكر هنا مثلين أخلاقيين من عهد الخلفاء الراشدين، أحدهما لعثمان، والثاني لعليّ رضي الله عنهما.

موقف عثمان ممن حاصروه:

المثل الأول : ما صنعه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه، وقد حاصر داره الثائرون، الذين عملت فيهم الدعاية اليهودية السبئية عملها، ودفعتهم إلى الثورة المسلّحة على الخليفة الشيخ المسالم، ولكن الخليفة الحريص على حقن الدماء، أبى أن يقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإن أدّى ذلك إلى إراقة دمه! ذكر أن عبد الله بن عمر لبس درعه، وتقلد سيفه (يوم الدار) ـ وهو الاسم الذي أطلق على يوم محاصرة عثمان في داره لقتله ـ فعزم عثمان عليه أن يخرج، ويضع سلاحه، ويكف يده، ففعل.

ودخل عليه زيد بن ثابت فقال : إن هذه الأنصار بالباب، وتقول : إن شئت كنّا أنصار الله مرتين : قال : لا حاجة لي، كفّوا.

وعن عامر بن ربيعة قال : كنت مع عثمان في الدار، فقال : أعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعًا وطاعة : أن يكفّ يده، ويلقي سلاحه. . فألقى القوم أسلحتهم.

وقال بعض أنصاره : نهانا عثمان عنهم (أي الثوار) ولو أذن لنا عثمان فيهم، لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا.

وهكذا رفض الخليفة إراقة الدماء، ولو كان ذلك في نصرته والدفاع عنه، وحاول أن يردّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

أشرف عليهم يومًا وقال لهم: إنه لا يحل سفك دم امرئ مسلم إلاّ في إحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، فهل أنا في واحدة منهنّ؟ فما وجد القوم له جوابًا.

وقال لهم مرة: أيُّها الناس إن وجدتم في الحقّ أن تضعوا رجلي في القيد فضعوها، فما وجد القوم له جوابًا. ثم قال: أستغفر الله إن كنت ظَلَمت، وقد غفرتُ إن كنت ظُلِمْت!!

واعتصم الخليفة بالصبر، وأبى أن تسل السيوف تأييدًا له، حتى ضرج الثوار الأرض بدمه، كراهة أن يلقى الله بدم أحد في عنقه.

قال معبد الخزاعي لعليّ بن أبي طالب: أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟ قال: إن عثمان كان إمامًا، وإنه نهى عن القتال، وقال: من سلّ سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا.

قال: فأيُّ منزلة وسعت عثمان، إذ استسلم حتى قُتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ (المائدة: ٢٨).

وصية عليّ بعد أن ضربه ابن ملجم:

وأما المثل الثاني، فهو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ يتربص به اثنان من طائفة الخوارج (شبيب الأشجعي، وعبد الرحمن بن ملجم) وقد خرج قبيل الفجر يوقظ الناس للصلاة، فترقباه بباب المسجد حتى دخل، فضربه شبيب فأخطأه، وضربه ابن ملجم على صلعته، فقال عليّ كرّم الله وجهه: «فزت وربِّ الكعبة» أي بالشهادة، وتجمع الناس بسرعة على الرجلين، فأما شبيب فاستطاع أن ينسلّ من بين الناس. وأما ابن ملجم، فلم يكتف بجريمته الشنعاء حتى حمل بسيفه على الناس فأفرجوا له، وتلقاه المغيرة بن نوفل - أخو الهاشميين - بقطيفة فرمى بها

عليه، واحتمله فضرب به الأرض، وكان قويا أيّدًا، فقعد على صدره. ثم أقبل الناس على عليّ رضى الله عنه، يسألونه: ما يصنعون به؟ فماذا قال عليّ في شأن قاتله البغيض، وهو الخليفة الآمر المطاع؟

قال: «إن أعش فالأمر إليّ، وإن أُصبت فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصّوا فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى».

هذا هو منطق الإيمان: ضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ألا ما أروع وما أعظم!!

ترى كم كان يذهب ضحية من قوم هذا القاتل وحزبه لو كان الأمر بيد الماديين الذين لا يخشون الخالق، ولا يرحمون المخلوق؟!![1].

خلق الرحمة:

وأركز هنا على خلق واحد من أخلاق المسلمين، كان له دوره في تاريخهم، وظهر أثره في سلمهم وحربهم، وتجلت مآثره في حضارتهم وتاريخهم.

هذا الخلق هو «الرحمة» التي جعلها القرآن عنوانا على الرسالة المحمدية، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧). ووصف الرسول نفسه في جملة واحدة، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»[2].

على خلاف اليهود الذين اشتهروا بالغلظة والقسوة، حتى سمتهم التوراة الشعب «الغليظ الرقبة» وقال القرآن عنهم: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ (البقرة: ٧٤).

---

(١) انظر: كتابنا «الإيمان والحياة» فصل: الرحمة.

(٢) رواه الدارمي (١٥) والحاكم (١٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٤٤٦) عن أبي هريرة، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٥).

والمسلمون يستمدون رحمتهم من الله تعالى، الذي سمى نفسه «الرحمن الرحيم» وهذان الاسمان - من أسماء الله الحسنى - متضمنان في البسملة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ التي افتتحت بها جميع سور القرآن الكريم، إلا سورة واحدة، والتي يفتتح المسلم بها أعماله كلها، حتى أكله إذا أكل، وشربه إذا شرب. ومتضمنان في «الفاتحة» التي يقرؤها المسلم في صلواته كل يوم سبع عشرة مرة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٢، ٣).

ومن أوصاف الله تعالى في القرآن: أنه سبحانه «أرحم الراحمين» وأنه «خير الراحمين». وقد وصف تعالى نفسه فقال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وجاء في القرآن على لسان الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (غافر: ٧).

ولقد كان أهم ما يطلب المؤمن من ربه لنفسه ولمن يحب: الرحمة والمغفرة، من الله سبحانه، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ١١٨).

وحكى القرآن عن أبينا آدم وأمنا حواء، بعد أكلهما من الشجرة قولهما: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ودعاء سيدنا نوح: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (هود: ٤٧).

وقال سيدنا موسى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥١).

وسيدنا أيوب: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

ودعا فتية الكهف فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ (الكهف: ١٠).

وعلمنا أن ندعوه فنقول: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وعلم الولد أن يدعو لأبويه فيقول: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الإسراء: ٢٤).

كما وصانا الرسول الكريم على أن نتحلى بخلق الرحمة: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1].

وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[2].

ويتجلى هذا الخلق أول ما يتجلى في معاملة الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة، مثل: المرضى والعجزة، ومثل: الحيوان الأعجم، وسنتحدث عن تجلّيات خلق الرحمة في تاريخنا في هذين المجالين المهمين:

١- مجال الرحمة بالمرضى:

الأول: مجال الرحمة بالمرضى بإنشاء المستشفيات التي عني بها المسلمون في تاريخهم أبلغ عناية.

٢- مجال الرحمة بالحيوان:

والثاني: مجال الرحمة بالحيوان، التي للمسلمين فيها السبق والقِدْح المعلّى.

المستشفيات الخيرية في تاريخنا الإسلامي:

وليسمح لي قارئي هنا أن أنقل في هذا المجال صفحات مضيئة، مما سجله الفقيه الداعية الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى السباعي في كتابه القيم «من روائع

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١) والترمذي وقال: حسن صحيح (١٩٢٥) كلاهما عن عبد الله بن عمرو.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة: البخاري (٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١٨) وانظر: اللؤلؤ والمرجان(١٤٩٧).

حضارتنا»، قال رحمه الله تعالى ورضي عنه بعد حديث سريع عن المستشفيات المتنقلة :

«وأما المستشفيات الثابتة، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي يومئذ من مستشفى فأكثر، حتى إن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

وتنوعت المستشفيات، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مخصوصون، عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء، وهناك مستشفيات للمساجين، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة، ومما كتب به الوزير على بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد : «فكرت في أمر من في الحبوس (السجون)، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، فينبغي أن نفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس، ويعالجون فيها المرضى» .

وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور . ويحدثنا المقريزي : أن ابن طولون حين بنى جامعه الشهير في مصر : عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب (أي صيدلية أدوية) وفيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين .

وهناك المستشفيات العامة، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض : قسم للذكور، وقسم للإناث، وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة، ومنها للكسور والتجبير، ومنها للأمراض العقلية . وقسم الأمراض الداخلية(الباطنية) كان مقسما إلى غرف أيضا،

فغرف منها للحميات، وغرف للإسهال وغير ذلك. ولكل قسم أطباء عليهم رئيس، فرئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحالين (أي أطباء العيون)، ولكل الأقسام رئيس عام يسمى: «ساعور»، وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى. وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى. وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين، ولهم رواتب معلومة وافرة. في كل مستشفى صيدلية كانت تسمى «خزانة الشراب» فيها أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية، والعطور الفائقة التي لا توجد إلا فيها، وفيها من الآلات الجراحية، والأواني الزجاجية، والزبادي وغير ذلك، وما لا يوجد إلا في خزائن الملوك.

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضا، ففي كل مستشفى إيوان كبير (قاعة كبيرة) للمحاضرات، يجلس فيها كبير الأطباء والطلاب وبجانبهم الآلات والكتب، فيقعد التلاميذ بين يدي معلمهم، بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، ثم تجرى المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه، والقراءة في الكتب الطبية، وكثيرا ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم، كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب. قال ابن أبي أصيبعة، وهو ممن درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق: «كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين، والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ، رضى الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها».

وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحانا أمام كبير أطباء الدولة، يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته،

وهي من تأليفه أو تأليف أحد كبار علماء الطب، له عليها دراسات وشروح، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل ما يتعلق بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب، وقد اتفق في عام ٣١٩هـ في أيام الخليفة المقتدر أن بعض الأطباء أخطأ في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع أطباء بغداد من جديد، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمائة طبيب ونيفا وستين طبيبا، هذا عدا من لم يمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم، حتى قالوا: إنه كان في مستشفى ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم.

أما نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجانا للجميع، لا فرق بين غني وفقير، وبعيد وقريب، ونابه وخامل. يفحص المرضى أولا بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى له سرير مفروش بأثاث جيد، ثم يعطى الدواء الذي يعينه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له. وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفا كاملا ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة، فإذا أصبح في دور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أعطي بدلة من الثياب الجديدة، ومبلغا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرا على العمل. وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيرا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى، ويشرف على حسن معاملتهم.

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي، سواء في المغرب أم في المشرق. . في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والأندلس. . وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم الإسلام في تلك العصور:

الأولى - المستشفى العضدي ببغداد: بناه عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١هـ بعد أن اختار الرازى الطبيب المشهور مكانه بأن وضع أربع قطع لحم في أربعة أنحاء بغداد ليلاً، فلما أصبح وجد أحسنها في المكان الذي أقيم عليه المستشفى فيما بعد، فأقيم المستشفى وأنفق عليه مال عظيم، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرون طبيبًا، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن. وفي عام ٤٤٩هـ جدَّدَ الخليفة القائم بأمر الله هذا المستشفى، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها كثيرًا، وأقام الفرش واللحف للمرضى، والعطور الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين، وله بوابون وحراس، وفيه حمام، وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الثمار والبقول، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية، ويبيتون عندهم بالنوبة.

الثاني - المستشفى النوري الكبير بدمشق: أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٤٩هـ ١١٥٤م من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج، وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها، شرط فيه: أنه وقف على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه يسمح بها، وكان الشراب فيه والدواء مُباحًا لكل مريض يقصده. وقد دخله ابن جُبير الرحالة عام ٥٨٠هـ، فوصف عناية الأطباء بالمرضى وتفقدهم لشؤونهم، وإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، وكان فيه قسم خاص بالأمراض العقلية، يوثق فيه المجانين بالسلاسل مع العناية بعلاجهم وغذائهم.

ويذكر بعض المؤرخين أنه زار دمشق عام ٨٣١هـ رجل أعجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، فلما دخل المستشفى النوري، ونظر إلى كثرة أطبائه، وحُسن العناية بمرضاه، وما يحتويه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، أراد أن يختبر معرفة أطبائه، فتمارض وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه علم أنه غير مريض، وأنه أراد اختبار أطبائه، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة. ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها: إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام. . . فعرف الأعجمي أنهم فطنوا لقصده وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها. وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧هـ، حيث أنشئ مستشفى الغرباء، وهو المستشفى الذي تشرف عليه الآن كلية الطب في الجامعة السورية، فأقفل المستشفي النوري، ثم استعمل مدرسة أهلية.

الثالث ـ المستشفى المنصوري الكبير: المعروف بمارستان قلاوون، كان داراً لبعض الأمراء، فحوّلها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام ٦٨٣هـ ١٢٨٤م، وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة، وألحق مسجداً ومدرسة ومكتبًا للأيتام.

قالوا: وكان سبب بنائه: أن الملك المنصور قلاوون، لما توجه وهو أمير إلى غزو الروم، في أيام الظاهر بيبرس عام ١٢٧٥م أصابه بدمشق مرض، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير، فبرأ، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه، فأعجب به ونذر لله إن آتاه الله الملك أن يبني مثله، فلما صار سلطانًا اختار هذه الدار فاشتراها وحولها إلى مستشفى.

وكان آية من آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحًا لجميع الناس من ذكر وأنثى، وحُر وعَبد، وراعٍ ورعية، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن ماتَ جُهزَ وكُفِّنَ ودُفن. وعين فيه الأطباء من مختلف فروع الطب، كما وظف له الفراشين والخدمة لخدمة المرضى وإصلاح

أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، بحيث كان لكل مريض شخصان يقومان بخدمته، وجعل لكل مريض سريرًا وفراشًا كاملاً، وأفرد لكل طائفة من المرضى أماكن تختص بهم، ورتب فيه مكانًا يجلس فيه الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة.

ومن أروع ما فيه: الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى، بل رتَّبَ لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية.. وأدَّى هذا المستشفى عمله الإنساني الجليل، حتى أخبر أطباء العيون الذين عملوا فيه: أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس، ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض، حتى يُعطى كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته، حتى لا يضطر للالتجاء إلى العمل الشاق فور خروجه.

ومن أروع ما فيه أيضا: النص في وقفته على أن يُقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل.

ومن أروع ما فيه أيضًا: أن المؤرَّقين فيه من المرضى كانوا يعزلون في قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية، أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص، وكان الناقهون منهم تمثل أمامهم الروايات المضحكة، ومشاهد من الرقص البلدي (الذي يتعارفه أهل القرى)، وكان المؤذنون في المسجد الملاصق له يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون الأناشيد بأصوات ندية تخفيفًا لآلام المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت. وقد استمرت هذه حتى دخول الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م فشاهدها العلماء الفرنسيون بأعينهم وكتبوا عنها.

وهذا لعمر الله سمو إنساني عجيب، وفطنة طيبة لم يتنبه إليها العالم الحديث إلا في العصر الحاضر.

ويذكرني هذا بما كنت سمعته في مدينة طرابلس عن وقف غريب مخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يوميًا، فيتحدثان بجانب المرضى حديثا خافتًا ليسمعه المرضى بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه.

ونرى من الفائدة أن نذكر نص الوقفية لهذا المستشفى العظيم، كما ذكرها مؤلف تاريخ البيمارستانات في الإسلام:

فإن أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم، وأحرزت مواهب بره الغنائم، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم، وأولى ما توجه إليه كل متوجه وقام إليه كل قائم: ما عادت بالخيرات عوائده، وزادت في المسرات زوائده، واستمرت على الآباء فوائده، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده، وهي الأوقاف العميم برها، المقيم أجرها، الجسيم وفرها، الكريم ذخرها، فهي الحسنات التي هي الجنان، والقُرُبات التي فيها رضوان الرحمن، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان، والنفقات التي هي بحور الأجور واللؤلؤ والمرجان.. ولا يخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير، وإيصال الحبور إلى قلبه الكسير، وإغنائه بإيوائه ومداواته الذي لا يعبر عن وفور أجرها بتعبير، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الإيراد والإصدار، فأقرضه أحسن القروض على حسب الإمكان والاقتدار. وانتهز الفرصة بالاستباق، وأحرز باغتنام أجرها قصب السباق، فساعد الفقير المسلم على إزالة ألمه، ومداواة سقمه، مساعدة تنجيه غداً من عذاب ربه الخلاق، ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظُلمًا ولا هَضمًا، والحسنة التي لا تبقي لذنبه همّا.

ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل، السلطان الملك المنصور العالم العادل.. فتقدم أمره الشريف بوقف البيمارستان المنصوري... (وهنا تَذكر الوقفيةُ وصفه ومكانه وأوقافه): لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين،

والفقراء المحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها، من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلّت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، وأمراض العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه، بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب، والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعًا ووحدانًا، وشيوخًا وشبانًا، وبلغاء وصبيانًا، وحرمًا وولدانًا، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو مُعد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف، والداني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطَوله الجسيم، وأجره الكريم، وبره العميم، وأمره بإجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين، والجرائحيين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم، وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمُسهلاَت المفردة والمركبة، وعلى القومَة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جَرَتْ عادة أمثالهم بذلك، على ما يقوم بمداراة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات[1]، والمعاجين والمراهم والأدهان والشبات، والأدوية المركبة والمفردة، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في

(١) الشيافة: الفتيلة.

كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم، وأقداح زجاج وغرار برسم أشربتهم، وكيزان وأباريق فخار، وقصاري فخار، وزيت للوقود عليهم، وبماء من بحر النيل المبارك باسم شربهم وأغذيتهم ولأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر.

ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف، في غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب.

ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة، يكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات، والمأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أمينا يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان، ويفرّق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك، ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ فيه للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر، ويغطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف له بكرة وعشية.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى، وهو مخيَّر في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط، يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان، مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم، من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستور ورق ليصرف على حكمة

ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان، مجتمعين أو متناوبين، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان، ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينية بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم، وإن كان بينهم من به قروح، أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي، راجعه وأحضره معه، وباشر معه من غير إنفراد عنه، ويراجعه في أحوال برئه وشفائه.

ويصرف الناظر في الوقف لمن ينصبه شيخًا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه، في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه، وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقت للقَومَة والفراشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان، ما يرى صرفه إلى كل بحسب عمله، على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم، وشؤونهم، والقيام بمصالحهم، على ما يراه من العدة والتقدير، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة إليه في ذلك بحسب الزمان والمكان.

ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه، وأجرة غاسله، وحافر قبره، ومواراته في قبره على السنة النبوية، والحالة المرضية، ومن كان مريضًا في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل هذا المارستان، من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله.

ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة! بحسب الحال من غير زيادة تقتضي التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي عليه اجتهاده بحسب ما تدعوه إليه الحاجة.

وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سراً وجهراً، ولا يقدم صاحب جاه على ضعف، ولا قوياً على ما هو أضعف منه، ولا متأهلاً على غريب، بل يقدم في الصرف إليه زيادة الأجور والثواب والتقرب إلى رب الأرباب. انتهى نص الوقفية.

الرابع ـ مستشفى مراكش: وهو الذي أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب. تخيّر ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع بُرَك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتّان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدّ فيه للمريض ثياب ليل ونهار من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل، وإن كان غنيا دفع إليه ماله. ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كان من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج حتى يشفى أو يموت. وكان في كل جمعة يزوره ويعود المرضى ويسأل عن أحوالهم وعن معاملة الأطباء والممرضين لهم.

وبعد، فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرقي العالم الإسلامي وغربيه، يوم كانت أوربة تتيه في ظلام الجهل، ولا تعرف شيئا من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفة الإنسانية فيها. وإليك ما قاله المستشرق الألماني «مايرهوف» عن حالة المستشفيات في أوربا في العصر الذي

كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها . . قال الدكتور ماكس: «إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسًا قاسيًا مرًا لا نقدره حق قدره، إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه». مرّ أكثر من ثلاثة قرون على أوربا، اعتباراً من زمننا هذا، قبل أن تعرف للمستشفيات العامة معنى، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم، أو في دور خاصة، كانت المستشفيات الأوربية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى(أوتيل ديو) بباريس، أكبر مستشفيات أوربا في ذلك العصر، وصفه كل من ماكس توردو وتينون بما يلي:

«يحتوي على ١٢٠٠ سرير، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد، أما الباقي - ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام - فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة، لا منافذ تهوية فيها، مظلمة دوما، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمائة مريض يفترشون الأرض، وهم مكدسون بعضهم فوق بعض، على القاع، أو على كوم من القش، في حالة يُرثى لها. . إنك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالاً بجانب شيوخ، ونساء بجانب رجال، (قد لا تصدق لكنها الحقيقة) تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحرق في بحران الحمى، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المهترئ بأظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الأغطية.

وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها. واعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين، فيسقينهم الخمور، ويصلنهم بالحلوى والمآكل

الدسـمة، مما يتفضل به المحسنون، في الوقت الذي هم فيه أحوج إلى الحمية، فيموت الكثير منهم بالتخمة، ويفطس غيرهم جوعاً.

وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين، لكل رائح وغاد، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث. وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعًا، كما يموتون أحيانًا بالتخمة أو من فرط السكْر، والفرش حافلة بالحشرات الدنيئة، وهواء الحجرات لا يُطاق لفساده، حتى إن الخدم والممرضين لم يكونوا يجرؤون على الدخول إلا بعد وضع إسفنجة مبللة بالخل على أنوفهم. وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيراً ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه».

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مَبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم، والجهل الفاضح بأصول المستشفيات، بل بقواعد الصحة العامة البديهية. وإنا لنرى فيما يرويه العربي أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار»، مبلغ جهل الغربيين الصليبيين بالطب، ومبلغ علم أطبائهم بشكل مضحك، من الحادثتين التاليتين:

«ومن عجيب طبهم (الفرنج): أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى. قال: أحضروا عندي فارسًا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي، فقال لهم: «هذا ما يعرف شيء يداويهم» وقال للفارس: أيما أحب إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي

فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه - وأنا أراه - ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية.. سال مخ الساق ومات من ساعته».. ثم ينطلق ليروي كيف أن هذا الطبيب الصليبي أمر بتغطيس المرأة بماء مغلي فماتت لساعتها.

ونختم هذا الحديث بالنتائج التي نحب أن نلفت الأنظار إليها بعد هذه المقارنات، أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل.. وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ، ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم.. وأننا كنا أسبق الأمم إلى معرفة ما للموسيقى والأدب المضحك والإيحاء الذاتي من أثر بالغ في شفاء المرضى... وإننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدًا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان، بل حين كنا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل.. إن هذه نزعة إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم، وأين منها هؤلاء الغربيون؟؟»[1] اهـ.

أطلنا النقل هنا، لنبين بالوقائع ما كان عليه تاريخنا، وما أنجزته حضارتنا.

٢ـ مجال الرحمة بالحيوان:

والمجال الثاني لخلق الرحمة عند المسلمين، الذين تميزوا به عن سائر الأمم في تلك القرون، هو: مجال الرحمة بالحيوان، أو ما يسمونه اليوم: «الرفق بالحيوان».

وأصل هذا: ما صحت به الأحاديث عن رسول الإسلام في الرحمة بهذه

---

(١) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي (١٩٨ ـ ٢١٧).

المخلوقات الضعيفة. ما يستأنس منها ويملكه الناس ويستخدمونه مثل: الأنعام والخيل، والبغال، والحمير، والدواجن وغيرها من الطيور، ومالا يملك منها مثل القطط والكلاب. وقد رأينا في حديثنا عن الموقف الخيري ومجالاته المتنوعة: أن من خيار المسلمين من وقفوا من أموالهم على الكلاب الضالة حتى لا تموت جوعًا.

وفي هذا جاءت أحاديث شتى منها:

(أ) «عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت لا هي أطعمتها وسقتها إن هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض»[1].

والخَشاش: حشرات الأرض ونحوها.

(ب) مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق بطنه فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[2].

(جـ) «في كل كبد رطبة أجر»[3].

(د) «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[4].

(هـ) إن رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلاَّ أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟»[5].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٢)عن ابن عمر.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٤٨) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٤٥) وابن حبان وصححه (٥٤٥) عن سهل بن الحنظلية.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في قصة الرجل الذي سقى كلبا فشكر الله له فغفر له (٢٤٦٦) ومسلم (٢٢٤٤).

(٤) رواه مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١١٩١٦) والأوسط (٣٥٩٠) عن ابن عباس والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري (٣١٦٢)، كما في ترغيب المنذري.

(و) مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا ـ أو دجاجة ـ يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا»[١].

(ز) نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم[٢]. كما يفعل بعض القساة الذين يثيرون الحيوانات بعضها على بعض، فتتناطح وتتنافر، حتى يسيل الدم منها، وهم يضحكون!

(حـ) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه، وعن الوسم (أي الكي) في الوجه[٣]، أيْ للحمار وغيره من البهائم.

حتى وجوه الحيوانات يجب أن تصان!

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في العتبية: «قال مالك: إن عمر بن الخطاب مر بحمار عليه لَبنٌ، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمر فقالت: يا عمر، مالك ولحماري؟ ألك عليه سلطان؟ قال: فما يقعدني في هذا الموضع»؟

وعقب ابن رشد على قول عمر فقال: المعنى في هذا بيِّن، لأن المصطفى عليه السلام قال: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته....» أ. هـ.

وروى عبد الرزاق عن ابن سيرين: أن عمر رأى رجلا يسحب شاة من رجلها ليذبحها فقال: ويلك، قدها إلى الموت قودا جميلا؟»[٤].

---

(١) رواه الشيخان: البخاري (٥٥١٥) ومسلم (١٩٥٨) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٦٢)، والترمذي (١٧٠٩) من حديث ابن عباس.

(٣) رواه مسلم (٢١١٦) عن جابر.

(٤) مصنف عبد الرزاق (٨٦٠٥) عن ابن سيرين.

وفي طبقات ابن سعد عن المسيب بن دارم قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب حمالا وقال: «لم تحمِّل بعيرك ما لا يطيق؟».

وعلى سنة عمر الأول سار عمر الثاني ابن عبد العزيز.

ففي فضائل عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم: أن عمر كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحدا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة.

وكتب أيضًا إلى حيان بمصر: بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل علي البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل علي البعير أكثر من ستمائة رطل[1].

وجاء الفقهاء ففصلوا ما يجب على مالك الدابة من النفقة والرعاية في «كتاب النفقات» من كتب الفقه، كما فصلوا ما يجب على الإنسان نحو الكلاب والطير ونحوها، تفصيلاً لم يخطر ببال أحد من البشر في تلك الأعصار، وهو تفصيل لم تدفع إليه المنفعة المادية أو المصلحة الاجتماعية فحسب، كما هو الشأن في القوانين الوضعيه، بل الدافع إليه - فوق هذا كله - دافع أخلاقي محض، هو رفع الظلم والأذى والضرر عن كائن حي ذي كبد رطبة، يحس ويشعر ويتألم وإن لم يكن له لسان يتكلم به ويشكو.

ومن هذا التفصيل، نراهم يحددون: متى يجوز ضرب الدابة؟ وأين تضرب، وبم تضرب؟ وكيف تضرب؟ فنراهم يقولون: تضرب الدابة على النِّفار ولا تضرب على العثار، لأن العثار لا يد لها فيه، بخلاف النفار والحرونة.

ويقولون: لا تضرب في الوجه، ولا تضرب بحديدة أو بمقرعة في أسفلها حديدة، كما نقلنا ذلك عن عمر بن عبد العزيز.

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص١٥٢ وسيرة ابن عبد الحكم.

وأنقل هنا فقرات من كتاب فقهي معتبر عند الحنابلة وهو شرح «غاية المنتهى» قال: وعلى مالك بهيمة إطعامها ولو عطبت (أي لم يرج منها نفع) وعليه سقيها حتى تنتهي إلى أول شبع وأول ريّ دون غايتهما، لحديث ابن عمر قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا. . .» (الحديث).

«فإن عجز عن نفقتها أجبر على بيع أو إجارة، أو ذبح مأكول، إزالة لضررها وظلمها، ولأنها تتلف إن تركت بلا نفقة، وإضاعة المال منهي عنه.

فإن أبى فعل شيء من ذلك: فعل الحاكم الأصلح من الثلاثة أو اقترض عليه، وأنفق عليه، كما لو امتنع من أداء الدّين.

ويحرم لعنها - أي البهيمة - لما روى أحمد ومسلم عن عمر: أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلعنت امرأة ناقة فقال: «خذوا ما عليها ودعوها، فإنها ملعونة!»[1] فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد!

ولهما من حديث أبي برزة: «لا تصحبنا ناقة عليها لعنة الله»[2]، ولمسلم من حديث أبي الدرداء أنه قال: «لا يكون اللّعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[3].

ويحرم تحميلها - أي البهيمة - مشقا (ما يشق عليها) لأنه تعذيب لها.

ويحرم حلبها ما يضر ولدها: لأن لبنها مخلوق له أشبه ولد الأمة، ويسن للحلاّب أن يقص أظافره، لئلا يجرح الضرع.

ويحرم ضرب وجه ووسم (أي كيٍّ فيه) أي في الوجه، لأنه عليه الصلاة والسلام لعن من ضرب أو وسم الوجه، ونهى عنه، ذكره في الفروع[4]. . ويكره

(١) رواه أحمد (٤ / ٤٣١)، ومسلم (٢٥٩٥) عن ابن عمر.
(٢) رواه أحمد (٤ / ٤١٩)، ومسلم (٢٥٩٦) من حديث أبي برزة.
(٣) رواه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي الدرداء.
(٤) الفروع: ابن مفلح المقدسي (٥ / ٤٦١).

جز معرفة وناصية، وجز ذنب، وتعليق جرس، أو وتر للخبر . . ويكره له إطعامه فوق طاقته وإكراهه على الأكل، على ما اتخذه الناس عادة لأجل التسمين، قاله في «الغنيمة».

ويجب على مقتني الكلب المباح أن يطعمه ويسقيه أو يرسله؛ لأن عدم ذلك تعذيب له . . ولا يحل حبس شيء من البهائم لتهلك جوعا أو عطشا: لأنه تعذيب، ولو غير معصومة لحديث: «إن قتلتم فأحسنوا القتلة»(١).

وقد تعرض لذلك العلامة المغربي المالكي: الشيخ أبو علي بن وحّال، فقال: «وما ذكر من حبس الطير إنما هو إذا لم يكن فيه تعذيب أو تجويع أو تعطيش، ولو بمظنة الغفلة عنه، أو يحبسه مع طير آخر ينقب رأسه، كما تفعله الديوك في الأقفاص، ينقب بعضها رأس بعض، حتى إن الديك يقتل آخر، وهذا كله حرام بإجماع، لأن تعذيب الحيوان لا يختلف في تحريمه، والفائدة يتأتى وجودها بلا تعذيب، وهذا إن كان يحبسه وحده أو مع من لا ينقبه، أو يعمل بينهما حائلا بحيث لا يصل بعضه إلى بعض، ويتفقده بالأكل والشرب كما يتفقد أولاده، ويضع للطير ما يركب عليه كخشبة، وأما أن يضعه على الأرض بلا شيء، فذلك يضر به غاية الضرر في البرد، وهذه الأمور لا تحتاج إلى جلب نص فيها لوضوحها، وكمن رأينا من يعذب الدجاج في الأقفاص على وجوه مختلفة من أنواع العذاب، وكذا حبس الكبش بلا أكل ولا شرب، أو بغل يربطه في موضع، ويغلق عليه حتى يكاد يموت جوعا، ومن لا رحمة فيه، لا يعتبر في الدفع عن الدواب إلا ما يقتلها أو يضعف بدنها، وأما عذابها في نفسها إذا سلمت مما ذكر فلا يبالي به، وذلك كله حرام، وعقوبته في الدنيا والآخرة إن لم يعف الله».

ثم قال: «وكثير من الناس يسمع مثلا أن الطير يجوز حبسه، وأن العصفور

---

(١) مطالب أولي النهى ج٥ ص ٢٦٢ ـ ٢٩٤. والحديث رواه مسلم: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة. . .).

يجوز أن يلعب به»، ويستدل بحديث: «أبا عُمَيْر! ما فعل النُّغَيْر؟» ويعتمد على ذلك بلا شرط عدم تعذيبه، وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب، وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك، وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب، ولكن: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]. أ. هـ.

وليست مراعاة هذه الأحكام الخاصة برعاية الحيوان والإحسان إليه، موكولة إلى ضمائر الأفراد فقط، فمن فرط فيها أو تهاون بها لم يكن للقضاء ولا للدولة عليه من سلطان.

كلا؛ فقد رأينا العمرين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - يلزمان الرعية بالرفق إلزاما، وإنما لم يفعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الناس في عهده كانت تكفيهم الموعظة لتغيير سلوكهم دون حاجة إلى إلزام قضائي، أو تدخل حكومي.

أما بعد ذلك، فمن حق السلطان والقاضي والمحتسب: أن يتدخلوا لإزالة الظلم عن هذه المخلوقات الضعيفة، ومن واجب أي مسلم شاهدَ هذا الظلم أو القسوة أن ينهى عنه، ومن حقه أن يرفعه إلى أولي الأمر ليعملوا على إزالته.

قال العلامة الماوردي في «الأحكام السلطانية»: «إذا كان من أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه: أنكره المحتسب عليه ومنعه منه»أ. هـ.

ولما قال ابن رشد: «يُقضَى للعبد على سيده إن قصر عما يجب له عليه بالمعروف في مطعمه وملبسه؛ خلاف ما يملكه من الدواب، فإنه يؤمر بتقوى الله في إجاعتها، ولا يقضى عليه بعلفها» رده مستعظما له: الشيخ أبو علي بن رحال في «باب النفقات» من شرح المختصر: يعني متن خليل - بنص ابن عبد البر في «الكافي»[2]: والرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها واجب سنة، فإنها عُجم لا تشكو و«في كل ذي كبد رطبة أجر»، هذا قول رسول الله صلى الله

(١) التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) الكافي في فقه أهل المدينة: ابن عبد البر (١/ ٦١٥).

عليه وسلم، فإذا كان في الإحسان إليها أجر، فكذلك في الإساءة إليها وزر، ولا يحمل على الدواب أكثر من طاقتها ولا تضرب في وجهها، ولا تتخذ ظهورها كراسي، ولا تقلد الأجراس، ولا تستعمل ليلا إلا أن يروّح عنها نهارا، ولا يحل حبس بهيمة مربوطة عن السرح والانتشار بغير علف ولا طعام. قال ابن رحال: فإن قول ابن رشد: الدابة لا يُقضَى... إلخ، يلزم ابن رشد، أن الدابة إذا حمّلها مالكها ما لا تطيقه من الحمل أو الشغل، أو يعذبها عذابا شديدا بلا فائدة: أنه لا يُقضَى على المالك بترك ذلك، وأنه يُترك هو وإياها، ويُؤمر بتقوى الله فيها فقط، وذلك لا يحل أصلا، مع مخالفة ذلك لكلام الناس، وحديث: «في كل ذي كبد رطبة أجر»، رأيت أبا عمر قال: يلزم عليه أن الإساءة إليها وزر، والوزر منكر، والمنكر يجب تغييره - كما أشار إليه ابن عرفة - ولو كان الناس يزجرون بقول الإمام لهم: اتقوا الله في كذا: ما شرعت الزواجر والقتل والسجون والتعزيرات[1]. انتهى.

وبهذه النقول النيِّرة، يتبين لنا روعة هذه الأحكام الخاصة بالرفق بالحيوان، ورعاية المسلمين لها، واهتمام فقهائهم بها. وسبقها بقرون طويلة كل ما عرفه الناس عن ذلك في العصر الحديث، وفاقته بمراحل ومراحل[2].

وهذا كله يؤكد لنا مدى وسوخ القيم الأخلاقية، والفضائل العليا فى مجتمعاتنا المسلمة، وفى حضارتنا الإسلامية.

شهادة لوبون للجانب الأخلاقي:

وقد شهد المؤرخ غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» بمتانة الأخلاق ورقيها عند العرب في أدوارهم الأولى، أي يوم كانوا أقرب إلى الالتزام بالإسلام الحق، وأقرب تأثرًا واقتداء برسول الإسلام. فيقول لوبون: «كانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى: أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر: كتابنا «مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية» ص١١٢-١١٨.

قاطبة، ولا سيما الأمم النصرانية. وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة، ووفاؤهم بعهودهم، ونبل طباعهم، مما يستوقف النظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى، ولا سيما الأمم الأوربية أيام الحروب الصليبية)[1].

وصدق لوبون. فكم كان الفرق شاسعًا وهائلاً بين تعامل الصليبيين مع أهل القدس حين دخلوها وقهروا أهلها، وبين تعامل صلاح الدين والمسلمين حين فتحوها وغلبوهم بعد. في الغزو الصليبي غاص الناس في الدم إلى الركب وقتل أكثر من ستين ألفاً. وفي الفتح الإسلامي: كان العفو والتسامح وحقن الدماء.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً** ﴾ (الأعراف: ٥٨).

(١) حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر: ٤٣٠.

٤ـ شيوع التسامح الديني في تاريخنا

ومن المآثر التي انفرد بها التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية: شيوع التسامح الديني مع أصحاب الديانات المخالفة: من اليهود والنصارى والمجوس والهندوس وغيرهم.

وهذا ما سجله التاريخ بوضوح، وما اعترف به المؤرخون والكتاب الأوربيون وغيرهم، وأنصفوا فيه الإسلام وأمته وحضارته.

أساس التسامح من القرآن:

ولا غرو، فقد وضع القرآن أساس التعامل مع غير المسلمين إذا كانوا مسالمين للمسلمين، لم يقاتلوهم في دينهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، فقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة: ٨).

ومن المعلوم: أن هذه الآية نزلت في شأن المشركين الوثنيين، من قريش وأمثالهم من العرب. وقد شرعت برهم والإقساط إليهم. والإقساط هو: العدل. والبر هو: الإحسان. العدل أو القسط: أن نطالبهم بالحق، والبر: أن نتنازل لهم عن بعض الحق. القسط: أن نعطيهم حقهم، والبر: أن نزيدهم شيئا فوق حقهم.

وقد اختار القرآن كلمة «البر» في التعامل معهم، وهي الكلمة التي تستعمل في أقدس الحقوق بعد حق الله تعالى، وهي «بر الوالدين».

أما أهل الكتاب، فلهم معاملة أخص من هذه المعاملة، فقد أجاز الإسلام مؤاكلتهم ومصاهرتهم، وهذه ذروة في التسامح الديني: أن تصبح زوجة المسلم ورفيقة حياته وأم أولاده غير مسلمة. ويصبح أهلها أصهارا له، ويصبحوا أجدادا وجدات وأخوالا وخالات لأبنائه وبناته.

وأكد القرآن هذا التسامح الفريد بتقرير أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله الكونية، ومشيئته لا تنفصل عن حكمته ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس: ٩٩).

كما قرر القرآن أن الفصل بين المختلفين في الدين، إنما يكون يوم القيامة، وأن الله بعدله هو الذي سيحكم بينهم، ويجزيهم بأعمالهم ونياتهم ﴿ **وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ (الحج: ٦٨، ٦٩).

ومما أكد به القرآن قيمة التسامح مع المخالفين: أنه فرض العدل للناس جميعا؛ من أحب منهم ومن كره، من قرب ومن بعد، من آمن ومن كفر، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (المائدة: ٨).

فلا يجوز للمسلم أن يحمله شنآن قوم - أي شدة بغضهم له، أو شدة بغضه لهم - على الحيدة عن العدل في حكمه أو في شهادته أو في قوله أو في فعله. فإن الظلم من أشد المحرّمات، سواء كان لمسلم أم لكافر، فإن الله لا يحب الظالمين. ولا يهدي القوم الظالمين. ولا يفلح الظالمون أبدا.

ومن دلائل التسامح في القرآن: قوله تعالى في بر الوالدين: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥). فبالرغم من موقف الوالدين من «الضغط» على ولدهما، الذي عبر عنه القرآن بكلمة «جاهداك» وهي تدل على المحاولة المستميتة في فتنة الولد عن دينه: أمره الله تعالى بمصاحبتهما بالمعروف، رعاية لحقهما، وإن لم يطعهما فيما حاولاه.

ومن ذلك: قوله تعالى في وصف الأبرار من عباده: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨). ولم يكن الأسير في ذلك الوقت إلا من المشركين.

ومن ذلك: ما جاء في القرآن من بيان أدب الحوار مع المخالفين من أهل الكتاب، والتركيز على الجوامع المشتركة التي تقرب ولا تباعد، لا على نقاط التمايز والاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وقد ذكر المفسرون للقرآن: أن بعض المسلمين تشكك في مشروعية الصدقة والإنفاق على ذويهم وأقاربهم من المشركين المصرين على شركهم: أيجوز لهم أن ينفقوا عليهم أم لا؟ فنزل قوله تعالى يخاطب رسوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

فأشارت الآية إلى أن المدار على إخلاص النية وابتغاء وجه الله في الإنفاق، وإن كان المنفق عليهم مشركين. وهذا فى الإنفاق التطوعي غير الزكاة.

السنة النبوية تؤكد التسامح:

ولقد طبق الرسول الكريم هذا التسامح الكريم، القائم على القسط والبر، أو العدل والإحسان ـ الذي أسسه القرآن ـ في التعامل مع المسالمين غير المعادين، من غير المسلمين.

روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمَتْ عليَّ أمي، وهي مشركة، في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة (أي تنتظر من ابنتها أن تصلها وتحسن إليها) أ فأصل أمي؟ قال:

«نعم، صلي أمك»[(١)].

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب يهودا كانوا أو نصارى، فقد كان يزورهم ويكرمهم، ويُحسن إليهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم ويعطيهم.

ذكر ابن إسحاق في السيرة: أن وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوهم» فاستقبلوا المشرق فصلَّوْا صلاتهم[(٢)].

وعقب المجتهد ابن القيم على هذه القصة في «الهدي النبوي» فذكر مما فيها من الفقه: «جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.. وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا، إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكّنون من اعتياد ذلك»[(٣)].

---

(١) متفق عليه، كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ٥٨٧».
(٢) السيرة النبوية (٣/ ١١٤).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٣٨) طبعة الرسالة.

وروى أبو عبيد في «الأموال» عن سعيد بن المسيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تجري عليهم[١].

وروى البخاري عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد يهوديا، وعرض عليه الإسلام فأسلم، فخرج وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[٢].

وروى البخاري أيضا: «أن النبي صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله»[٣]. وقد كان في وسعه أن يستقرض من أصحابه، وما كانوا ليضنوا عليه بشيء، ولكنه أراد أن يعلم أمته.

وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الهدايا من غير المسلمين، واستعان في سلمه وحربه بغير المسلمين، حيث ضمن ولاءهم له، ولم يخش منهم شرا ولا كيدا.

ومرت عليه جنازة فقام صلى الله عليه وسلم لها واقفا، فقيل له: إنها جنازة يهودي! فقال عليه الصلاة والسلام: «أليست نفسا»؟![٤]

سماحة الصحابة مع غير المسلمين:

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين.

فعمر يأمر بصرف معاش دائم ليهودي وعياله من بيت مال المسلمين، ثم يقول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (التوبة: ٦٠). وهذا من مساكين أهل الكتاب[٥].

(١) الأموال ص ٦١٣.
(٢) رواه البخاري (١٢٩٠) من حديث أنس بن مالك.
(٣) رواه البخاري (٢٧٥٩) من حديث عائشة.
(٤) رواه البخاري (١٣١٣)، ومسلم (٩٦١) عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف.
(٥) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦، وانظر كتابنا «فقه الزكاة» ج٢ ص ٧٠٥-٧٠٦.

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة - أبي لؤلؤة المجوسي - فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، أن يوفي بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم»[1].

وعبد الله بن عَمْرو يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية ويكرر الوصية مرة بعد مرة، حتى دهش الغلام، وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودي؟ قال ابن عمرو: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية، فشيعها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

سماحة الأئمة والفقهاء:

وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيبًا من صدقة الفطر لرهبان النصارى ولا يرون في ذلك حَرَجًا. بل ذهب بعضهم - كعكرمة وابن سيرين والزهري - إلى جواز إعطائهم من الزكاة نفسها.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد: «أنه سُئل عن الصدقة فيمن توضع؟ فقال: في أهل المسكنة من المسلمين، وأهل ذمتكم...»[4].

وذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك» قال: «حدث الدارقطني أن القاضي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، ويحيى بن آدم في الخراج ص ٧٤، والبيهقي في السنن (٩ / ٢٠٦) باب الوصاة بأهل الكتاب.

(٢) القصة رواها أبو داود في كتاب الأدب من سننه (٥١٥١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١٢٨) أما الحديث المرفوع فهو متفق عليه.

(٣) ذكر ذلك ابن حزم في المحلى ج ٥ ص ١١٧.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٠٤٠٩)، وانظر: فقه الزكاة - الأسبق.

إسماعيل بن إسحاق[1] دخل عليه عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي، فقام له القاضي ورحب به، فرأى إنكار الشهود لذلك، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل: قد علمتُ إنكاركم، وقد قال الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة: ٨). وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين المعتضد. . . وهذا من البر»[2].

وتتجلى هذه السماحة بعد ذلك في مواقف كثير من الأئمة والفقهاء، في الدفاع عن أهل الذمة، واعتبار أعراضهم وحرماتهم كحرمات المسلمين، وقد ذكرنا مثلا لذلك موقف الإمام الأوزاعي، والإمام ابن تيمية.

يروي المؤرخون: أن قازان ملك التتار وقائدهم عند إغارتهم على دمشق، في آخر القرن السابع الهجري وأول الثامن، قد أسر من المسلمين بالشام عددا كبيرا، ومعهم بعض أهل الذمة من اليهود والنصارى، فذهب شيخ الإسلام ابن تيمية مع العلماء، ليطلبوا من قازان فك إسار هؤلاء الأسرى، فأجابه قازان في شأن أسرى المسلمين، ولم يجبه في أسرى اليهود والنصارى، ولكن ابن تيمية أبى ذلك، ولم يتركه حتى فك أسرى الذميين كما فك أسرى المسلمين، وكان يقول له: إن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وذلك حكم الإسلام[3].

ونكتفي هنا بكلمات نيِّرة للفقيه الأصولي المحقق الإمام شهاب الدين القرافي شارحا بها معنى البر الذي أمر الله به المسلمين في شأنهم. فذكر من ذلك: الرفق بضعيفهم، وسد خُلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم-

---

(١) من أعلام المالكية، وقاضي بغداد توفى سنة ٢٨٢هـ. انظر: ترجمته في «ترتيب المدارك» ج٣ ص ١٦٦ - ١٨١ ط دار الحياة ببيروت - تحقيق د. أحمد بكير محمود.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٤.

(٣) شرح السير الكبير، طبعة الجامعة العربية: (١ / ١٠٨). وانظر: أحكام الذميين لعبد الكريم زيدان ص ٤٧٤.

على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة ـ واحتمال إيذائهم في الجوار ـ مع القدرة على إزالته ـ لطفا منا بهم، لا خوفا ولا طمعا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم . . . إلخ[1] .

اعتراف المنصفين من الغربيين:

ولقد رأينا الكثيرين من المستشرقين الذين عُرفوا بالموضوعية والإنصاف فيما يكتبون، يشيدون بالتسامح الديني عند المسلمين، مما لم يجدوه عند غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

من هؤلاء: المستشرق البريطاني المعروف «توماس أرنولد» الذي وضح ذلك في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» وأقام عليه الأدلة التاريخية، من مئات الوقائع التي جمعها من شتى الأمصار، وشتى الأعصار، وشتى المصادر، وهي تدل دلالة قاطعة على السماحة التي يتمتع بها المسلمون في معاملة المخالفين.

وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن وزميلاه، وأشادوا فيه بالجهد العلمي الكبير الذي بذله الرجل، وبخلق الإنصاف الذي اتصف به. وهو يكتب هذا السفر[2] .

ومن هؤلاء الغربيين المنصفين: المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي «غوستاف لوبون» الذي نوه بذلك في كتابه «حضارة العرب»، فكان مما قاله:

---

(١) الفروق ج٣ ص ١٥ .

(٢) انظر: مقدمة ترجمة كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف توماس أرنولد، للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه.

رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته. وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب. والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثيرين منهم: تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصا بنا.

قال روبرتسون في كتابه «تاريخ شارلكن»: «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم، ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية».

وقال ميشود في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»: «إن القرآن الذي أمر بالجهاد: متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، في حين ذبح الصليبيون المسلمين، وحرقوا اليهود، بلا رحمة وقتما دخلوها»!

وقال الراهب ميشو في كتابه «رحلة دينية في الشرق»:

«ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح، الذي هو آية الإحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»[1]. اهـ.

ولا بأس أن أضيف هنا إلى ما تقدم صفحة جديدة عن معاملة أهل الذمة في العصرين: الأموي والعباسي، لنزداد إيماناً بما عرفناه من سماحة الإسلام وتسامح المسلمين... وقد مرَّ بنا من عدل الراشدين وتسامحهما ما فيه كفاية وغناء.

---

(١) حضارة العرب: حاشية ص ١٢٨.

التسامح في العصر الأموي:

أما في العصر الأموي فأكتفي بنقل هذه السطور من كتاب «قصة الحضارة» لـ«ول ديورانت» يقول:

«لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يُفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص، وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير. ولم تكن هذه الضريبة تُفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويُعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين دون البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمي، والشديدو الفقر، وكان الذميون يُعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل: لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها ٢,٥٪ من الدخل السنوي[1]، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم. وقضاتهم وقوانينهم»[2].

التسامح في العصر العباسي:

أما العصر العباسي - عصر ازدهار الحضارة الإسلامية - ومكانة أهل الذمة فيه، فيكفينا مؤنة الحديث فيه صفحة أخرى ننقلها من كتاب «الإسلام وأهل الذمة»[3]

---

(١) الزكاة ليست على الدخل السنوي بل على رأس المال النامي وما يدره من دخل، مثل زكاة النقود والتجارة. وبعض أنواع الزكاة مثل دخل الاستغلال الزراعي فيه ١٠٪ أو ٥٪ حسب طريقة الريّ كما هو مقرر في الفقه.

(٢) قصة الحضارة ١٣ ص ١٣١.

(٣) الإسلام وأهل الذمة ص ١٧٠.

للدكتور الخربوطلي، لأنه يعتمد فيما يقرره على المراجع التاريخية الأساسية، أو على كتابات المستشرقين أنفسهم. يقول:

«اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه. ومن هؤلاء: جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد، الذي قال الرشيد عنه: كل من كانت له حاجة عليّ فليخاطب بها جبريل؛ لأني أفعل كل ما يسألني فيه، ويطلبه مني. وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهريًا. ومن هؤلاء أيضًا: ماسويه الذي كان الرشيد يجري عليه ألف درهم سنويًا، ويصله كل سنة بعشرين ألفاً».

وأشاد ترتون[1] بتسامح المسلمين فقال: «والكُتَّاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم، حتى ليسمون حنين بن إسحاق برأس أطباء عصره، وهبة الله بن تلميذ بأبوقراط عصره، وجالينوس دهره.

«وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل، حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه وفي حسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة. ومباراته في الطيب والجواري والعبيد».

ولما مرض سلمويه بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام.

«أما يوحنا بن ماسويه فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد إلى المتوكل، وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئا من أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثَمَّ لم يكن هناك أدنى كُلفة بينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين».

---

(١) ص ١٤٥-١٤٧.

واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميدان الآداب والفنون، فيقول ترتون: ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثيراً من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالاً من غير المسلمين.

ويقول المؤرخ: «درس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين. من ذلك أن حنين بن إسحاق درس على أيدي الخليل بن أحمد وسيبويه حتى أصبح حُجَّة في العربية[1].

وتتلمذ يحيى بن عدي بن حميد - أفقه رجال عصره في المنطق - على يد الفارابي.

ودرس ثابت بن قرة على يد علي بن الوليد من رجال المعتزلة، وكان حسن الخط، متمكنا من الأدب، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره، وقوة معرفته. وما لبث أن اعتنق الإسلام[2].

ويضرب المؤرخ ترتون لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلا فيقول: «يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثلا لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة، فامتدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة باختيار بن معز الدولة البويهي أن يوليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفا في مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عباد، والشريف الرضي، مراسلات ومواصلات رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظا للقرآن»[3].

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ١٣٦ في الحاشية.
(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء جـ١ ص ١٨٥.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان.

واهتم الكتّاب المسلمون بالأديان والمذاهب، فكان ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ - ١٠٦٤م) ملما بالإنجيل واللاهوت المسيحي إلماما تاما. وألمّ ابن خلدون بالإنجيل والتنظيمات الكنسية وتحدّث عن بعضها في مقدمته، وكان القلقشندي يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعياد الذميين الدينية، وذكر المقريزي كثيرا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود، وتحدث عن فرقهم المختلفة، وذكر أسماء بطارقة الإسكندرية، وتحدث كل من القزويني والمسعودي عن طوائف أهل الذمة. نرى هذا واضحا في كتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودي.

واعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال: «كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين. وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود، بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، فاكتنزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية»[1].

من روائع حضارتنا:

ونختم هذا الفصل بما ذكره العلامة السباعي عن تسامح المسلمين في كتابه «من روائع حضارتنا» فقد قال بعد أن ذكر وقائع وأحداثا تشهد بالتسامح الرائع في تاريخ الأمة:

«وبعد، فإن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به.

---

(١) أهل الذمة في الإسلام ص ٢٥٦.

يقول المستر «درايبر» الأمريكي المشهور: إن المسلمين الأوائل في زمن الخلفاء لم يقتصروا في أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى مناصب الدولة، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة.

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر «ولز» في صدر بحثه عن تعاليم الإسلام: «إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها. . .» إلى أن يقول عن الإسلام: «إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة».

ويقول السير «مارك سايس» في وصف الإمبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد: «وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة».

ويقول «ترتون»: «لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين».

ويقول «ليفي بروتستال» في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر:

«إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانيّا أو يهوديّا، والوظائف مما يقلده النصارى واليهود، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوربا الغربية».

ويقول «رينو» في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: «إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين، فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير».

ويقول «أرنولد» وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية: «ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حَرّمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من غير المسلمين بالعدل والقسطاس، مثال ذلك: أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها» . . . وإذا نظرنا إلى التسامح الذي على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي: ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.

وإذا كنا قد توسعنا في التدليل على التسامح الديني في حضارتنا، فإنما نريد أن نرد فرية هؤلاء الغربيين المتعصبين على تاريخنا، بأننا كنا قساة أكرهنا الناس على الدخول في ديننا، وعاملنا غير المسلمين بكل مذلة واضطهاد. وكان من الخير لهم: ألا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب، فإن مخازيهم في التعصب الديني ضد المسلمين في الحروب الصليبية، وفي إسبانيا، وفي العصر الحاضر مما يطأطؤن منه رؤوسهم حَياء وخجلاً، بل إن مخازيهم في اضطهاد بعضهم لبعض مما لا ينكره كل دارس للتاريخ، وهذه مذابح الكاثوليك والبروتستانت، وخاصة مذبحة «سانت بارتلمي»، والحروب الدينية التي شنتها البابوية على مخالفيها من شعوب أوربا، ومآسي محاكم التفتيش في القرون الوسطى، كل ذلك دليل لا يُردّ على أن الغربيين من أشد الناس تعصبًا وحقداً على مخالفيهم في الرأي والعقيدة، ولو كانوا من أبناء جلدتهم! وأنهم لم يعرفوا التسامح الديني خلال تاريخهم في العصور القديمة كلها، ولا يزالون حتى اليوم يتحكم فيهم هذا التعصب الديني المقيت ضد المسلمين تحت ستار شفاف من السياسة والاستعمار.

ونرى خير ما نختم به هذا البحث في التدليل على تسامحنا وتعصبهم، شهادة لحبر من أحبار النصرانية ليس بمتَّهم في تحيزه. لقد تحدث بطريرك أنطاكية ميخائيل الأكبر - وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامي خمسة قرون - عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية: «وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرّد بالقوة والجبروت، والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم، الذين لجئوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في ممتلكاتهم كافة، وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة: أرسل أبناء إسماعيلَ (العرب) من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفي الحق أننا إذا كنا في تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها - وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران - مع ذلك لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام».

ألست ترى معي أن قول غوستاف لوبون: «إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم» هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافا للمسلمين[1]؟!..

---

(١) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي (١٣١-١٣٥).

٥ ـ قدرة الإسلام على الانتشار السلمي

ومن مآثر تاريخنا: أنه سجل لديننا قدرته على الانتشار السريع، ودخول الأمم فيه أفواجا، بأدنى دعوة إليه، وإن لم يقم بهذه الدعوة أناس محترفون متخصصون في التبشير به، متفرغون له.

وسر ذلك: أن هذا الدين ـ بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته ـ تتوافر فيه: موافقة الفطرة، وملاءمة العقل، وتزكية النفس، وسمو الروح، وصحة الجسم، وتماسك الأسرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإشاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان.

وأبرز ما في هذا الدين سهولة عقائده التي ليس فيها غموض ولا التواء ولا تناقض، تقبلها الفطرة السليمة، ويسلم لها العقل المستقيم.

فلا غرو أن انتشر دين الإسلام انتشار أضواء الصباح، فملأ الآفاق، ومحا الظلام، واستنارت به الأبصار والبصائر، ورحب الناس به في عامة الأقطار.

لم يكن «السيف» هو الذي أدخل الناس في الإسلام، كما زعم بعض خصوم الإسلام، فإن السيف قد يفتح أرضا للاحتلال، ولكنه لا يفتح قلبا للهداية.

بل إن الإنسان ـ بطبعه ـ يأبى أن يدخل في دين من يقهره عليه بالسيف.

على أن الإسلام ذاته ينكر إكراه الناس على الإيمان، ففي القرآن المكي يخاطب الله رسوله فيقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

وفي القرآن المدني يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

بل إن القرآن لا يعتدّ بإيمان من لم يؤمن عن طواعية واختيار حر، لا تشوبه أي شائبة من ضغط أو إكراه، ولهذا لم يقبل إيمان فرعون ساعة الغرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠). فكان الجواب الإلهي عليه: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١).

وقال عن قوم مكذبين نزل عليهم عذاب الله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (غافر: ٨٤، ٨٥).

الحق أن سهولة تعاليم الإسلام، وسمو أخلاق المسلمين: هما اللذان مهدا السبيل لدخول الأمم في الإسلام، وليس السيف، كما تقول المتقولون.

انتشار الإسلام بفضائله وقوته الذاتية:

ولقد ألف المؤرخ المعروف الدكتور حسين مؤنس كتابا أسماه «الإسلام الفاتح» وقال عنه: إنه دراسة في تاريخ البلاد التي فتحها الإسلام بفضائله وقوته الذاتية، دون أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب. وقد تتبع انتشار الإسلام في هذه البلاد، وبين كيف دخل الإسلام إليها، بما يقطع كل شك، ويرد على كل تخرص بأن المسلمين استخدموا القوة في نشر دينهم. يقول د. مؤنس رحمه الله:

«لم يسبق فيما مضى أن كانت للمسلمين سياسة موضوعة لنشر الإسلام، يقوم عليها رجال متخصصون يجرون في أعمالهم على مناهج مقررة، كما هي الحال في النصرانية مثلا، حيث نجد البابوية الكاثوليكية، وما تبعها من منظمات

كهنوتية كالفرنشسكية والدومينيكية والجزويت، وكذلك ما تنظمه الهيئات البروتستانتية من حملات تبشير، تعد رجالها في معاهد متخصصة، وتنفق عليها المال الوفير، ثم ترسلهم إلى البلاد البعيدة لدعوة الناس إلى أديانها بأساليب علمية مدروسة، لإقناع من يصادفونه من الناس بصدق ما يدعون إليه، وإدخالهم في العقيدة، ويبلغ الأمر أن يطلّق أولئك الدعاة الدنيا، ليخلصوا للدعوة خلوصا تاما، كما نعرفه في جماعات الرهبان المسيحية والبوذية أحيانا.

في الإسلام لا نجد شيئا من هذا إلا في عصرنا اليوم، عندما تزايدت تيارات التبشير غير الإسلامية، ولم يعد هناك مناص من أن يُعنَى المسلمون بالدعوة وتنظيمها، وإعداد الرجال القادرين عليها، فيما عدا ذلك كان الإسلام هو الذي نشر نفسه بنفسه: هو الذي دعا لنفسه واجتذب قلوب الناس؛ فأسلموا حبا في الإسلام، وإعجابا به، والتماسا لرحمة الله وهداه.

وإنه لمما يستوقف النظر: أن قوة الإسلام الذاتية قد غلبت تنظيمات الدعاة، وأثبتت أنها أفعل وأبعد أثرا من المال الذي أنفقه الآخرون على دعاواهم، فانتشر واتسع مداه، ودخلت فيه الأمم بعد الأمم، من تلقاء نفسها بمجرد وصول الدعوة إليها. ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد، ويعرضون الإسلام على أهله، ثم يدعونهم وشأنهم؛ حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية في تمهل، حتى لقد ذهب بعض الشانئين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون بنشر دينهم، وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام، وما إلى ذلك مما نجده مسطورا في كتب أعداء الملة.

وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام، وإنما كان سيرا على أسلوب الدعوة في عهدها الأول: أسلوب عرض الدين على الناس، وتركهم بعد ذلك أحرارا إلى أن يهدي الله منهم من يشاء.

ومن غريب ما حدث في بلاد مصر والأندلس: أن كان مسلك العرب هذا أدعى

إلى دخول الناس في الإسلام، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم: أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام، ولا يستخدمون القوة في ذلك، كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون؟

قال يولوج الراهب القرطبي المبغض للإسلام: «فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام، فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليه، لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به، وضنهم به على غيرهم، فما زالوا يفعلون ذلك، ويسألون عن الإسلام ويستفسرون، حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا».

ولقد قال الراهب القبطي يوحنا النقبوس شيئا من ذلك، وكان متأسفا: لأن العرب لم يلجئوا إلى القوة في فرض الإسلام، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة، ولما وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميسر إلى القلوب في مصر والأندلس.

وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر، وكانوا من أشد الناس استمساكا بعقيدتهم، حتى لقد استشهدت في سبيلها منهم جماعات بعد جماعات، على أيدي عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس، وطغاة الروم من أمثال قيرس، فلا تجد لتساؤلك جوابا؛ لأن التحول إلى الإسلام في هذين البلدين - مصر والأندلس - تم في هدوء وسكون: انسابت العقيدة في قلوب الناس، كما ينساب الماء في أرض الزرع، فتخضر وتزهر وتثمر بإذن ربها.

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه، فهذا الرجل الفريد في بابه، الذي وهب نفسه للإسلام، كان يلقى رئيس القبيلة، ويحدثه، ثم يدعوه إلى الإسلام؛ فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة، ثم يتبعه بعد ذلك قومه.

إن مداخل الإسلام إلى القلوب، هي سماحته وبساطته وإنسانيته. إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال، ويفتح له إلى الله سبحانه بابا واسعا للمغفرة والأمل وثواب الآخرة، وكل ذلك دون مقابل. في أديان أخرى تفرض عليه أموالا وهدايا وقرابين، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار.. لا شيء من هذا في الإسلام، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلا ذلولا.

أما مسالك الإسلام، فهي ضروب الأرض جميعا: لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر، بالحرب والسلم، لقد اخترق الجبال والشعاب، وأوجد لنفسه طرقا ومسالك لا تخطر على بال أحد. لقد اشترك في نقل الإسلام حتى الكفار، ومن بين المستشرقين رجل - سنتحدث عنه - نصح حكومته بترك الإسلام ينتشر، حتى يشتغل به الناس، ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين، وأخذت الدولة بكلامه.

وانساح الإسلام في إندونيسيا حتى عمها كلها. وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الونقارة في غربي إفريقية على سبيل العناد مع جارتها، فلما دخلت فيه سعدت وارتقت وسادت وتبعتها خصمتها الأولى... بفضل هذه العداوة - التي أصبحت صداقة - اخترق الإسلام مائتي كيلومتر من الغابات الاستوائية التي لا يخترقها أحد إلا بمشقة، وهذه القبيلة - وتسمى الونقارة آيا - تُعَدّ في مقدمة قبائل داهومي، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة. لقد دخلت الإسلام دون أن تدري أي حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين.

الإسلام دين طيار:

والخلاصة: أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا

فيها، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا ينتقصه شيئا، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى، ويجد الطريق إليه فيقف بين يديه خمس مرات في اليوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإسلام، وكلها خير ومساواة وعدل. في حين يتقاضاه رجال الدين في الأديان الأخرى - كما قلنا - الإتاوات في كل مناسبة، فهو يؤدي مالا إذا تزوج، ويؤدي مالا كلما أنجب ولدا، ويؤدي مالا ليعمِّد الطفل الوليد، ثم مالا آخر ليثبته في الجماعة المسيحية إذا ضرب في مداخل الشباب، بل يؤدي مالا إذا مات له ميت لكي تصلى عليه صلاة الجنازة، وبالإضافة إلى ذلك يظل عمره كله تابعا لرجل الدين في كل ما يتصل بالله سبحانه، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القس، ووقف هو يسمع ولا يملك إلا أن يقول: آمين، ولكن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه، حتى لو كانت صلاة الجماعة، وفي غير الإسلام يصلى القس مع مساعديه نيابة عن الناس.

والحق: أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام، أنه «دين طيار» ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر، كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح! وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمل مدى انتشار الإسلام، فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي المساحة التي فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام. أما الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياسة مرسومة لذلك!!، إنما هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفا على القلوب، قريبا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه، فهو الري الذي تظمأ إليه النفوس وتستقي منه، وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في هذه

الدنيا، ويهون عليه الموت، فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة، بل هو المدخل إلى الحياة فحسب، وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى.

ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هو: وضوحه وصدقه، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك، كما ترى في الأديان الأخرى، حتى الغيب الذي تؤمن به في الإسلام حقيقة، فإن الإنسان لا يرى الله بالعين المبصرة، وإنما يحس به في نفسه، وفي كل ما حوله بالبصيرة المنيرة، والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالقه، فهو الحق ولا حق غيره، وأنت لا تؤمن بالله؛ لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق، وإنما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق، وكلٌ ما فيه معجز وخارق، وأنت تراه رأي العين في شخصك الذي يعيش ويتحرك ويفهم، لا تدري كيف، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك، وحركة جسدك، ونبض قلبك؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أن تؤمن بنبيه الذي حمل إليك رسالته، فالله سبحانه حق، ونبيه صدق، وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى في نفسك، وغاية ما تحتاج إليه من يذكرك بها، وهذا معنى من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم[1]». أ. هـ.

شهادة غوستاف لوبون:

هذه شهادة مؤرخ كبير مثل الدكتور حسين مؤنس، ولكن قد يقال: إنها شهادة مسلم لدينه. فهذه شهادة أخرى من مؤرخ غير مسلم، وهو المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الشهير «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» الذي نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر.

---

(١) الإسلام الفاتح لحسين مؤنس: ٢٠ - ٢٤. نشر الزهراء للإعلام العربي.

فلسفة القرآن وانتشاره في العالم:

يقول لوبون تحت عنوان «فلسفة القرآن وانتشاره في العالم»:

إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسة: أمكننا عدُّ الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمن على كل شيء، ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم. (كما في النصرانية) وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم.

ويشير لوبون إلى يسر الإسلام، وسهولته البالغة والتي تتمثل في عقيدة التوحيد الخالص، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، وهي التي تجعل إدراك الإسلام سهلا على كل إنسان، فليس في الإسلام غموض ولا تعقيد، مما نراه في الأديان الأخرى وتأباه الفطرة السليمة، من المتناقضات والغوامض.

قال: ولا شيء أكثر وضوحا، وأقل غموضا، من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله. وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها. وإنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أي طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة. وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثا عن التثليث، والاستحالة، وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل!

وساعد وضوح الإسلام البالغ: ما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة، على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصر أي أمة، بعد أن رضيت بالإسلام دينا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني: ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده. والإسلام إذا ما نظر إليه من هذه الناحية: وجد أنه من أشد الأديان تأثيرا في الناس، وهو - مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة، إلخ - يعلِّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلا عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيمانا ثابتا لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيما إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائما، فلما ظهر محمد، ومضى على ظهوره قرن واحد، كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي خفقت راية النبي فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس، وحملا على العدل والإحسان والتسامح، والبدهيةُ، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة، تراها مضطرة أن تتحول تحولا تاما لتستمرئها الجموع، وهي - لا شك دون الإسلام في شكلها المعدّل هذا.

وجرت حضارة العرب، التي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدُّثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ماله في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئا من قوتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص[1]، واعتنقته

---

(١) قيل هذا في القرن التاسع عشر، ومع هذا كان المسلمون أكثر من ذلك بكثير. وسيأتي من كلام «لوبون» نفسه ما يدل على أن المسلمين أكثر من ذلك.

جزيرة العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسية الصغرى وجزء كبير من الهند وروسية والصين، ثم جميع إفريقية إلى ما تحت خط الاستواء تقريبا.

وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورا لها وحدة اللغة والصلات التي يسر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يُمكِن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام.

وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة، فعزوها إلى ما زعموه من تحلل محمد وبطشه، ويسهل علينا أن نُثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وإن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبا على الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمد، وإن هذه الشعوب لم تجد نفعا جديدا في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلل محمد نقضه العلامة الفيلسوف «بيل» منذ زمن طويل. وقال بيل، بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشد مما أمر به النصارى:

«إن من الضلال، إذن، أن يُعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلى أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنه يبيح له البقاء على سيئ الأخلاق، وقد دوَّن «هوتنجر» قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى - مع القصد في مدح الإسلام - أن هذه القائمة تحتوي

أقصى ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن العيوب والآثام»[١].

ومما نبه إليه العلامة «بيل»: أن ملاذ الجنة التي وعد بها المسلمون لا تزيد على ما وعد به النصارى في الإنجيل. جاء في الإنجيل: «لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب إنسان: ما أعده الله للذين يحبونه».

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتح العرب وأسباب انتصاراتهم: أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها[٢]، ويزيد عدد مسلمي الهند اليوم يوما فيوما، مع أن الإنجليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهِّزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

---

(١) وقال الفيلسوف الشهير «كارلايل» في كتابه الأبطال في فصله الذي كتبه عن البطل في صورة نبي، واتخذ النبي محمدا نموذجا ممثلا للبطولة: «إن دينه ليس بالدين السهل، فإنه ـ بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر ـ لم يفلح في أن يكون دينا سهلا» انظر: الدعوة إلى الإسلام ص٤٦٠ لتوماس أرنولد.

(٢) هذه إحصاءات قديمة من القرن التاسع عشر، ومع هذا ليست دقيقة.

ولم يكن القرآن أقل انتشارا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا[1] في الوقت الحاضر.

وليس فيما يوصم به الإسلام من الجَبْرية ما يزيد خطرا على ما رددنا عليه، وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفا من الجَبْرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلا[2]. وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسنة لا تتبدل، قال المصلح الديني القدير لوثر: «يحتج على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المقدس التي لا تحصى، وإن شئت فقل بكل ما ورد في الكتاب المقدس».

وكتب جميع الأمم الدينية مُفَعَّمَة بالجَبْرية التي يسميها القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر، الذي لا راد لحكمه، على رأس كل أمر، عادِّين إياه سلطة مطلقة لا مناص للناس والآلهة من إطاعتها، وحاول «أديب» على غير جدوى، أن يضرع إلى هاتف الغيب الذي أخبره بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه، فلم يستطع ردا لحكم القدر الجبار.

ولم يكن محمد، إذن جَبْريا أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا قبله، ولم يسبق محمد في جبريته علماء الوقت الحاضر الذين أيدوا مع العلامة لابلاس رأي

---

(١) إذا كان المسلمون في الهند يزيدون على ٥٠ مليونا، وفي الصين على ٢٠ مليونا، فكيف يكون عدد جميع المسلمين مائة مليون، كما قال الباحث من قبل؟!!

(٢) بل هناك مئات الآيات من القرآن في سوره المكية والمدنية تثبت بكل وضوح: أن الإنسان مكلف مختار، وأنه هو الذي يقرر مصير نفسه، وأن الله تعالى منحه من القوى والمواهب والملكات: ما يمكنه من صنع مصيره بيده، كما قال تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الإسراء: ١٥). ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر: ٣٨). ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: ٢٨٦). ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥). إلى آخره.

الفيلسوف ليبنتز في القول: «إنه إذا وجد ذكاء يعرف، لوقت، جميع قوى العالم، ومواضع ما فيه من الموجودات، ويستطيع أن يحللها، ويحيط بمحركات أعظم أجرام العالم وأصغر ذراته، فإنه لا يبقى عنده شيء غير معين، ويصبح الماضي والمستقبل حالا في نظره».

والجَبْرية الشرقية التي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر هي نوع من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضع لحكم القدر من غير تبرم وملاومة، وتسليم مثل هذا هو وليد مزاج أكثر من أن يكون وليد عقيدة، وقد كان العرب جبريين في مزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجبريتهم تأثير في ارتقائهم، كما أنها لم تؤد إلى انحطاطهم[1]. أ. هـ.

توماس أرنولد ينصف الإسلام:

وإذا كان غوستاف لوبون الفرنسي قد أنصف الإسلام وتاريخ المسلمين في كتابه، فقد جاء بعده المستشرق البريطاني البحاثة الشهير «توماس أرنولد» الذي كان يعرف العربية والفارسية وعددا من اللغات الأوربية، والذي أصدر كتابه القيم «الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية» وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، (١٨٩٦م).

وقد طبع الكتاب بالإنجليزية عدة طبعات، ونقله إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن وزميلاه، ونشر عدة مرات ابتداء من سنة ١٩٤٧م.

والكتاب جدير بأن يقرأ، لما فيه من وقائع وأحداث مأخوذة من مصادر عدة وموثقة، ومكتوبة بلغات شتى، عكف الرجل عليها، حتى استخرجها من مظانها وحشدها في كتابه العلمي الموثق.

---

(١) انظر: حضارة العرب.

٦ ـ القدرة على تجاوز المحن الكبرى

ومما يدل على «القوة الذاتية» في الإسلام وفي أمته، ويدل على أصالة معدنها، وعمق جذورها: أن الإسلام قد تعرض لـ «محن كبرى» منذ فجر تاريخه، لو تعرضت لها أمة أخرى، ليس لها أصالتها ومتانة بنائها، وقوة دعائمها وأسسها، لزالت من الوجود، وطويت صحفتها من التاريخ.

ولكن التاريخ قد أثبت بوقائعه وشواهده: أن هذه الأمة أصلب ما تكون عودًا، وأشد ما تكون قوة، وأعلى ما تكون همة، عندما تحيط بها الشدائد، وتحل بساحتها الأزمات، وتتلبد في سمائها الغيوم، فهي حينئذ تستجمع قواها، وتستثير كوامنها، وتظهر ذخائرها، وتقف في مواجهة الهجمات الغازية، والمحن القاسية، بإيمان صُلْب، وصبر جميل، وثبات نبيل، وتوكل على الله، حتى يجعل الله لها من عسرها يسرًا، ومن ضيقها فرجًا، ومن مأزقها مخرجًا، ومن ظلام ليلها صبحًا مشرقا، ونهارًا مضيئًا. وبهذا أثبتت الأمة عراقتها وأصالتها، وأنها قادرة على امتصاص الهزائم، واجتياز المحن والشدائد العظام، والوصول إلى بر الأمان في نهاية بسلام.

(أ) محنة الردة:

أول هذه المحن التي أصابت الإسلام، وهو في مهده: محنة الردة، التي تمثلت في ارتداد قبائل العرب بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم، واتباعهم للأنبياء الكذبة الذين ظهروا فيهم، من كهّان الجاهلية، الذين زعموا أنهم يوحى إليهم، كما أوحي إلى محمد! وسارت قبائلهم وراءهم، من باب

العصبية، وهم يعلمون كذبهم، ولكنهم قالوا: كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!

واجه أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الأول: هذه المأساة أو الكارثة، بمجرد أن تولى الخلافة: واجه المرتدين الذين اتبعوا أنبياءهم الكذابين، وواجه آخرين قالوا: نقيم الصلاة، ولا نؤتي الزكاة! الزكاة إنما كانت تعطى للنبي ليصلي علينا، وصلاته سكن لنا، وليس ذلك لأحد من بعده، مستندين إلى الآية الكريمة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٣). ونسي هؤلاء أن هذه الآية خطاب للنبي ولكل من يقوم بالأمر من بعده، عليه أن يأخذ الزكاة ويدعو لدافعها. وهذا معنى الصلاة عليه: الدعاء له.

وهنا وقف هذا الرجل الرقيق الخاشع البكاء كالأسد الهصور، بل كالطود الأشم، في مواجهة هذه الردة الشاملة، وأبى أن يهادنهم أو يؤجلهم، كما أشار بعض الصحابة، وعزم على قتالهم جميعًا، ولما جادله عمر في شأن مانعي الزكاة قال في تصميم المؤمن وإيمان المصمم: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة! والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه![(١)]

وجهز الرجل الصلب أحد عشر جيشًا لقتال هؤلاء وهؤلاء، وكتب الله له النصر، وعاد هؤلاء المارقون والمرتدون إلى حظيرة الإسلام. وأصبحوا جندًا في جيوشه لمقارعة الدولتين الكبريين: فارس والروم. وكانوا من أشد الناس حماسة في حربهم لأعداء الإسلام، تكفيرًا عما سلف من ردتهم، وطمعًا في أن يغفر الله لهم، ويتقبل منهم توبتهم، ويبدل سيئاتهم حسنات.

(ب) الفتنة الكبرى بين الصحابة:

ومن المحن العظيمة، والفواجع الهائلة؛ التي ابتلي بها الإسلام، في فجر

(١) حديث متفق عليه عن أبي هريرة. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٣).

تاريخه: «الفتنة الكبرى» التي قتل فيها الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وأدت نتائجها إلى مواجهات وقعت بين الصحابة بعضهم وبعض، حتى قاتل بعضهم بعضًا في معارك معروفة، شب أوارها، واشتعلت نارها: «معركة الجمل» و«معركة صفين». الأولى: قادتها أم المؤمنين عائشة ومعها اثنان من كبار الصحابة: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وكلاهما كان من الستة المرشحين للخلافة بعد عمر، كما أنهما من العشرة المبشرة بالجنة، ومن السابقين الأولين للإسلام. وممن أبلوا بلاء حسنا في نصرة الإسلام. والثانية: وقعت بين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان أمير بلاد الشام، التي أمره عليها عمر بن الخطاب، وثبته عليها عثمان. رضي الله عنهم.

وقد أفرخت هذه المعركة جماعة خرجوا على عليّ كرم الله وجهه، وهم في الأصل من جنده، اتهموه بأنه حكّم الرجال في دين الله، مع أنه لا حكم إلا لله. وهم جماعة الخوارج، الذين قاتلهم عليّ في معركة النهروان، وانتصر عليهم.

قتل في هذه المعارك من المسلمين ما لم يقتل في حروب المشركين واليهود والفرس والروم، ودخل الكائدون للإسلام والمتربصون به في هذه الأحداث، لينفخوا فيها، ويجعلوا من الحبة قبة، ومن الشرارة نارًا مستعرة، مثل عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام، ليهدمه من الداخل، ويشيع الأباطيل، ويوقد النار كلما أوشكت أن تطفأ، أو يقترب الفريقان من الصلح والوئام.

ولكن سرعان ما انقشع ذلك كله، بخطوة شجاعة مؤمنة، قام بها رجل مؤمن شجاع، آثر الآخرة على الأولى، ورضا الخالق على رضا الخلق، وتنازل بإيثار وزهد عن منصب الخلافة، بعد أن بايعه أنصاره وأنصار أبيه بالخلافة، ونادوه بأمير المؤمنين، ولكنه زهد في ذلك كله، ليجمع كلمة المسلمين، ويتنازل لخصمه عن الخلافة راضيًا مختارًا.

إنه سبط رسول الله، وأشبه الناس به، ابن عليّ المرتضى، وابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين: الحسن بن عليّ، الذي وحد الله به الأمة، وجمع به الشمل، حتى سمي عام تنازله عن الخلافة لمعاوية «عام الجماعة» وصدق فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

وكان هذا الصلح وهذا الوئام خيرا للأمة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية فتوحدت الجهود، وتوجهت الهمم لنشر الإسلام في الخارج، وتقوية المسلمين في الداخل. واتسعت فتوح الدولة الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

(جـ) حروب الفرنجة (الصليبيين):

ومن المحن والشدائد الكبرى التي ابتلي بها المسلمون في تاريخهم: الحروب التي قادها الأوربيون بتحريض من قساوستهم ورجال دينهم، مثل «بطرس الناسك» وغيره، وجاءوا في زحوف وحملات إلى الشرق الإسلامي، لعوامل وأسباب، ظاهرها ديني، وباطنها استعماري. ولهذا سماها مؤرخو المسلمين: «حروب الفرنجة» يشيرون بهذه التسمية إلى أنها «حروب استعمارية» قادها الفرنجة - وهم الأوربيون - لغزو ديار المسلمين، وانتهاب خيراتهم، والاستيلاء على مقدراتهم.

أما الأوربيون فهم الذين سموها «الحروب الصليبية» لأنها رفعت «الصليب» شعاراً لها، وزعموا أنهم جاءوا لينقذوا «قبر المسيح»[2] من أيدي المسلمين. وقد ظل قبر المسيح، وكنائس المسيح، وكل ما يقدسه النصارى محفوظًا ومحروسًا

(١) رواه البخاري (٢٥٥٧) عن أبي بكرة.

(١) إن المسلمين يعتقدون أن المسيح لم يمت ولم يقبر، ولكنهم يحرسون كل ما يقدسه المسيحيون.

ومرعيًا من قبل المسلمين، لا تمتد إليه يد بعدوان، لأن من يفعل ذلك يستحق عقوبة ولي الأمر، وسخط الرأي العام الإسلامي، الذي يرى الحفاظ على مقدسات المسيح والمسيحيين من لوازم عقد الذمة، والوفاء به فريضة على المسلمين حكاما ومحكومين.

جاءت هذه الحملات - التي بلغت تسعًا - تعيث في الأرض فسادًا، ولا تراعي لأحد حرمة، ولا ترقب في مؤمن إلا ولا ذمة، حتى اعتدوا في طريقهم إلى فلسطين على كثير من إخوانهم المسيحيين في أنفسهم وأموالهم.

جاء الصليبيون والمسلمون في حالة تفكك وتفرق، وضعف ووهن، الحكام مشغولون بأهوائهم وشهواتهم، يكيد بعضهم لبعض، والشعوب مشغولة بلقمة عيشها، غافلة عما يدور حولها، والعلماء مشغولون بكتبهم وحلقاتهم وأوقافهم، لا يدرون بما تمور به الأرض من حولهم، وبعضهم مشغول بنجاة نفسه من النار، ومهموم بإصلاح قلبه، وتزكية نفسه، والاستغراق في ذكر ربه، والفناء عما حوله! وهذا المناخ ملائم جدًا للغزاة المغامرين، ليفاجئوا أمة ليس لها قيادة سياسية قوية واعية تشعر حقيقة بالمسؤولية عن رعيتها، ولا قيادة فكرية مستنيرة، تبصِّر الأمة بالأخطار المحدقة بها.

ودخل الصليبيون بلاد الشام، وفلسطين جزء منها، وهي المقصود أولا وبالذات، وتغلبوا بسهولة على أمرائها، واستطاعوا أن يضربوا بعض أمرائها ببعض، وأن يستعينوا بالعملاء والخونة على إخوانهم. وأقاموا لهم إمارات وممالك صغيرة، استمر بعضها ٢٠٠ (مائتي سنة) أو تزيد.

واستولوا على بيت المقدس، بعد مذبحة هائلة سجلها التاريخ، قتل فيها عشرات الألوف، حتى غاص الناس في الدماء للركب.

ولم يكتفوا بالشام وفلسطين، فامتدت أعينهم إلى مصر، وحاصروا دمياط.

امتدت هذه المحنة وطالت، والناس تنتظر القائد البطل، الذي يقودهم

للمعركة الحاسمة، ولا يملكون إلا الدعاء ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

ومن خلال الظلام الغاسق، ينبثق الفجر الصادق، فهيَّأ الله للنصر الموعود رجالاً، لم يكونوا من جنس العرب، ولكن عرَّبهم الإسلام.

كان أولهم عماد الدين زنكي التركي الذي بدأ الخطوات الأولى في مسيرة الجهاد ضد الصليبيين.

ثم تسلم الراية منه ابنه البطل المؤمن الشجاع، العادل الزاهد، الذي كان يشبَّه في سيرته بالخلفاء الراشدين: نور الدين محمود الملقب بـ «الشهيد». الذي أقض مضاجع الفرنجة أو الصليبيين، وضربهم ضربات موجعة، وخطط لضم مصر والشام، ليصبحا كتلة أو وحدة في مواجهة الغزوة الصليبية.

وتسلم اللواء بعده تلميذه صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي الأصل، الذي كتب الله على يديه النصر في أول معركة مع الصليبيين في «حطين» وكتب على يديه «فتح بيت المقدس» وتحريره بعد أن بقي: تسعين عاما في أيدي الغزاة.

واستمرت معارك في مصر مع الفرنجة، من أشهرها معركة «المنصورة» التي أسر فيها ملك الصليبيين (لويس التاسع) ملك فرنسا، الذي وضع في «دار ابن لقمان» بمدينة المنصورة.

وما زال قادة المماليك بمصر والشام يطاردون فلول الصليبيين وبقاياهم - من الظاهر بيبرس إلى قلاوون - حتى دحروهم عن آخرهم، ولم يبق لهم من باقية في ديار الإسلام.

وتفرغت دولة المماليك بعد ذلك للإصلاح الداخلي، فبُنيت الجوامع الشامخة، وأنشئت المدارس، وشيدت المستشفيات. وشغل العلماء بتأليف الموسوعات في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والتاريخ وغيرها.

(د) محنة الزحف التتري:

ولن ينسى التاريخ محنة كبرى، فجعت بها أمة الإسلام: تلت محنة الصليبيين، وصاحبتها في بعض أدوارها. وهي محنة «الزحف المغولي» أو «التتري».

فإذا كان الصليبيون جاءوا من الغرب، فإن التتار - أو المغول - جاءوا من الشرق، وهم قبائل بدوية، لا عهد لهم بالحضارة والثقافة، وكانوا في عنفوان قوتهم، وفي ريعان شبابهم، لهم قيادة مطاعة طاعة عمياء، يضفون عليها ما يشبه القداسة أو التأليه، تتمثل في ملكهم ومؤسس إمبراطوريتهم (جنكيز خان)، ثم خلفائه من بعده (هولاكو) وغيره.

انطلق هؤلاء من أقاصي الشرق كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليم إلا جعلته كالرميم. وقد زحفوا على المسلمين، وهم في غفلة لاهون، وفي غمرة ساهون، فانقضوا عليهم انقضاض الصقر على فريسته؛ وقهروهم بلدًا بلدًا، ومملكة مملكة. لم يقابلوا دولة كبرى على رأسها خليفة، بل قابلوا أقاليم محلية منقطعة بعضها عن بعض، فتغلبوا عليها واحدة بعد الأخرى. لم تستطع هذه الأقاليم القليلة نسبيًا في عددها، الضعيفة في تسليحها: الصمود أمام هذه القوة الجديدة الشابة المدربة الطامحة المنظمة.

وما زالت تمضي في طريقها، والبلاد تسقط أمامها بلا مقاومة أحيانًا، أو مقاومة لا تصمد طويلاً، حتى وصلت إلى عاصمة الخلافة العباسية، عاصمة المنصور والرشيد والمأمون: بغداد.

ولم تكن بغداد بأحسن حالاً مما سبقها، فإن الخيانة قد عملت عملها، ولم تلبث المدينة أن سقطت في براثن الغزاة المتوحشين. الذين ظلوا يذبِّحون ويقتِّلون الناس نحو أربعين يومًا كما قيل، وينهبون من الأموال والممتلكات ما استطاعوا. وقد قدر القتلى بألفي ألف (مليونين) وأدنى ما قيل: ألف ألف (مليون). حتى امتلأت الطرقات بالدماء والجثث، وسالت الميازيب من فوق

السطوح بالدماء، واحمر نهر دجلة، من كثرة الدماء التي وصلت إليه، ثم اسود بعد ذلك من كثرة الكتب التي ألقيت فيه، وسال مداده الأسود في النهر الكبير. كأنما أراد أن يلبس الحداد حزنا على ما جرى! حتى رأى المؤرخ الكبير ابن الأثير معاصر الزحف التتري في بدايته: ذكره لهذه الأحداث كأنما ينَعى الإسلام والمسلمين!

يقول في كتابه «الكامل في التاريخ» عن ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام فى أحداث سنة ٦١٧هـ: «لقد بقيت عدة سنين، معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا، وأؤخر أخرى! فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا! إلا أني حثتني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف. ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، وعمت الخلائق، وخصت المسلمين. فلو قال قائل: إن العالم - منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن - لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج. وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وبعض الناس ظنوا أنه يتحدث عن سقوط بغداد، والحقيقة أن لم يدركها، وقد توفى سنة ٦٣٠هـ، وهى كانت سنة ٦٥٦هـ.

ويقول المؤرخ ابن كثير: «وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما، ولما انقضى الأمر المقدور، وانقضت الأربعون يوما، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد، إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء،

---

(١) لكامل لابن الأثير (١٢/ ٣٥٨. ٣٥٩) طبعة دار صادر، ودار بيروت.

فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير، من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء!»[1].

ويعقب الكاتب المؤرخ المسلم د. عماد الدين خليل على الهجمة التترية الهائلة، وما خلفته من أثر على أمة الإسلام فيقول[2]: لقد كان الأمر يبدو كالليل الذي ناء بكلكله على مساحات واسعة من عالم الإسلام، حيث انطفأت مشاعل الحضارة، واهتزت معه الناس بقدرتهم على الفعل والتحقق والإبداع، وحيث الإحساس المدمر بالهزيمة يتوغل حتى النخاع. ونقرأ في مؤلف ابن الأثير كذلك ما يكاد يكون تجسيداً «كاريكاتيريًا» مضحكًا محزنًا للأمر الذي آل إليه الكثيرون من أبناء عالم الإسلام، يقول: «لقد حكى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد (من المغول) كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمدَّ يده إلي ذلك الفارس! ولقد بلغني أن إنسانًا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتري فأحضر سيفًا وقتله به! وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا: ليكتف بعضكم بعضًا، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف. فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينًا وقتلته، وهربنا فنجونا»[3].

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٠٣.

(٢) في كتابه «هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي» صـ١٠، ١١ ـ نشر بمكتبة النور بالقاهرة.

(٣) الكامل لابن الأثير ١٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.

انتصار الإسلام على التتار بعد سنتين من سقوط بغداد:

كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة، وظن الناس بالإسلام الظنون، وغلب اليأس على النفوس، وتصور الغالبون أن الإسلام قد طويت صفحته، وأن المسلمين قد غربت شمسهم، وأنهم هم الوارثون، وأن جندهم هم الغالبون.

وما هي إلا سنتان حتى قدر الله للموقف أن يتغير، وللريح أن تتجه لصالح المسلمين. فقد بعث القائد المغولي برسالة إلى القائد المملوكي في مصر، ترغي وتزبد، وتبرق وترعد، ينذر فيها المصريين: أن يفتحوا له الأبواب، ويفرشوا له السجاد، ويسلموا إليه القياد، وإلا كان لهم بالمرصاد، فجيوشه هي التي فتحت البلاد، وقهرت العباد.. إلخ ما قال.

وكان قائد مصر في تلك الفترة هو الرجل الصالح المظفر سيف الدين قطز، الذي قرأ الرسالة ومزقها أمام من حملها، وأمام رجاله وجنوده، ليشعرهم أنه لا يخافه ولا يبالي به ولا بجيوشه، وعند النزال سيبين من هم الرجال؟

وبدأ قطز يعد العدة، ويأخذ الأهبة، للقاء الغزاة، ومنازلة التتار، الذين شاع القول عنهم: إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق! أسطورة «القوة التي لا تقهر» التي أشاعها الصهاينة في زمننا.

واجتمعت مع القوة العسكرية والسياسية: القوة العلمية والدينية، فكان سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام يحرض الناس على الجهاد، ويدعو جنود المماليك أن يتوبوا إلى الله، ويتخلصوا من كل حرام يتزينون به من الذهب وغيره، ويخلصوا النية لله تعالى، وهو ناصرهم على عدو الله وعدوهم.

وسار قطز بجيشه ورجاله في شهر رمضان المبارك، وشاء الله لهم أن يلاقوا عدوهم في يوم الجمعة ٢٥ الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي بعد سنتين أو أقل من سقوط بغداد. عند قرية «عين جالوت» الفلسطينية.

وكان هذا اليوم يومًا من أيام الله، انتصر فيه المسلمون على التتار في معركة تعد من «المعارك الحاسمة» في التاريخ، هي معركة «عين جالوت». التي لم يقم بعدها للتتار قائمة تذكر من الناحية العسكرية.

وبعد هذا النصر العسكري الذي حققه المسلمون على الجيش الذي لم يكن يغلب؛ شاء الله أن يسجل للإسلام نصرا آخر، لم يكن يخطر لأحد على بال.

فقد رأينا التتار المتتصرين الممكنين، الذين استولوا على عدد من الأقطار، يحكمونها بقواتهم وقياداتهم - رأيناهم يختارون الدخول في دين الإسلام طائعين مختارين.

ولأول مرة يسجل التاريخ دخول الغالب في دين المغلوب!! مع أن القاعدة - التي قررها ابن خلدون وغيره - هو ولع المغلوب باتباع الغالب، وتقليده في مادياته ومعنوياته.

كان التتار في أول أمرهم يتمسكون بالإسلام شكلا، دون أن يلتزموا به التزامًا حقيقيًا، ثم ما لبثوا أن حسن إسلامهم، وأقاموا ممالك إسلامية في بقاع شتى من الأرض.

انتشار الإسلام في التتار:

وقد علق على هذا الأمر العجيب: المؤرخ المعروف «توماس أرنولد» في كتابه المشهور «الدعوة إلى الإسلام» فقال:

«ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين، الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسَيْن قويَّيْن، كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار، وليس هناك في تاريخ العالم نظير

لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم»[1].

«ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال، إذ إن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول، وأن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية، وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة، حتى إن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء، كان نصيبهم القتل أو الأسر[2]، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة: من يظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام! ثم سار على نهجه قوبيلائي، فعيَّن مكافآت كل من دل على من يذبح بهذه الطريقة، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين، حتى إن كثيرا من المعدمين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم، وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨م) الذي ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين»[3].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين).

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء، أن رائضي الخيول من أهالي الصين، كانوا إذا عرضوا أشباحا، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل، وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين.

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص٢٥٦-٢٥٨.

«وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ـ ١٢٩١م) - رابع ايلخانات المغول في فارس - المسلمين في بلاده، وصرفهم عن المناصب كافة التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه، وعلى الرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة، آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف، وجعلوها في مواطئ أقدامهم»[١].

وأوصي القارئ الكريم أن يطلع على كتاب توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام» ففيه تفصيلات كثيرة عن انتشار الإسلام بين المغول، حتى أصبحوا حراسه وجنوده في بلاد الشرق، وأقاموا ممالك تحت رايته.

شمس الإسلام تغرب في مكان لتطلع في مكان آخر:

وهنا فائدة تاريخية أحب أن أنبه عليها، وهي: أن الإسلام قد يخسر معركة في بلد ما، ولكنه سرعان ما يكسب معركة مثلها أو خيرا منها في بلد آخر. وقد تغيب شمسه عن بلد ما، لتطلع مشرقة في بلد آخر.

لقد خسر الإسلام أرضًا وبلدًا فتحه المسلمون، حينما استنجد بهم أهله، وأقاموا فيه دولة وثقافة وحضارة استمرت ثمانية قرون. وذلك في الأندلس (الفردوس المفقود). ثم تآمرت القوى الصليبية على المسلمين، وتعاونت السلطة والكنيسة في ذلك، وساعدهم بعض المسلمين - للأسف - بما غرقوا فيه من ترف وشهوات، وما انتهوا إليه من تفكك وتمزق، حتى أصبحوا طوائف يعادي بعضهم بعضًا، ويحارب بعضهم بعضًا، بل يستعين بعضهم بعدوه على أخيه، وليس لهم من مظاهر السيادة والقوة إلا التسمي بألقاب الخلفاء العظام، مثل المعتصم بالله، والمعتضد بالله، وقال في ذلك شاعرهم:

مـمـــــا يزهـدني في أرض أنـدلس

ألقـاب معـتـصم فـيـهـا ومعـتـضـد!

---

(١) المصدر السابق: ٣٥٧، ٣٥٨.

ألقـاب مملكة في غيـر مـوضـعـهـا

كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد!

وسرعـان ما سقطت هذه الممالك الصغيرة المتفرقة تحت ضربات الصليبية المتجمعة، حتى بكى أحد الأمراء، وقد ضاعت مملكته. واستولى عليها الإسبان، فقالت له أمه:

ابك مـثلَ النسـاء ملكا مـضـاعـا

لـم تحـافظ عليـه مـثل الرجـال!

وكانت غرناطة التي زينها ملوكها بقصر الحمراء، وقد شادوه ببذخ، وأنفقوا عليه الملايين، ليكون تحفة عمرانية، وآية فنية، تحكي مآثرهم.. كانت غرناطة هي آخر معقل سقط في أيدي النصارى الإسبان، وأحدث سقوطها ضجة في العالم الإسلامي، الذي ذرف عليها الدموع الغزار، ولكن ماذا يجدي البكاء؟ وهل ترد الدموع ما فات، أو يحيي البكاء من مات؟! وهكذا كان المسلمون، كلما سقطت مدينة من مدن الأندلس ذهبت النفوس عليها حسرات، وتقطعت الأكباد عليها زفرات، وانشأ الشعراء قصائد الرثاء: رثاء المدن والبلدان، لا رثاء الأحباب والخلاّن. كما تجد ذلك في «نفح الطيب» وغيره.

وكان من أشهر هذه القصائد الباكية المبكية؛ قصيدة الشاعر أبي البقاء صالح بن شريف الرُّندي، وهي من روائع الشعر الذي يجب أن تحفظه أجيالنا. ومطلعها:

لكل شيء إذا مـا تم نـقـصـان

فـلا يغـر بطيب العـيش إنسـان

هـي الأمـور كـمـا شـاهدتهـا دول

من سـره زمن سـاءته أزمـان

إلى أن يقول:

لمثل هذا يذوب القلب من كـمـد

إن كـان في القلب إسـلام وإيمان![1]

---

(١) ومن هذه القصيدة الرائعة:

دهى الجزيرة أمـر لا عـزاء له — هوى له أحـد وانهـد ثهـلان!

أصـابهـا العين في الإسـلام فـارتزأت — حـتى خلت منه أقطار وبلدان

فـاسأل بُلنْسيـة: مـا شـأن مـرسيـة؟ — وأين شـاطبـة أم أين جيـان؟

وأين قـرطبـة دار العلـوم فكم — من عـالم قـد سـمـا فيـهـا له شـأن

وأين حـمص ومـا تحـويـه من نزه — ونهـرهـا العـذب فـيـاض ومـلآن؟

قـواعـد كن أركـان البـلاد، فـمـا — عـسى البـقـاء إذا لم تبق أركـان!

تبكي الحنيفـيـة البـيـضـاء من أسف — كـمـا بكى لفـراق الإلف هيـمـان

على ديار من الإسـلام خـاليـة — قـد أقـفـرت، ولهـا بالكفـر عـمـران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما — فـيـهن إلا نواقـيس وصلبـان!

حـتى المحـاريب تبكي وهي جامـدة — حـتى المنابر ترثى، وهي عـيـدان!

تلك المصيبة أنست مـا تـقـدّمـهـا — ومـا لهـا ـ مع طول الدهر ـ نسيـان!

إلى أن يقول:

يـاراتعين وراء البـحـر في دعـة — لـهـم بـأوطـانـهـم عـز وسلـطـان

أعندكم نبـأ من أهل أندلس؟ — فـقـد سرى بحـديث القـوم ركبـان

كم يستغيث بها المستضعفون، وهم — قـتلى وأسرى، فـمـا يهـتـز إنسان!

يا من لذلـة قـوم بعـد عـزهمـو! — أحـال حـالهـمـو كـفـر وطغـيـان

بالأمس كـانوا ملوكـا في منازلهم — واليـوم هم في بلاد الكفـر عُـبـدان!

فلو رأيت بكاهم عند بيـعـهـمـو — لهـالك الأمـر، واسـتـهـوتك أحزان

يارُبَّ أمٍّ وطفل حـيل بينهـمـا — كـمـا تفـرق أرواح وأبـدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت — كـأنما هي ياقـوت ومـرجـانٌ

يقـودها العلج للـمكروه مكـرهة — والعين باكـيـة، والقـلب حـيـران!

لمثل هذا يذوب القلب من كـمـد — إن كـان في القلب إسـلام وإيمان!

وانظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. لأحمد بن محمد المقَّري التلمساني، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ج٦/ ٢٣٢-٢٣٤ نشر دار الكتاب العربي. بيروت.

هذه النكسة في التاريخ الإسلامي ليس لها نظير، ولم يعرف قبل هذا الحدث: أن الإسلام فتح بلدا واستقر فيه، ثم خرج منه، أو أخرج منه.

الأندلس هي الاستثناء الوحيد في تاريخ الإسلام، في البلاد التي افتتحها المسلمون الأوائل، فقد كانوا يفتحونها ليدخل أهلها في الإسلام، ثم يصبحوا هم المدافعين عنها، والذائدين عن حياضها.

وإن هذا الاستثناء ليحتاج إلى دراسة متأنية ومستوعبة لأسبابه ودواعيه وملابساته، حتى تستفيد الأجيال منها.

لقد اتفقت السلطة والكنيسة على تصفية الإسلام، وإخراجه من أوربة، ولم يكن لدى المسلمين من القوة ولا من الكيد ما يقاومون به الخطة التي دبرت لهم[1].

ومع هذا عوض الله المسلمين عن هذا البلد الذي خسروه في أوربا، ببلد غيره فيها من جهة الشرق، وهو القسطنطينية وبلاد البلقان. التي افتتحتها الدولة العثمانية الفتية التي ظلت أعظم قوة في العالم لعدة قرون.

لقد سقطت مملكة غرناطة، وانتهى بسقوطها الوجود الإسلامي رسميا من الأندلس سنة(٨٩٧هـ، ١٤٩٢م) وكان العثمانيون بقيادة البطل محمد الفاتح قد فتحوا القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م وغيروا اسمها إلى «إسلامبول» أو «إستانبول» التي أمست عاصمة للدولة الإسلامية لعدة قرون، حتى ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤م. فانتقلت عاصمة الدولة العلمانية الجديدة إلى «أنقرة».

وكسب الإسلام في شرقي أوربا بلاداً جديدة، (عوضا عما خسره في غربها) أصبحت جزءا من دار الإسلام الكبرى، وأضحى أهلها مسلمين، ضمن أمة الإسلام، مثل ألبانيا وكوسوفو ومقدونيا والبوسنة والهرسك، وقد ظل الإسلام راسخ القدم فيها برغم ما ابتليت به من المحن إلى اليوم. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر: كتاب محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. مطبعة مصر.

(٤)

من المسؤول عن تشويه تاريخنا؟

١. مسؤولية المؤرخين.

٢. مسؤولية كتب الأدب.

٣. مسؤولية المحدثين.

من المسؤول عن تشويه صورة التاريخ الإسلامي؟

وهنا يعن لنا سؤال من حقنا أن نسأله، ومن حق كل باحث أن يسأله، وهو: إذا لم يكن التاريخ الإسلامي بالصورة التي أشاعها من أشاعها، وأظهر فيها العيوب، وأخفى المحاسن، بل ضخَّم فيها هذه العيوب والهنات التي لا تخلو منها أمة من الأمم، حتى كأنه ينظر إليها من خلال «ميكروسكوب» يكبر الشيء الصغير أضعافًا مضاعفة.. فمن المسؤول إذن عن إشاعة هذه الصورة المزورة عن تاريخنا وحضارتنا؟

وأود أن أقول بصراحة: إننا ـ نحن المسلمين ـ المسؤولون أولاً عن إشاعة هذه الصورة عن تاريخ أمتنا. وأول المسؤولين عن ذلك ثلاثة أصناف من علمائنا، هم: المؤرخون والأدباء والمحدّثون.

١ ـ مسؤولية المؤرخين المسلمين

أما المؤرخون المسلمون، فإن مسؤوليتهم تتمثل في أمور أربعة:

أولها: أنهم تساهلوا كل التساهل في رواية الأحداث المتعلقة بالفتن بين الصحابة رضي الله عنهم، وبدولة بني أمية، ولم يمحصوا هذه الروايات، ولم يبحثوا في الأسانيد، ويخضعوها لميزان الجرح والتعديل، كما فعلوا ذلك حينما بحثوا في أحكام الفقه وغيره.

وها نحن أولاء نجد إماما كالطبري، كان إماما في الحديث وعلومه له وزنه وقدره ومعرفته الراسخة بالتوثيق والتضعيف.. كما كان إماما في الفقه له مذهبه، وله أتباع يسمون «الطبرية» ظلوا مدة من الزمن ثم انقرضوا.. كما كان شيخ المفسرين في عصره.

الطبري هذا حين يعرض للروايات حين يصنف في الحديث، أو في الفقه أوفي التفسير: يشرِّحها تشريحًا، ويحلل أسانيدها، ويتكلم عن رواتها تعديلاً أو تجريحا، ويقبل منها ويرد وفق معايير النقد العلمية المتفق عليها.

رأينا ذلك في كتابه «اختلاف الفقهاء» وفي كتابه في الحديث «تهذيب الآثار» وفي تفسيره «جامع البيان».

ولكنه لم يفعل ذلك في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» بل نقل عن رواة ضعفاء مجرّحين عند أئمة الجرح والتعديل، لم يوثقهم أحد منهم، فنقل عنهم، وأطال النقل، ومنهم من له هوى في تشويه صورة العصر وأحداثه ورجاله.

وهذا ما جعلني من قديم أنبه وأحذر الدعاة في كتابي «ثقافة الداعية» من الاغترار بكل ما يُرْوَى في كتب التاريخ، حتى يكونوا لأنفسهم «ثقافة تاريخية» صحيحة، وهي ثقافة لا غنى عنها لكل داعية. وكان من أهم ما نبهت عليه أمران يتعلقان بتدوين التاريخ وتفسير التاريخ.

تدوين التاريخ:

أولاً ـ ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحًا مائة في المائة، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات تكذبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة في مصادر أخرى. وكم أدت الأهواء والعصبيات السياسية والنسبية والمذهبية دورها في كتابة التاريخ، وفي رواية وقائعه وتلوين أحداثه، وتصوير أبطاله إيجابًا أو سلبًا، وخصوصًا إذا علمنا أن التاريخ يكتبه ـ عادة ـ المنتصرون الغالبون، والغلبة لها بريق وأضواء كثيراً ما تعشي أعين المؤرخين عن سوءات الغالبين، في حين تضخم أخطاء المغلوبين، وتطمس فضائلهم، عن قصد أو غفلة.

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامي الذي يتعلق بأمثل عصور الإسلام وأفضلها، وهو تاريخ العصور الأولى التي انتشر فيها الإسلام في الآفاق، وانتشرت معه لغته وفقهه، واتسع فيها تعلم كتابه وسنة نبيه، وهو تاريخ عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وهم الذين أثنى عليهم الله ورسوله، وهم الذين حفظوا القرآن والحديث، وبلغوهما إلى الأجيال اللاحقة من بعدهم ـ إذا نظرنا إلى هذا التاريخ وجدناه قد ظُلم وشُوِّه في كتب التاريخ أي ظلم وتشويه. ثم يجيء المعاصرون ليأخذوا من تلك الكتب بعجرها وبجرها، ويقولون: نحن لم نحد عن الطريقة العلمية، فمصدرنا الواقدي أو الطبري أو ابن الأثير. إلخ.. جزء كذا صفحة كذا طبعة كذا.

هكذا يصنع المستشرقون، وهكذا يفعل أساتذة التاريخ في الجامعات، وهكذا يسير الذين يكتبون عن التاريخ في المجلات، وفي غير المجلات.

ولم يكلف هؤلاء أنفسهم أن يدرسوا كيف كتب تاريخ تلك العصور .

لنأخذ أهم هذه المصادر القديمة وأشهرها وهو : تاريخ الطبري .

لقد كانت الفكرة المهيمنة على الطبري عند كتابة تاريخه هي التجميع والتسجيل ، دون الانتقاء أو التمحيص للأسانيد أو الوقائع المروية . فمن كان عنده خبر ذو بال نقله عنه ودوَّنه منسوبًا إليه ، وإن كان راوي الخبر من الضعفاء أو المتهمين أو المتروكين . وإنما دفعه إلى ذلك حب الاستقصاء ، والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ولو من بعض النواحي . ويمثل العلامة السيد محب الدين الخطيب الطبري ومن في طبقته من العلماء في إيرادهم الأخبار الضعيفة «برجال النيابة في عصرنا» إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية ، فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها ، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه ، اعتمادًا منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره»[1] . هذا عذر للطبري وأمثاله في روايتهم عن المجروحين . وله عذران آخران :

أولهما : أنه حين يروي الحوادث بسندها إلى من رواها ، يرى أنه إذا ذكر السند فقد برئ من العهدة ، ووضعها على عاتق رواته . وقد قيل : من أسند فقد حمّل ، أي حملك البحث في سنده ، وكان هذا مقبولاً في زمنه ، حيث يستطيع العلماء أن يعرفوا رجال السند ، ويحكموا لهم أو عليهم . وهذا ما جرى عليه الأمر بالنسبة لعلم الحديث ، فما بالك بعلم التاريخ ؟

ومن هنا قال الطبري في مقدمة تاريخه :

«فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة ، ولا معنى في

---

(١) مجلة الأزهر : مجلد ٢٤ عدد صفر سنة ١٣٧٢هـ مقالة «المراجع الأولى في تاريخنا» لمحب الدين الخطيب .

الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قِبَلنا، وإنما أتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا لك على نحو ما أُدّي إلينا»[1].

وبهذا حمّل رواته التبعة، وحمل بالتالي دارس كتابه أن يفتش عنهم في كتب الرجال، ومصادر الجرح والتعديل، وسيجد عدداً منهم ساقطًا بالمرة، وعدداً آخر مختلفًا في توثيقه وتضعيفه، وعدداً آخر من الثقات المقبولين.

فمن رجال الطبري: محمد بن إسحاق صاحب السيرة، قال فيه مالك وغيره ما قالوا، ومن وثقه لا يقبل كل ما يرويه، بل لا يقبلون إلا ما يصرح فيه بالتحديث عمن روى عنه، أما ما رواه بالعنعنة، فيردونه، لأنه متهم بالتدليس. وكثير ما كان الرواة عنه أضعف منه وأوهن.

والواقدي: كذبه جماعة من أئمة الحديث، ومن قبله لم يقبله بإطلاق.

وهشام بن محمد الكلبي وأبوه: متهمان بالكذب.

وسيف بن عمر التميمي: كان يضع الحديث، ويروي الموضوعات عن الأثبات، اتهم بالزندقة، وضعفه غير واحد.

وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي: قال فيه الحافظ الذهبي: أخباريّ تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال ابن معين، ليس بثقة، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق، صاحب أخبارهم!

وغير هؤلاء كثيرون من المجرَّحين المتروكين عند أئمة الجرح والتعديل من علماء الحديث، وإن كان رجال التاريخ والأخبار يروون عنهم، ويستندون إليهم. ومن أجل هذا سموهم «الأخباريين» أي الذين يجمعون الأخبار من هنا وهناك دون تمحيص.

ومن أجل هذا لا يقيم المحققون وزنًا لروايات «الأخباريين» ولا يعتمدون عليها، ويعيبون من ينقل عنها في كتب العلم المعتبرة.

---

(١) تاريخ الطبري (١/٨) طبعة دار المعارف بمصر. بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

فلا غرو أن نجد الإمام النووي يقول في كتاب «الاستيعاب» لفقيه المغرب ومحدثه الإمام ابن عبد البر النمري: إنه من أحسن الكتب المؤلفة في الصحابة وأكثرها فوائد، لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة وحكايته عن «الأخباريين»!

قال السيوطي معقبًا: والغالب عليهم الإكثار والتخليط فيما يروونه[1].

والعذر الثاني للطبري في عدم تمحيص ما رواه في تاريخه: أن الموضوع لا يترتب عليه حكم شرعي من تحليل أو تحريم أو إيجاب أو غير ذلك، مما يُعنَى به علم الفقه. كما أنه لا يتصل ببيان كلام الله تعالى وكلام رسوله، كما في علم التفسير، أو علم الحديث. ولا غرو أن وجدنا الطبري - الذي كان إمامًا جليل القدر في التفسير والحديث والفقه - يدقق ويحقق فيما يتصل بهذه العلوم المذكورة، ولكنه يترخص ويتساهل في أمر التاريخ، قائلاً في تسويغ ذلك «إذ لم نقصد به الاحتجاج..».

وغفر الله للإمام الطبري، فإن هذا التساهل قد شوَّه تاريخ فجر الإسلام، وأساء إلى حملة رسالته الأولين، وفتح باب الاعتذار نفسه لمن بعده، فأخذوا عنه كما أخذ عمن قبله، وأدوا إلى من بعدهم، كما أدى هو إليهم، وكما أدى إليه من قبله. ومن ثم نرى أن ابن الأثير وأبا الفداء وابن كثير وغيرهم، يعتمدون على الطبري، ثم جاء المعاصرون والمستشرقون فاعتمدوا على هؤلاء، وعَدُّوا ذلك علمًا وتحقيقًا.

ثم إن هذا التشويه قد أعطى خصوم الإسلام وشريعته حجة زعموا بها أن الإسلام لم يطبق إلا في عهد الراشدين، وأنه فكرة مثالية تستعصي على التطبيق؛ لأنه فوق الطاقة العادية للبشر. وهذا كله دعوى مردودة، لا دليل عليها، بل تردها البيِّنات والمحكمات.

---

(١) انظر: التدريب على التقريب ج ٢ ص ٢٠٧.

ولا غرو أن قام فقيه كبير، وإمام جليل، هو القاضي أبو بكر العربي (ت٥٤٣هـ) بالدفاع عن الصحابة، وتحقيق مواقفهم بعد وفاة الرسول، تحقيقًا علميًا موضوعيًا، وذلك في كتابه القيم: «العواصم من القواصم» الذي أخرج الجزء الخاص منه بالصحابة وحققه وعلق عليه بإفاضة: العلامة السيد محب الدين الخطيب، رحمهما الله وجزاهما عن الإسلام خيرًا. وإن كان ابن العربي قد بالغ أحيانًا في بعض ما ذهب إليه.

ثانيًا: الولع بالغرائب وضعف الحس النقدي:

والأمر الثاني الذي يؤخذ على المؤرخين، ويدخل في مسؤوليتهم عن تشويه التاريخ: ولعهم بالغرائب، وركونهم إلى المبالغات والتهاويل، وذكر أرقام وأعداد ومقادير لا يمكن أن يقبلها منطق، أو يصدقها عاقل، إلا إذا أعطى عقله إجازة!

وعلة ذلك هو ضعف الحس النقدي، أو العقلية الناقدة، التي ترفض أن تأخذ الكلام على عواهنه، وتسلّم لكل ما يُلقى إليها دون أن تفحصه، وترى: هل هو يجري على سنة الله في الخلق أو يصادمها؟ وهل يمضي على المعروف والمعتاد من أحوال البشر أو يشذ عنها ويخالفها؟

ولقد ذكر أئمة الحديث: أن من علامات الحديث الموضوع المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تكون فيه مبالغة مرذولة في الوعد أو الوعيد. كالحديث الذي يقول: لقمة في بطن جائع خير من بناء ألف جامع! والحديث الذي يضمن الجنة لمن سُمِّي: محمدًا. والحديث الذي يحرم على الشخص الجنة؛ لأنه صبغ لحيته بالسواد!

وكان ينبغي على المؤرخين: أن يَعُدُّوا المبالغات المستنكرة دليل كذب الخبر، أو التزيد فيه. وهذا ما نقمه ابن خلدون على المؤرخين قبله.

انظر هنا ما نقله ابن خلكان وغيره فيما أنفق في عرس بوران بنت الحسن بن سهل في زواجها من الخليفة المأمون، فقد ذكروا ثَمّ أحداثًا وأرقامًا خيالية.

يقول ابن خلكان، وقد جمع روايات مختلفة:

«تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، واحتفل أبوها بأمرها، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وكان ذلك بفم الصلح، وانتهى أمره إلى أن نثر للهاشميين، والقواد، والكتاب، والوجوه، بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع، وأسماء جوار، وصفات دواب، وغير ذلك؛ فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها، مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه، ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكًا آخر، أو فرسًا، أو جارية، أو مملوكا، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم، ونوافح المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه - وكانوا خلقا لا يحصى - حتى على الحمالين، والمكارية، والملاحين، وكل من ضمه عسكره؛ فلم يكن في العسكر من يشتري شيئا لنفسه ولا لدوابه»[1].

وذكر الطبري في تاريخه: «إن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوما، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم: ألف ألف درهم، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه».

وقال غيره: «وفرش للمأمون حصير منسوج بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدمه لآلئ كثيرة... وأطلق المأمون خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة».

وقال الطبري أيضًا: «دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم

(١) وفيات الأعيان، ترجمة بوران بنت الحسن، الجزء الأول، صـ ٢٦٠ طبع مكتبة النهضة.

الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر كم هو؟ فقالت: ألف حبة، فوضعها في حجرها. . . . وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا[1] في تور من ذهب؛ فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سرف»[2].

وأريد هنا أن ألفت النظر إلى أن الأرقام المذكورة هنا لا يمكن أن تقبل، ولا تثبت على محك الفحص والتمحيص.

خذ مثلا قوله عن مقدار النفقة على المأمون وحاشيته في تسعة عشر يومًا: إنها بلغت «خمسين ألف ألف درهم» أي خمسين مليونًا من الدراهم، في عصر كانت القوة الشرائية للدرهم كبيرة من غير شك.

وهل يتصور أن يصرف على جماعة محدودة - مهما كان عددها - في ١٩ يومًا: خمسون مليون درهم؟ وكم تكون ثروة الحسن بن سهل هذا، وهو حمو المأمون؟ وكم يكون دخل الدولة إذن؟

الحق أن هذه أرقام خيالية، اخترعها أو ضخمها المولعون بالإغراب والإدهاش، ولم يكن ينبغي للمؤرخين أن يذعنوا لقبولها على علاتها.

نقد ابن خلدون للمؤرخين قبله:

ولقد عاب حكيم المؤرخين العلامة ابن خلدون على من قبله من المؤرخين: قبول ما ينقل لهم من الأخبار دون تمحيص لها، ونظر في موضوعها: أهو مقبول في ميزان العقل والدراية، ومنطق سنن العمران والاجتماع البشري أم لا؟ وهل هو متسق مع سائر الأحداث وتسلسلها من حوله أوْ لا؟ وهل يتوافق مع المزاج العام، والاتجاه الأساسي للشخصية التي يجري الكلام حولها أو لا؟

---

(١) المَنُّ كيل أو ميزان، والجمع أَمْنانٌ. وهو رطلان. انظر: لسان العرب (١٣ / ٤١٩).

(٢) وفيات الأعيان، ترجمة بوران بنت الحسن، الجزء الأول، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠.

وضرب ابن خلدون أمثلة لذلك من تاريخ بني إسرائيل، ومن تاريخ التبابعة في اليمن قبل الإسلام، كما ذكر أمثلة أخرى من تاريخ الإسلام، كان موفقًا في أكثرها،[1] مثل ما ذكره عن العباسة بنت المهدي أخت الرشيد، وما ادَّعي من علاقة غرامية بينها وبين جعفر البرمكي، وبين أنها خرافة. . وما ادَّعي من معاقرة «الرشيد» للخمر، وقطعه بكذب هذه الدعوى، وأن كل الدلائل تردها. . وما ادُّعي حول يحيى بن أكثم قاضي «المأمون» وصاحبه، وأنه شرب ليلة حتى سكر. ونفى ابن خلدون الواقعة المفتراة على هذا الرجل الذي كان من علية أهل الحديث، و أثنى عليه الإمام أحمد وغيره، وخرج عنه الترمذي في سننه، كما روى عنه البخاري في غير الصحيح، فالقدح فيه قدح في جميع هؤلاء[2].

وأكتفي هنا بذكر شيء مما قاله دفاعًا عن الخليفة هارون الرشيد، وما قيل من شربه يومًا للخمر حتى سكر قال: فحاش لله ما علمنا عليه من سوء. وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة؟ وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السمَّاك والعُمَري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها؟! حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة! وكان يغزو عامًا ويحج عامًا.

ولقد زجر ابنَ أبي مريم - مُضْحِكَه في سمره - حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة، وقال: يا ابن أبي مريم، فيَ الصلاة أيضًا؟! إياك إياك والقرآن والدين! ولك ما شئت بعدهما.

---

(١) بعض ما انتقده على المتقدمين لا نوافق عليه مثل دفاعه عن «العُبيديين» من الباطنية الإسماعيلية، والاستماتة في إثبات نسبهم الفاطمي، مخالفاً من تقدمه من كبار علماء الأمة.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون بتحقيق د. علي عبد الواحد وافي، طبعة لجنة البيان العربي الثانية ص ٣٦٢-٣٨٥.

وأيضًا فقد كان من العلم والسذاجة[1] بمكان، لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك، ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر (المنصور) بعيد زمن، إنما خلّفه غلامًا. وقد كان أبو جعفر بمكانٍ من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها.

ولقد أدركه ابنه المهدي (أبو الرشيد هذا) وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال. ودخل عليه يومًا وهو بمجلسه يباشر الخياطين في إرقاع الخُلقان (ترقيع البالي) من ثياب عياله، فاستنكف المهدي من ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين عَليَّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي، فقال له: لك ذلك، ولم يصدّه عنه، ولا سمح بالإنفاق من أموال المسلمين.

فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأُبُوَّته، وما رُبي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته، والتخلق بها، أن يعاقر الخمرَ أو يجاهرَ بها؟! وقد كانت حالة الأشراف من العرب في الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، ولم يكن الكرْمُ شَجرتَهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم؛ والرشيد وآباؤه كانوا على ثَبَجٍ[2] من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم، والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب.

وذكر ابن خلدون من الوقائع ما يثبت أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته. ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع.

وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق: (مذهب أبي حنيفة وأصحابه ومن وافقهم) وفتاويهم فيها معروفة؛ وأما الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتهامه به، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع الحرام من أكبر الكبائر عند أهلَ الملة.

---

(١) يريد ابن خلدون من «السذاجة»: الفطرية والبعد عن التكلف، لا مايراد بها اليوم من الغفلة والبلاهة.

(٢) «الثَّبَج» ما بين الكاهل إلى الظهر، ووسط الشيء ومعظمه (القاموس). «وكان على ثبج من كذا» أي متمكنا منه، وراسخا فيه، وفي أسمى مرتبة من مراتبه.

ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السَّرَف والتَّرَف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم، لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر، وعن الحِلِّيَّة إلى الحُرمة؟!»[1].

وقد روى المسعودي في كتابه «مروج الذهب» قصة تدل على تورع الرشيد عن الترف والسرف المبالغ فيه، قال:

«حدث إبراهيم بن المهدي قال: استزرت الرشيد بالرقة؛ فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد؛ فلما وضعت البوارد، رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك، فاستصغر القطع، وقال: لم صغّر طباخكم تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! هذه ألسنة السمك! قال: فيشبه أن يكون هذا الجام مائة لسان، فقال «مراقب» خادمه: يا أمير المؤمنين! فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره بأنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده، وحلف أن لا يطعم شيئا دون أن يحضره «مراقب» ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به، وقال: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم، ثم ناول الجام بعض خدمه، وقال: أول سائل تراه فادفعه إليه!»[2].

فهذا التصرف النبيل هو اللائق بمثل هذا الخليفة، لا ما يذكره عنه القصاص والأخباريون من أساطير عن بذخه وجريه وراء الشهوات، مما لا يقوم عليه أي دليل.

روى الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» وهو يترجم للزاهد الكبير الفضيل بن عياض قال:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٨-٣٨١.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص٨٤.

«عن الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين الرشيد، فأتاني، فخرجت مسرعا، فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إلي أتيتك؛ فقال: ويحك قد حك في نفسي شيء، فانظر لي رجلا أسأله، فقلت: هنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه: فأتيناه، فقرعت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعا، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إلي أتيتك؛ فقال له: خذ لما جئتك له رحمك الله! فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم! فقال: أبا عباس، اقض دينه!

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا، انظر لي رجلا أسأله؛ فقلت له: ههنا عبد الرزاق بن همام، قال امض بنا إليه! فأتيناه فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعا، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت إلي أتيتك؛ قال: خذ ما جئناك له! فحادثه ساعة ثم قال له: عليك دين! قال: نعم! قال: أبا عباس اقض دينه!

فلما خرجنا قال: ما أغنى صاحبك شيئا، انظر لي رجلا أسأله؛ قلت: ههنا الفضيل بن عياض، قال: امض بنا إليه! فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، فقال: اقرع الباب! فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فقال: مالي ولأمير المؤمنين؟! فقلت: سبحان الله! أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه» فنزل، ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ المصباح، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل! فقلت: في نفسي: ليكلمنه اليوم بكلام نقي من قلب تقي، فقال له: خذ ما جئناك له رحمك الله! فقال:

إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء

فأشيروا علي، فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا! وليكن إفطارك الموت!

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك!

وقال له رجاء بن حَيْوة: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت!

وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام؛ فهل معك ـ رحمك الله ـ من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين! فقال: يا ابن أم الربيع! تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا!؟ ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله!

فقال: يا أمير المؤمنين! بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شُكي إليه؛ فكتب إليه عمر: يا أخي، أذكّرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله؛ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء! قال: فلما قرأ الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبدا، حتى ألقى الله عز وجل!

قال: فبكى هارون بكاء شديدا، ثم قال له: زدني رحمك الله! فقال: يا أمير المؤمنين! إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أمّرني على إمارة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرا، فافعل!

فبكى هارون بكاء شديدا وقال له: زدني رحمك الله! فقال: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة؛ فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فافعل. . وإياك أن تصبح وتمسي، وفي قلبك غش لأحد من رعيتك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أصبح لهم غاشا لم يرح[1] رائحة الجنة».

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال نعم! دين لربي يحاسبني عليه؛ فالويل لي إن سألني! والويل لي إن ناقشني! والويل لي إن لم ألهم حجتي! قال: إنما أعني دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦ - ٥٨). فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على عبادتك! فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت، فلم يكلمنا؛ فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس! إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا! هذا سيد المسلمين! فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرّجنا به؛ فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه؛ فلما كبر نحروه، فأكلوا لحمه! فلما سمع هارون هذا الكلام، قال: تدخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه، فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا! قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله! فانصرفنا»[2].

---

(١) أراح الشيء لم يجد له ريحة.

(٢) صفة الصفوة: ج٢، ذكر فضيل بن عياض التميمي، ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.

فهذا هو الرجل الذي يتهم بمعاقرة الخمر، وينسب إليه من السرف والترف ما لا يليق بجميل سيرته، وما يؤكد أنه من أخيلة القصاصين، واختلاق الكذابين، ودسائس خصومه المعروفين.

وقد أحسن ابن خلدون في مقدمته، حين تحدث عن تعليل هذه المبالغات المستنكرة في الأعداد والمقادير، فقال:

«هذا، وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدولة التي لعهدهم أو قريبا منه، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الموسرين: توغلوا في العدد، وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الإغراب. فإذا اسْتَكْشَفْتَ أصحاب الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم، فلن تجد معشار ما يعدونه. وما ذلك إلا لوَلَع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة على المتعقب والمنتقِد، حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش؛ فيرسل عنانه، ويُسيم في مراتع الكذب لسانه، ويتخذ آيات الله هُزُوًا، ويشتري لَهْوَ الحديث ليُضَل عن سبيل الله، وحسبُك بها صفقةً خاسرة»[1].

ثالثا: الاقتصار على تاريخ الملوك والحكام (التاريخ السياسي):

والأمر الثالث الذي يدخل في مسؤولية المؤرخين عما نسب إلى التاريخ الإسلامي زورا، وشوه صورته ظلما: أن كتب التاريخ العام التي صنفها المؤرخون الكبار: جعلت أكبر همها، ومحور بحثها وعنايتها: الجانب السياسي والعسكري في التاريخ، وكأنها قصرت التاريخ على الملوك والحكام ومن يدور في فلكهم من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧.

القواد والأعوان، ولم تعط مساحة كافية للشعوب والجماهير والفئات والطبقات المختلفة في قلب المجتمع.

هذا مع أن هذه الفئات قد وجدت لها متسعا في التاريخ الإسلامي، ولكن على مستوى آخر غير التاريخ العام. وهو مستوى التراجم الشخصية، والطبقات الفئوية، التي شملت كل أصناف المجتمع وطبقاته من القمة إلى السفح، ومن السقف إلى القاع.

وقد عدد مؤرخ الإسلام الكبير الحافظ شمس الدين الذهبي أنواع التواريخ التي تناولت شتى طبقات المجتمع، فبلغت (٤٠) أربعين تاريخًا، نقلها عنه الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوي في كتابه «إعلان التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ». وهذه الطبقات أو هذه التواريخ التي ذكرها الذهبي، هي:

١ - سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم.

٢ - قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣ - تاريخ الصحابة رضي الله عنهم.

٤ - تاريخ الخلفاء من الصحابة، ومن بني أمية، وبني العباس، ومعهم المروانية بالأندلس والعبيدية بالمغرب ومصر.

٥ - تاريخ الملوك والدول، والأكاسرة والقياصرة، ومعهم ملوك الإسلام، كابن طولون، والإخشْيد، وابن بويه، وابن سلجوق، ونحوهم. وملوك خُوَارَزم، والشام، وملوكَ التَتار، ومن لقب بالملك.

٦ - تاريخ الوزراء، أولهم هارون عليه السلام، وأبو بكر، وعمر. وبعضهم دخل في الأنبياء، وفي الخلفاء، وغير ذلك، وفي الملوك.

٧ - تاريخ الأمراء، والأكابر، ونواب الممالك، وكبار الكتاب. ومنهم خلق من الموقعين، وبعضهم أدباء، وشعراء.

٨ ـ تاريخ الفقهاء وأصحاب المذاهب، وأئمة الأزمنة، والفرضيين. قلت ويدخل فيه أهل الاجتهاد ممن قُلِّد، وغيرهم.

٩ ـ تاريخ القراء بالسبع (أي بالقراءات السبع. وينبغي أن نضم إليها الثلاث الأخرى من القراءات العشر).

١٠ ـ تاريخ الحفاظ.

١١ ـ تاريخ مشيخة المحدثين وأئمتهم.

١٢ ـ تاريخ المؤرخين.

١٣ ـ تاريخ النحاة، والأدباء، واللغويين، والشعراء، والبلغاء، والعروضيين، والحُسّاب.

١٤ ـ تاريخ العباد، والزهاد، والأولياء، والصوفية، والنساك.

١٥ ـ تاريخ القضاة، والولاة ومعهم تاريخ الشهود، والأمناء.

١٦ ـ تاريخ المعلمين، والوراقين، والقصاص، والطرقية، والغرباء.

١٧ ـ تاريخ الوعاظ، والخطباء، وقراء الأنغام، والندماء، والمطربين.

١٨ ـ تاريخ الأشراف، والأجواد، والعقلاء، والأذكياء، والحكماء.

١٩ ـ تاريخ الأطباء، والفلاسفة، والزنادقة، والمهندسين، ونحو ذلك.

٢٠ ـ تاريخ المتكلمين، والجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، والكرامية، والمجسمة.

٢١ ـ تاريخ أنواع الشيعة، من الغلاة، والرافضة، وغير ذلك.

٢٢ ـ تاريخ فنون الخوارج، والنواصب، وأنواع المبتدعة، وأهل الأهواء.

٢٣ ـ تاريخ أهل السنة من علماء الأمة، وصوفيتها، وفقهائها، ومحدثيها.

٢٤ ـ تاريخ البخلاء، والطفيلية، والثقلاء، والأكلة، وذوي الحمق، والخيلاء، والسفهاء. قلت (والقائل السخاوي): ولم يتعرض لضدهم من الكرماء والأجواد، كأنه للاكتفاء بالأجواد فيما تقدم. وقد اجتمع لي منهم جملة.

٢٥ ـ تاريخ الأضـراء (جـمع ضـرير وهو الكفيف) والزمْنَي، والصم، والخرْس، والحدبان (ذوي الظهر الأحدب) .

٢٦ ـ تاريخ المنجمين، والسحرة، والكيمائيين[١]، والمطالبين، والمشعوذين .

٢٧ ـ تاريخ النسَّابين، والأخباريين، والأعراب .

٢٨ ـ تاريخ الشجعان، والفرسان، والشطار، والسعاة .

٢٩ ـ تاريخ التجار، وعجائب الأسفار، والبحار، وغرباء البحرية(كأنه يقصد : القراصنة) .

٣٠ ـ تاريخ أولي الصنائع العجيبة، والرشقين في أشغالهم، واقتراحهم، وتوليد فنون الأعمال .

٣١ ـ تاريخ الرهبان، وأولي الصوامع . والخلوات، والأحوال الفاسدة .

٣٢ ـ تاريخ الأئمة (أئمة المساجد)، والمؤذنين، والموقتين، والمعبرين، والعامة .

٣٣ ـ تاريخ قطاع الطرق، والفداوية، ولعّاب الشطرنج والنرد والقمار . قلت : وترك الرمي بالنشاب .

٣٤ ـ تاريخ الملاح، والعُشَّاق، والمتيّمين، والرقَّاصين، وشربة الخمور، وأهل الخلاعة، والقيادة، والكذب، والأبْنة .

٣٥ ـ تاريخ أولي الدهاء والحزم والتدبير والرأي والخداع والحيل .

٣٦ ـ تاريخ المنديين، والمخايلين، والصانعين، والفرشيين[٢]، والمخنثين، وأهل المجون، والمزاح، والتجر، والتلار، والكذب .

---

(١) يقصد بالكيمائيين : الذين يزعمون أنهم يحولون الحديد إلى ذهب!! ولهذا وضعهم مع السحرة وأشباههم .

(١) هذه مصطلحات لفئات كانت معروفة في زمن الذهبي، وإن لم نعرف مضمونها بالضبط، ولكن يظهر أنها جميعا مذمومة بدليل ما عطفت عليها .

٣٧ ـ تاريخ عقلاء المجانين، والموسوسين، والمتمرين، والمدمغين، والمطعومين.

٣٨ ـ تاريخ السائلة، والشحاذين، والمتمنين، والحرافشة، والجمرية.

٣٩ ـ تاريخ قتلى القرآن والحب والسماع والفرع والحال.

٤٠ ـ تاريخ الكهان، وأولي الخوارق والكشف، الذي كأنه كرامات، من الفسقة وغيرهم.

قال الذهبي: فهذه أربعون تاريخا[1].

وأود أن أضيف هنا: ملاحظات خمسًا:

الأولى: أنه أغفل ذكر تاريخ بعض الطبقات المهمة في المجتمع مثل أصحاب الحرف المختلفة، مثل: النجارين والحدادين، والبنائين، والخياطين، والصباغين، والصيادين، والجزارين، والنحاسين، والصاغة. وغيرهم من ذوي الحرف.

الثانية: أنه لم يذكر: تاريخ المتنبئين، ممن ادعى النبوة مثل مسيلمة وسجاح والأسود العنسي وطلحة الأسدي ومن بعدهم.

الثالثة: أنه لم يذكر: تاريخ البلدان، مثل تاريخ مكة، والمدينة، وتاريخ دمشق، وبغداد، واليمن، ومصر، وجرجان، وخراسان. وغيرها، بل تواريخ أقاليم ومدن في البلدان الكبيرة، مثل الصعيد والإسكندرية في مصر.

الرابعة: أنه جمع أحيانًا فئات متباينة في تاريخ واحد، مثل: تاريخ النحاة، والأدباء، واللغويين والشعراء والبلغاء والعروضيين، والحسّاب. وهم في الحقيقة أكثر من فئة.

ومثل ذلك: تاريخ الوعاظ، والخطباء، وقراء الأنغام، والندماء، والمطربين، والآخرون غير الأولين قطعًا.

---

(١) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوي ص١٤٠-١٤٣ نشرها «فزانر روز نفال» بالإنجليزية. ونقلها إلى العربية د. صالح أحمد العلي، ونشرتها مؤسسة الرسالة في بيروت.

الخامسة: أن هناك تواريخ اهتمت بأهل قرن معين، مثل «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر، و «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» للسخاوي، وغيرها.

على أن كتب التاريخ العام أو التاريخ السياسي لا تهتم من التواريخ الأربعين التي ذكرها الذهبي، إلا بثلاثة أو أربعة منها، وهو: تاريخ الملوك والأمراء والوزراء وأمثالهم، دون بقية الأصناف والفئات.

وقد حاول الإمام الذهبي في تاريخه (تاريخ الإسلام) أن يترجم للأعلام من شتى الطبقات، فكان أقرب إلى الاستيعاب والإنصاف.

قال العلامة السخاوي في كتابه «إعلان التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ»:

وقرأت بخط الذهبي أيضًا في تاريخ الإسلام[1] له: أنه «جمعه، وتعب فيه، واستخرجه من عدة تصانيف، يعرف بها الإنسان ما مضى من التاريخ، من أول تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا، من وفيات الكبار من الخلفاء، والقراء، والزهاد، والفقهاء، والمحدثين، والعلماء، والسلاطين، والوزراء، والنحاة، والشعراء، ومعرفة طبقاتهم، وأوقاتهم، وشيوخهم، وبعض أخبارهم، بأخصر عبارة، وألخص لفظ، وما تم من الفتوحات المشهورة، والملاحم المذكورة، والعجائب المسطورة، من غير تطويل، ولا إكثار، ولا استيعاب. ولكن أذكر المشهورين ومن يشبههم، وأترك المحمولين ومن يشبههم. وأشير إلى الوقائع الكبار، إذ لو استوعبت التراجم والوقائع، لبلغ الكتاب مائة مجلد، بل أكثر، لأن فيه مائة نفس يمكنني أن أذكر أحوالهم في خمسين مجلدًا»[2].

---

(١) «تاريخ الإسلام» ج١ ص ٧-١٣ (القاهرة ١٣٦٧). وقد طبعت «دار الغرب الإسلامي» كتاب «تاريخ الإسلام» بتحقيق د. بشير عواد معروف. وهو عمل يستحق التنويه.

(٢) إعلان التوبيخ ص ١٤٣.

وذكر الذهبي ما طالعه من الكتب لتصنيف «تاريخه» فكان عددا كبيرا. وبعضها ليس نصا في التاريخ، ولكنه استفاد منه مادة تاريخية[١].

رابعًا: إغفال النقاط المضيئة في تاريخ الإسلام:

والأمر الرابع الذي تتمثل فيه مسؤولية المؤرخين المسلمين عن قتامة صورة التاريخ الإسلامي، هو: عدم التركيز على الجانب المشرق، والنقاط المضيئة في تاريخ الإسلام، وهو فرع عما ذكرناه من الاهتمام بالتاريخ السياسي أكثر من الاهتمام بالتاريخ الإصلاحي والتجديدي، والاهتمام بسير الخلفاء والملوك أكثر من الاهتمام بسير الشعوب والجماهير، ومن يقودها ويعلمها ويرشدها من العلماء والمربين والدعاة.

ومن المقرر: أن الإسلام هو آخر الأديان والرسالات السماوية التي شرعها الله تعالى لهداية البشر إلى التي هي أقوم، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، الذي يقودهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولأنه الدين الخاتم، فليس بعده دين، وليس بعد نبيه نبي آخر يصلح الله به ما يفسده البشر خلال الأزمان، فكان من سنته تعالى: أن يبعث من أتباع النبي من يقومون بمهمة الأنبياء والرسل، من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

ومن شأن الأمة الإسلامية: أنها لا تجتمع على ضلالة أبدًا، فلا بد أن يبقى فيها من يقاوم الضلال بالهدى والغي بالرشد، والباطل بالحق، والكفر بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١).

ومما صحت به أحاديث الرسول واستفاضت: أنه «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٨)، ومسلم (١٩٢٠) وغيرهما عن عدد من الصحابة.

وكذلك جاء حديثه صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»[1].

وقد صدَّق التاريخ هذا الحديث، فوجد في كل قرن - ولا سيما على رأسه - من يجدد دين الأمة، وذلك بإعادة الحيوية للدين، بحسن الفهم له، والفقه فيه، وحسن العمل به والتطبيق لتعاليمه، وحسن الإيمان به والحماس لنشره والدعوة إليه، وجمع الأمة على هذا الدين، لتعتصم بحبل الله جميعًا ولا تتفرق.

قد يكون مجدد الدين فردًا، وقد يكون أكثر من فرد؛ كما تفيد كلمة (من) في الحديث، وقد ذكر الحفاظ والمؤرخون: عددًا من المجددين في العصور المختلفة، بعضهم اتفقوا عليه، وبعضهم اختلفوا فيه.

ورأيي أنهم أغفلوا كثيرًا من المجددين، ولم يذكروهم.

وكان الواجب على المؤرخين: أن يعطوا عناية أكبر، ومساحة أوسع، لأهل الإصلاح والتجديد في تاريخ الأمة، وما قاموا به من جهود، وما عانوه من عقبات، فهؤلاء هم الذين حفظوا على الأمة هويتها، وأبقوا على شخصيتها، لتظل قائمة برسالتها الربانية التي ناطها الله بها، في إصلاح البشرية، والشهود عليها:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام:

يقول العلامة أبو الحسن الندوي:

من الحقائق التاريخية: أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام،

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة.

والمتقصي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير. والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبت مصابيح الإصلاح، وخفتت أصوات الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلد الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل، إن هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي، وفي نظرتنا العجلى في كتبه. إنما مردها الى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديما وحديثا، ودرجت عليه الأجيال.

الآفة في طريقة تأليف التاريخ:

(إن النقص - ومعذرتي إلى المؤلفين الذين أدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي، ويدين لهم كل مؤلف ودارس - في التأليف، وليس في التاريخ، أو بكلمة أخرى؛ إن المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين، لا على المجددين والمصلحين الذين ظهروا حينا بعد حين، وحفظوا على الإسلام جدته وشبابه، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات، حتى أصبحت مطمورة في الركام الماضي، لا يهتدي إليها أحد في هذا العصر إلا بعد بحث وعناء. وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلا بشق الأنفس واجتهاد العقل والعين، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط، وتستند إلى الملك والسلطان والمال والجاه، وقد كانت في عصرها صاحبة حول وطول، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين - في صحائف الماضي، وأصبحت موضوع علماء الآثار لا محل لها إلا في المتاحف والصحائف).

(إن هذا النقص في التأليف الذي صرحت به مع الاعتذار : جعل كثيرا من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام متقطع، يحتوي على ثغرات واسعة، وفترات طويلة، لا ترى فيها إلا المندفعين مع التيار، المستسلمين للفساد، وأقزاما في العقل والتفكير والعلم والإنتاج .

لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقري بعد عصر طويل، وقد تخلو قرون ومئات سنين عن عظيم يستحق أن يسمى عملاقا أو عبقريا أو مجددا في العلم والدين . إن هذه العقيدة الخاطئة التي لم تقم إلا على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ، وعلى منهاج التأليف الذي اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها اتصال بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمسين، وببعض رجال الدعوة، غلي سوء الظن بالإسلام وضعف إنتاجه . إنها نتيجة خطرة تضعف الثقة بالإسلام، وتضعف العاطفة والإدارة للكفاح في هذا العصر، فإن القوة الباطنية التي تدفع إلى الكفاح والعمل لدعوة، لا تنبع إلا من الثقة بالماضي، وبأن هناك رصيدا من الجهاد والإخلاص وسندا من الكفاح والنجاح) .

مصادر التاريخ المهجورة:

(والذنب ليس على المؤرخين فقط، إن الذنب على من يقتصر على كتب التاريخ (الرسمي) والمصطلح، ولا يتعدى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ، ولا توجد في ركن التاريخ في مكتبة، ولكنها مادة واسعة للتاريخ، ومصدر قيِّم من مصادر التاريخ، هي كتب الأدب، وكتب الدين، والكتب التي دون فيها بعض العظماء اعترافاتهم، وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم، والكتب التي حفظ فيها بعض التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظهم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميع الرسائل والخطب التي تدل على

روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتب التي ألفت في الحسبة، وفي انتقاد المجتمع، وإنكار البدع والمنكرات، فلو اتسعت الدراسة وشملت هذه المصادر المهجورة وتخصصت لهذا الموضوع باحث واسع الفكر، صبور على المطالعة، دقيق في الملاحظة: استطاع أن ينتج تاريخًا متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مترافقان لهذه الأمة لا يتخلفان عنها)[1]. أ. هـ.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٢٦ ـ ٢٨.

٢. مسؤولية كتب الأدب

وهناك فئة أخرى تقع عليها مسؤولية تشويه التاريخ الإسلامي، هي كتب الأدب، أعني الكتب التي تروي حكايات الأدب في شعره ونثره وطرائفه وأقاصيصه وأساطيره.. وتحكي أخبار الأدباء والشعراء ومن يلحق بهم في جدهم وهزلهم، وفي صحوهم وسكرهم، وفي وقارهم ومجونهم، وفي استقامتهم وانحرافهم، وهي تقصد بذلك: إمتاع القارئ وتسليته، وشغل فراغ وقته بما يضحك ويلهي، وبما قد يحزن ويبكي، فليس المقصود من هذه الكتب التحقيق العلمي، والتمحيص التاريخي، لأنها ليست كتبا في التفسير ولا الحديث ولا الفقه ولا أصول الدين، بل هي كتب إمتاع وترويح وإزجاء للفراغ بما يفيد علما وحكمة حينا، أو لا يفيد إلا الضحك والدهشة أحيانا. وهي على كل حال لا يترتب عليها حكم شرعي، من إيجاب أو استحباب أو تحليل أو تحريم.

وقد يدخل في ذلك بعض كتب الجاحظ، مثل: الرسائل وكتاب الحيوان، وغيرها، فقد يذكر فيها أشياء غير ممحصة، تحمل فكرة سيئة أو صورة معتمة عن تاريخ المسلمين.

ونحو ذلك: كتاب «الكامل» للمبرد، فقد يذكر فيه حكايات عن بعض السلف بغير سند معروف يوثقها. ولهذا يجب الاستيثاق من صحة ما يذكره.

وكذلك «العقد الفريد» لابن عبد ربه، قد يذكر مثل ذلك، كالذي نوه به وأنكره ابن خلدون، مما ذكره عن سبب إصهار الخليفة المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته

بوران. إذ لم يكتف المُغْربون بما ذكروه من مبالغات لا تُصدق في عرس «بوران بنت سهل» حتى أضافوا إلى ذلك «حدُّوتة» خيالية أخرى أشبه بما كنا نسمعه في صبانا عن الغيلان والعفاريت، أو عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال! ولقد استنكرها ابن خلدون في مقدمته، فقال:

ومن أمثال هذه الحكايات: ما نقله ابن عبد ربه صاحب «العقد» من «حديث الزِّنبيل» في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مُدلّى من بعض السطوح بمعالق وجُدُل مُغَارة الفَتْل من الحرير، فاقتعده وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صَعَدًا[1] إلى مجلس شأنه كذا، ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف، ويملك النفس، وأن امرأة برزت له خَلَل الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال، فتانة المحاسن، فحيته ودعته إلى المنادمة، فلم يزل يعاقر الخمر حتى الصباح، ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره، وقد شغفته حبًا بعثه على الإصهار إلى أبيها!

وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه، واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه، وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة، ومناظرته للعلماء، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه. فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل، وطروق المنازل وغشْيَان السمر، سبيل عشاق الأعراب؟ وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها، وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف؟

---

(١) يقال عثر في ثوبه يعثر من باب قتل وعثرت الدابة أيضا. فيكون المعنى أنه لم يفطن للزنبيل وهو سائر فعثر فيه. أولعله «عثر على زنبيل» أي وجده واطلع عليه. ـ والزنبيل كقنديل وقد يفتح: القفة أو الجراب أو الوعاء (من القاموس). والمعالق جمع معْلاق بالكسر وهو ما يعلق به اللحم وغيره. ـ والجُدُل جمع جديل من جدل الحبل إذا فتله. ـ وأغار الحبل شدَّ فتله وأحكمه، فالحبل مُغار الفتل، قال امرؤ القيس في معلقته:

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مُغار الفتل شُدَّت بيَذْبُل

(ويذبل اسم جبل) واقتعده أي قعد فيه. ومعني ذهب به صعدًا، أي ارتفع مسرَعًا.

وأمثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة؛ وإنما يبعث على وضعها والحديث بها: الانهماك في اللذات المحرمة، وهتك قناع المخدَّرات، ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذّاتهم. فلذلك تراهم كثيراً ما يهيجون بأشباه هذه الأخبار، ويُنَقِّرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين. ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم، وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم، لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون[1].

وأهم كتاب يذكر هنا هو كتاب «الأغاني» الشهير لصاحبه أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد المعروف بـ«الأصفهاني». والمتوفى سنة ٣٥٦هـ على الأرجح.

وخطر كتاب «الأغاني»: أنه موسوعة كبيرة في الأدب، وأنه من أوائل ما نشر من كتب التراث العربي في عصرنا، ولعل ذلك كان بإيحاء من المستشرقين وتلاميذهم المخلصين. وأنه يتعلق بأحوال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، فقد وقف عند عصر المعتضد. وأنه أجراه في الشكل على طريقة المحدثين، فكل ما فيه من حكايات وغرائب - وإن كانت لا تصدقها العقول - يرويها بالأسانيد: حدثنا فلان عن فلان عن فلان!

وهذه السلاسل من الأسانيد هي التي غرت الكثيرين من طلاب العلم بالكتاب، الذين تصوروا أو توهموا أن كل من قال: «حدثنا أو أخبرنا» كان صادقا أو ثقة فيما يرويه.

إن علماء الحديث هم العمدة في هذا الشأن، وهم الذين اشترطوا الإسناد في كل ما يروى لهم، وقالوا في ذلك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء! وقالوا: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم!

ونظر الإمام الشافعي في تفسير «مقاتل» فقال: يا له من علم لو كان له إسناد!

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٣-٣٨٥.

ولكن المحدثين حينما يشترطون الإسناد في رواية الحديث، لا يقصدون بذلك: مجرد أن تقول: حدثنا فلان عن فلان عن فلان... فلا بد أن يوضع هذا السند على مشرحة التحليل، ويتعرض كل راو فيه للتجريح والتعديل.

فلا يقبل من الرواة إلا الثقة، ونعني به: الذي توافرت فيه صفتان: العدالة والاستقامة من ناحية، والضبط وتمام الحفظ من ناحية أخرى، فإذا اختلت إحدى الصفتين لم يقبل خبر الراوي.

قد يكون الراوي من الصالحين الزاهدين المشهورين بالتقوى، والذين يستسقى بهم الغيث من السماء، ولكنه ضعيف الحفظ، فلا يؤخذ عنه الحديث.

وهذا يقتضى أن يكون الراوى معروفا غير مجهول: معروف العين، ومعروف الحال والسيرة.

وهناك شرط آخر مهم في السند المقبول: أن يكون متصلا من أوله إلى آخره. يعنون: أن كل راو أخذ مباشرة عمن روى عنه، فلا يكون هناك فجوة بين راو وآخر. وإلا كان الحديث منقطعا، ولو كان كل رواته من أوثق الثقات.

فهل يا ترى راعى ذلك صاحب الأغاني، فلا يروي حكاياته إلا عن ثقة معروف بالعدالة والضبط، يروي عن مثله، إلى منتهى السند؟ وهل راعى أن يكون السند متصلا، كما يشترط المحدثون؟

لا أحسب الأصفهاني التزم بذلك في كل ما رواه، ولعل عذره هنا ما ذكرناه عن المؤرخين من مثل: أنه لا يروي في الأحكام وأمور الحلال والحرام، حتى يشدد في أسانيدها، ومن مثل: أنه يروي لك بأسانيده وعليك أن تبحث عنها!

ومن ذا الذي يصبر على البحث عن الأسانيد، ويعاني مشقة ذلك في مظانها من كتب الرجال، في عصر كلَّت فيه العزائم، وانحطت همم الأكثرين عن طلب المعالي، التي قال فيها الشاعر:

بقدر الجد تكتَسب المعالي
ومن طلب العلا سهر الليالي

ولكن الله تعالى شرح صدر أحد إخواننا العراقيين الباحثين، من ذوي الهمم العالية، ليقوم بهذا الواجب، ويحمل على عاتقه عبء البحث عن أسانيد الأصفهاني، صاحب الأغاني، وعاش سنتين كاملتين متفرغا لهذا الأمر الجليل. يفحص رجال الأسانيد الذين روى عنهم الأصفهاني في كتب نقد الرجال، وقرأ ما جاء فيهم من أقوال، فوجد فيهم الكثير من الكذابين والمجروحين والمطعون عليهم، ثم راح يحصي روايات الأصفهاني عن كل واحد من هؤلاء، فهاله كثرة ما نقل عن هؤلاء في مواضع جمة من الكتاب.

وإذا كان هؤلاء الرواة يكذبون في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف بهم في أخبار الناس؟!

هذا ما قام به أخونا الشاعر الباحث الناقد وليد الأعظمي من أدباء العراق رحمه الله، وكانت نتيجة بحثه هذا الكتاب الذي أخرجه للقارئ العربي، الذي سماه «السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني»، ويبدو أن أخانا الأعظمي تخيل نفسه في معركة فشهر فيها سيفه، وأغمده في نحر خصمه! ولا غرو، فهو يتهمه بـ«الشعوبية» والعداء للعرب، كيف وهو عربي قرشي أموي؟! ولم أر أحدا ممن ترجم له وَجَّه له هذه التهمة.

بل رأينا العلامة ابن خلدون أثنى عليه في مقدمته ثناء عاطرا، وقال فيه مشيدا بكتابه «الأغاني»: «.... جمع فيه أخبار العرب، وأشعارهم، وأنسابهم، وأيامهم، ودولهم. وجعل مبناه على الغناء، في مائة الصوت، التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأدناه. ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت إليهم، في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال. ولا يعدل به في ذلك كتاب فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو لها الأدب، ويقف عندها، وأنَّى له بها؟».

وعلق الأخ وليد الأعظمي في نقده للأصفهاني على كلام ابن خلدون

بقوله: يبدو لي أنه لم يقرأ الكتاب كاملا، حتى يصفه بما وصفه به. وإنما نقل ذلك من آراء الآخرين.

والذي يبدو لي أن الرجل قرأ الكتاب، وليس شرطا أن يقرأه من ألفه إلى يائه، حتى يحكم له أو عليه. بل الحكم على الشيء فرع من تصوره، كما قال أهل المنطق. وأعتقد أن الرجل قرأ من الكتاب ما يمكنه من تصوره تصورا كافيا للحكم عليه.

وأنا مع الأخ الأعظمي في أن الأصفهاني روى عن الكذابين والمجروحين، ولكن هذا لا يجعله ـ بالضرورة ـ كذابا أو مجروحا.

فقد رأينا قبل ذلك الإمام ابن جرير الطبري يروي في تاريخه عن الكذابين والمجروحين، ولم يجرح ذلك الطبري نفسه، ولم ينل ذلك من مكانة الطبري المفسر الكبير، والمحدث الجليل، و الفقيه المجتهد، صاحب المذهب المتبوع. ذلك لأنه ينقل ما يرويه بسنده، ولم يلتزم الصحة فيما يرويه، ولا النقل عن الثقات دون غيرهم، ولهذا برئ من العهدة، وكذلك فعل الأصبهاني في كتابه. فلماذا ننكر على هذا، ولا ننكر على ذلك؟!

ولا يلزم من رواياته عن المجروحين: أن يكون له هوى فيما يرويه. فمن المعروف لكل من ترجمه: أنه شيعي، مع أن نسبه أموي. قال الذهبي: وهو نادر«أي أن يكون الأموي شيعيا». ومع هذا روى أشياء عن السيدة سكينة بنت الحسين لا تليق بمكانتها، فهل يتعمد الشيعي أن يسيء إلى أهل البيت؟ أو أن الرجل كان أكبر همه أن يروي للناس كل ما يعجب ويطرب، ما صح منه، وما لم يصح ما دام يرويه بسنده!

وقد ترجمه كثيرون من الحفاظ والمؤرخين، فلم أر أحدا جرحه غير ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه عن الفوبختي قال: كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس. كان يدخل سوق الوراقين، وهي عامرة، والدكاكين، وهي مملوءة

بالكتب، فيشتري شيئا كثيرا من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها[1]!

ونقل الخطيب عن العلوي قال: وكان أبو الحسن البتّي يقول: لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج الأصفهاني[2]. فتعارضت الأقوال فيه، وإذا تعارض قولان ولا مرجح تساقطا.

ترجم الذهبي في «السير» فقال عنه: العلامة الأخباري... كان بحرا في الأدب... وكان بصيرا بالأنساب وأيام العرب، جيد الشعر.

قال أبو علي التنوخي: ومن الرواة المتّسعين الذين شاهدناهم: **أبو الفرج علي ابن حسين الأصبهاني؛ فإنه كان يحفظ من الشعر، والأخبار والأغاني، والمسندات، ما لم أر قط من يحفظه مثله، ويحفظ اللغة والنحو والمغازي، وله** تصانيف عديدة...

وذكروا من تصانيفه الكثير، منها ما عرف في المشرق مثل **«الأغاني» و «مقاتل** الطالبيّين» و «أيام العرب» في خمسة أسفار، ومنها: ما لم يعرف إلا في الأندلس.

وقد قال الذهبي: لا بأس به.

وقال في «ميزان الاعتدال»: كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار، وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات. يأتي بأعاجيب بـ«حدثنا وأخبرنا» والظاهر أنه صدوق.

وقال الحافظ ابن حجر في كتابه «لسان الميزان»: وقد روى عنه الدارقطني عدة أحاديث في «غرائب مالك» ولم يتعرض له[3]. فهذا رأي أئمة الحديث فيه، وهم أئمة الجرح والتعديل.

---

(١) تاريخ بغداد (١١/ ٣٩٩).

(٢) نفسه (١١/ ٤٠٠).

(٣) انظر: السير للذهبي (١٦/ ٢٠١) والميزان (٣/ ١٢٣) ولسان الميزان لابن حجر (٥/ ٥٢٦، ٥٢٧) ترجمة (٥٣٧١) تحقيق عبد الفتاح أبي غدة. طبعة دار البشائر الإسلامية-بيروت.

وأغلب الذين كتبوا عن الرجل لم يتهموه، ولكن العيب في منهجه الذي التزمه، وهو أنه يروي ما صح وما لم يصح. وعذره - كما قلنا - أنه يروي بالسند، ويحمّل قارئه تبعة البحث عنه. ولكن مما يؤسف له: أن المعاصرين لم يعودوا يعرفون الأسانيد، ولا يلقون لها بالا. و إنما يكونون فكرتهم من مجموع ما يقرءون. وغالبا ما تكون فكرة سوداء، تدين الأمة وتاريخها، وتنظر إليه نظرة غير عادلة، استمدت حيثياتها من هذه الأقاصيص والأساطير.

وقع في هذا رجال كبار، مثل الداعية الكبير العلامة أبي الحسن الندوي، الذي نقل عن «الأغاني» بعض ما يستنكر من القصص، التي تشوه صورة عصرها، وذلك في كتابه القيم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام». كما نقل عن ابن خلكان وغيره ما لا يقبله منطق.

وهذا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي في عصره، يقول عن القرن الثاني الهجري: «كان هذا العصر إذن عصر شك في كل شيء، وعصر مجون وتهتك في الحياة العملية، وفي القول أيضا..»[1].

وفي مناسبة أخرى يقول:

«فاعتقدت - وما زلت أعتقد - أن القرن الثاني للهجرة، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد، وأصحاب النسك، والمشغوفين بالجد، إنما كان عصر شك ومجون، أُفتتان وانحراف عن الأخلاق المألوفة، والعادات الموروثة، والدين أيضا»[2].

وعمدة طه حسين فيما يقرره هنا، هو: كتاب (الأغاني) وما يوحي به لقارئه من انطباع عن المجتمع، وما فيه من لهو وخلاعة ومجون، وحياة بعيدة عن جو الدين والإيمان.

---

(١) حديث الأربعاء لطه حسين (٢/ ٢٩).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٨٦).

وهنا نسأل الأديب والناقد الكبير: هل يسوغ لنا أن نأخذ صورة المجتمع الإسلامي بكل شرائحه وأبعاده وآفاقه من كتاب مثل الأغاني؟ وهو يركز أكبر همه على جانب محدود في المجتمع العريض، هو جانب الغناء الطرب واللهو والمجون وما يتصل بذلك؟

وهنا نقف وقفة عادلة للتمييز بين موقف طه حسين وموقف الشيخ الندوي الذي نقل عن القرن الثاني الهجري ما وافق طه حسين في الجملة، ولكن إذا تأملناه: نجد الفرق واضحا والبون شاسعا بين الدكتور طه حسين، والعلامة الندوي.

فطه حسين يركز على الجانب السيئ والمظلم في المجتمع، ويكرر الحديث عنه، وكأنه هو الأصل، ولا يكاد يوجد ما يناوئه أو يقاومه.

على حين نجد الندوي يركز على الجوانب المشرقة، والصفحات المضيئة في المجتمع، ويبرزها ويجليها للعيان، حتى تكاد تنسي الجوانب الأخرى أو تغطي عليها.

وهذا ما يقتضيه العدل والإنصاف، بل ما يقتضبيه منطق الإيمان، فإن المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبة عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، و إذا حكم أعطى كل ذي حق حقه.

انظر إلى الشيخ الندوي، وهو يتحدث عن القرن الثاني الهجري الذي جعله طه حسين عصر المجون والخلاعة والشك والانحراف، يقول الندوي بعد ما ذكر ما ذكر عن حياة البذخ والترف، والسفه واللهو: «ولكن بجوار هذه المدنية المائجة والحياة الباذخة، وبجانب هذا السرف والترف، والزهو واللهو: نرى رجالا قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله، وتزكية النفوس، ونشر العلوم الدينية، والعكوف على التعلم والتعليم، وقد ثاروا على هذه الحياة وإغراءاتها، وانحسرت عنهم موجات الغنى والترف، وارتدت عنهم خائبة حسيرة وكأنها

لم تجد إلى قلوبهم سبيلا، وقد شغلوا ـ كالحسن البصري من قبل ـ بالمحافظة على روح هذه الأمة وصلتها بالله، وبالمحافظة على منابع الحياة الإسلامية (القرآن والحديث) وفشلت الحكومات في أن تشتري ضمائرهم، أو تشغلهم عن عملهم، وكانوا جزرا بشرية في بحر المادية المائج، يأوي إليها الغرقى ومن انكسرت سفينته. وقد أقاموا بجنب الحياة المترفة في بغداد، حياة زاهدة تقوم على الإيمان، وتقدير القيم الروحية والخلقية، تفوق ـ في سلطانها على القلوب، وفي سمتها أحيانا ـ الحياة المادية. فإن كان الخلفاء وأمراؤهم يحكمون الأجسام فقد كان هؤلاء يحكمون القلوب والعقول، فإذا وقع صراع بين هؤلاء وأولئك كان الانتصار في كثير من الأحيان للآخرين، ويخضع سلطان السياسة لسلطان الروح والعقيدة، ويتضاءل الخليفة والأمير أمام عالم كبير أو محدث جليل.

وقد حكى ابن خلكان قصة تدل على سلطان رجال العلم والدين في هذا العصر. قال: «قدم هارون الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة، يقال له: عبد الله ابن المبارك! فقالت: هذا ـ والله ـ الملك، لا ملك هارون الذي لا يَجمع الناس إلا بشُرط وأعوان!»[1].

قال الندوي:

وقد ظهرت هذه الحياة الدينية التي يسود فيها الإيمان والتقوى والانقطاع إلى العلم والزهد بوضوح في بغداد؛ فكانت بغداد منتجعا لرواد العلم والدين، ولأصحاب الإيمان واليقين، وللدعاة إلى الله؛ فقد قصدوها من كل جانب، وألقوا فيها عصا التسيار، واتخذوها مركز نشاطهم ودعوتهم؛ لأنها مركز الأعصاب في جسم العالم الإسلامي، وقلبه النابض؛ فإذا تأثرت بالدعوة فقد تأثر العالم

---

(١) وفيات الأعيان: ج٢، ص ٢٣٨، ترجمة عبد الله بن المبارك.

الإسلامي، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله! لذلك نرى فيها أئمة الفنون، (يعني: فنون العلم) وكبار الدعاة، وأعلام الزهاد، حتى إن الذي يطالع كتب الطبقات والتراجم، يتخيل أن بغداد هي: مدرسة للحديث، أو مسجد للوعظ والتذكير، أو مركز للتزكية والتربية، لا يسمع فيها إلا درسا يقرأ، وقرآنا يتلى، وحديثا يروى، وقلبا عليلا يداوى فيشفى، ويرى فيها دولة للعلم والدين لا تقل في سلطانها وسعتها عن خلافة العباسيين.

وقد كان للعلماء الأعلام وبعض الزهاد المحدثين مواقف مجيدة أمام الخلفاء أدوا فيها النصيحة، وحذروهم من سطوة الله، وتبرءوا من الجور الفاشي، والظلم القاسي، كالذي كان من الأوزاعي[1] وسفيان الثوري[2] عند المنصور، وصالح بن عبد الجليل[3] بين يدي المهدي، وابن السماك عند الرشيد[4])[5].

---

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه: ج٣، ص١٦٢.

(٢) أيضا: ص٦٥.

(٣) أيضا: ص١٥٨.

(٤) أيضا: ص١٦٤.

(٥) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص٨٤-٨٦.

٣.مسؤولية المحدثين

وكما أن المؤرخين ورواة الأدب يحملون قدرا كبيرا من المسؤولية عن ظلم تاريخنا وتشويهه: أرى أن المحدثين ـ أو كثير منهم ـ يشاركونهم في حمل قدر من المسؤولية.

وذلك بما نقلوه من الروايات التي تحصر الخلافة الراشدة ـ خلافة النبوة ـ في مدة ثلاثين سنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكون بعدها الملك العضوض.

وإنما قلت: كثير من المحدثين لأن هناك محدثين لم يرووا شيئا من ذلك قط، مثل الإمامين الجليلين: البخاري ومسلم في صحيحيهما، فلم يرو واحد منهما شيئا عن تحديد مدة الخلافة الراشدة.

إنما الذي روى ذلك أصحاب المسانيد والسنن والمعاجم، مثل الإمام أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي والطبراني والبزار والحاكم وغيرهم. وهم لم يلتزموا فيما يروونه الصحة عدا الحاكم.

وقد رووا جميعا هذا الحديث عن صحابي واحد غير مشهور، وحتى إن اسمه غير معلوم، وإنما عرف بلقبه، وهو «سَفينة» مولى النبي صلى الله عليه وسلم. ومدار الحديث على راو واحد، مختلف فيه، هو سعيد بن جُمْهان الأسلمي، فقد نقل عن يحيى بن معين: أنه ثقة.

وقال ابن عدي في الكامل: رَوى عن سفينة أحاديث لا يرويها غيره، أرجو أنه لا بأس به. فإن حديثه أقل من ذلك.

وقال الآجرّي عن أبي داود: ثقة.

وفي موضع آخر قال: هو ثقة إن شاء الله. وقوم يضعّفونه (أي يقعون فيه) إنما يُخاف ممن فوقه - وسمي رجلا، يعني: سفينة.

وقال النسائي: ليس به بأس[1].

ومثل هذا لا يعتمد عليه في الأحاديث التي تتعلق بشأن خطير، كتحديد مدة الخلافة الراشدة، أو خلافة النبوة.

والحديث كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعيد بن جمهان عن سفينة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الخلافة ثلاثون عاما، ثم يكون بعد ذلك الملك».

قال سفينة: أمسكْ: خلافة أبي بكر: سنتين، وخلافة عمر: عشر سنين، وخلافة عثمان: اثنتيَ عشرة سنة، وخلافة عليّ ست سنين[2].

والمراد بالخلافة: خلافة النبوة، كما في رواية أبي داود (٤٦٤٧).

واعتبار خلافة علي ست سنين، بإضافة مدة خلافة الحسن رضي الله عنهما إليها، كما قال السندي رحمه الله[3].

على أنّ هذا الحديث - على ما فيه - لم يصف الملك بـ «العضوض». ولعله أراد أنه أصبح يتوارث، كما هو شأن الملك في سائر الأمم. فهذا هو الذي يمكن أن يؤخذ من الحديث. ويكون الفرق بين الخلافة الراشدة والملك: أن الخلافة لا تورث، والملك يورث.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال للمزي (١٠/ ٣٧٦-٣٧٩) الترجمة رقم (٢٢٤٦). وتهذيب التهذيب لابن حجر (٤/ ١٤) وميزان الاعتدال للذهبي (الجزء الثاني. الترجمة (٣١٤٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٩١٩) الموسوعة الحديثية (٣٦/ ٢٤٨-٢٥٦). بإشراف شعيب الأرناؤوط. ومشاركة عدد من العلماء. وقالوا في تخريج الحديث: إسناده حسن. وهذا أقصى ما يقال فيه، وفيه نوع من التساهل لما في ابن جمهان من المقال.

(٣) الموسوعة الحديثية (٣٦: ٢٥٠) طبعة الرسالة. بيروت.

على أن المسلمين رضوا تسمية هؤلاء «الملوك» منذ عهد معاوية إلى عهد آخر سلاطين آل عثمان بـ «الخلفاء». واعتبروا الخلافة المفروض إقامتها على المسلمين: قائمة حتى ألغاها أتاتورك. واعتبر علماء المسلمين ودعاتهم هدم هذه القلعة التاريخية حدثا خطيرا في تاريخ الإسلام، وكارثة في حياة المسلمين.

ولقد رأينا المؤرخين المسلمين الكبار يذكرون أمراء بني أمية، وبني العباس، وبني عثمان باسم «الخلفاء» ورأينا كتاب «تاريخ الخلفاء» للإمام السيوطي.

روى الإمام أحمد في مسنده قال:

حدثنا سليمان بن داود الطَّيالسيُّ، حدثني داود بن إبراهيم الواسطيُّ، حدثني حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير، قال: كنا قُعودًا في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بشيرٌ رجلاً يكفُّ حديثَه، فجاء أبو ثَعلبة الخُشَني، فقال: يا بشيرُ بن سعد، أتحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظُ خُطبته، فجلس أبو ثَعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون النُّبُوَّةُ فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يَرْفَعُها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضّا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة». ثم سكت.

قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبتُ إليه بهذا الحديث أذكِّره إياه، فقلت له: إني أرجو أن يكون أميرُ المؤمنين - يعني عمر - بعد الملك العاضِّ والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز، فسُرَّ به وأعجبه[1].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٤٠٦) وقال مخرّجو المسند: إسناده حسن، وأطالوا في تخريجه، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد): (٥/ ١٨٨، ١٨٩) وفيه سقطت بعض الجمل، وقال: رواه =

والحديث لم يحدد مدة الخلافة التي على منهاج النبوة، بل قال: فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها.

وتفسير راوي الحديث بأن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، جاء بعد الملك العاض والجبرية: اجتهاد منه، فلعل ما مضى من بني أمية لم يكن هو المقصود بالملك العاض، وملك الجبرية، وإن وقعت فيه مظالم كبيرة، ولا سيما زمن الحجاج الظلوم الجبار العنيد.

أحاديث الفتن:

ومما يؤخذ على المحدثين: أنهم ساقوا أحاديث كثيرة في الفتن وأشراط الساعة، توحي إلى قارئها: أن الإسلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأن كل زمان شر مما قبله بإطلاق، وأن الخير يقل، والشر يكثر، وأن الأخيار يتأخرون، والأشرار يتقدمون، مما ترك انطباعا لدى الكثيرين: أنهم في آخر الزمان، وأن الساعة توشك أن تقوم، وأنها لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله، الله.

ولا سيما مع شيوع الأحاديث الواهية والموضوعة التي تزعم أن هذه الأمة لن تكمل الألف سنة!!.

ولم تشع الأحاديث المبشرة في الناس، شيوع الأحاديث الموئسة والمحبطة. مع كثرة المبشرات من الأحاديث الصحاح.

= أحمد في ترجمة النعمان، والبزار أتم منه، والطبراني ببعضه في الأوسط، ورجاله ثقات. ورواه الطيالسيّ في مسنده (٤٣٨) وقد وقع فيه سقط وتحريف. وفي الحديث بعض ألفاظ غريبة، كقول النعمان: «كنا في المسجد مع رسول الله» فمن البيّن: أن سؤال أبي ثعلبة الخشني لم يكن في وجود الرسول، فلا معنى لهذه الكلمة، إلا أن يكون معنى مَجازيّا؛ أي مع حديثه وسيرته صلى الله عليه وسلم. أو يكون هناك غلط ناسخ. والمقصود: فى مسجد رسول الله. وقوله: «وكان بشير (والد النعمان) يكف حديثه» يعني: أنه كان قليل الكلام، وخصوصا في الرواية عن رسول الله، لذا لم يبادر لإجابة السائل.

مثل حديث تميم الداري : (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يبقى بيت مدر أو وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل : عز يعز الله به الإسلام ، وذل يذل الله به الكفر) . [1] فهذا بشير إلى سعة انتشار الدين .

ومثل حديث ثوبان : (إن الله زوى لي الأرض (جمعها وقبضها لي) فأريت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها)[2] وهذا يشير إلى سعة الملك وقوة دولة الإسلام .

ومثل حديث البشارة بفتح رومية (أي روما) بعد فتح القسطنطينية ، ومعنى فتح رومية[3] : عودة الإسلام إلى أوربا فاتحا مرة أخرى ، بعد أن طرد منها مرتين : مرة من الأندلس ، ومرة من البلقان .

وليس من الضروري أن يكون الفتح الموعود بالسيف والحرب . في اعتقادي : أن الفتح هذه المرة سيكون فتحا بالدعوة والفكر ، وليس بالسيف والمدفع . والفتح السلمي له أصل في الإسلام ، فقد نزل في صلح الحديبية قوله تعالى : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ (الفتح : ١) . . . وسأل عمر : أفتح هو يا رسول الله؟ قال : «نعم هو فتح»[4] . لم يتصوروا فتحًا بغير حرب .

---

(١) رواه أحمد (١٦٧٥٧) وقال : محققو المسند : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٨٨٩) ، وأخرجه ابن منده في الإيمان (١٠٨٥) ، والطبراني في الكبير (١٢٨٠) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٨١) ، من طريق أبي المغيرة بهذا الإسناد ، والهيثمي في المجمع (٦/ ١٤) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان .

(٣) رواه أحمد (٦٦٤٥) عن عبد الله بن عمرو ، وأخرجه الحاكم في المستدرك من طريق بن وهب (٤/ ٥٥٥) وأخرجه أيضا بطريق آخر (٤ / ٤٢٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢١٩) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة ، وصححه الألباني وأورده في السلسة الصحيحة . وذكر محققو مسند الإمام أحمد : الشيخ شعيب الأرناؤوط وإخوانه في التعليق عليه : أن إسناده ضعيف لأن فيه يحيى بن أيوب : وهو الغافقي المصري وذكروا الخلاف الذى فيه ، وأنا أرجح تصحيح الحديث وما قالوه لا ينزل بالحديث عن درجة الحسن .

(٤) متفق عليه من حديث سهل بن حنيف . انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١١٦٨) .

وهناك أحاديث كثيرة كلها تبشر بخير لمستقبل الإسلام وأمته، أودعنا جملة منها في رسالتنا «المبشرات بانتصار الإسلام» من رسائل ترشيد الصحوة، فليراجعها من أراد الاستزادة من المبشرات.

حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة:

ومما ألوم عليه المتأخرين من المحدثين: تبني حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. ومحاولة تقويته ـ وإن كان ضعيفا ـ بكثرة الطرق. وهو لا يرقى بذاته إلى درجة الصحة. ولذلك لم يورده كِلاَ الشيخين: البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وهذا الحديث له تأثيره وإيحاؤه في أنفس من يؤرخ للأمة، وينظر إلى كل الفرق، نظرته إلى أقوام من أهل النار الهالكين. وقد ناقشت هذا الحديث في سنده ومتنه في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع، والتفرق المذموم» وكان مما قلت فيه:

أما حديث افتراق الأمة إلى فرق فوق السبعين كلها في النار إلا واحدة، ففيه كلام كثير في ثبوته وفي دلالته.

(أ) فأول ما ينبغي أن يعلم هنا أن الحديث لم يرد في أي من الصحيحين، برغم أهمية موضوعه، دلالة على أنه لم يصح على شرط واحد منهما.

وما يقال من أنهما لم يستوعبا الصحيح، فهذا مسلم، ولكنهما حرصا على ألا يدعا بابا مهما من أبواب العلم إلا ورويا فيه شيئا ولو حديثا واحدا.

(ب) إن بعض روايات الحديث لم تذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة، وإنما ذكرت الافتراق وعدد الفرق فقط. وهذا هو حديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وفيه يقول:

«افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى

على إحدى ـ أو اثنتين ـ وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[1].

والحديث ـ وإن قال فيه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم ـ مداره على محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، ومن قرأ ترجمته في «تهذيب الكمال» أو في «تهذيب التهذيب»[2]، علم أن الرجل متكلم فيه من قبل حفظه، وأن أحدا لم يوثقه بإطلاق، وكل ما ذكروه أنهم رجحوه على من هو أضعف منه. ولهذا لم يزد الحافظ في التقريب على أن قال: صدوق له أوهام. والصدق وحده في هذا المقام لا يكفي ما لم ينضم إليه الضبط، فكيف إذا كان معه أوهام؟!

ومعلوم أن الترمذي وابن حبان والحاكم من المتساهلين في التصحيح، وقد وصف الحاكم بأنه واسع الخطو في شرط التصحيح.

وهو هنا صحح الحديث على شرط مسلم، باعتبار أن محمد بن عمرو احتج به مسلم، ورده الذهبي بأنه لم يحتج به منفردا، بل بانضمامه إلى غيره[3]. على أن هذا الحديث من رواية أبي هريرة ليس فيه زيادة: أن الفرق «كلها في النار إلا واحدة» وهي التي تدور حولها المعركة.

وقد روي الحديث بهذه الزيادة من طريق عدد من الصحابة: عبد الله بن عمرو، ومعاوية، وعوف بن مالك، وأنس، وكلها ضعيفة الإسناد، وإنما قووها بانضمام بعضها إلى بعض.

---

(١) رواه أحمد (٨٣٧٧)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، والترمذي (٢٦٤٢) وقال: حسن صحيح، وأبو يعلى في مسنده (٥٩١٠)، وابن حبان في صحيحه (٥٩١٠).

(٢) انظر: ترجمته في «تهذيب الكمال» ج٢٦ ص ٢١١ وما بعدها، وفي «تهذيب التهذيب» ٩/ ٣٧٥ وما بعدها. وقد قال يحيى بن معين عنه: ما زال الناس يتقون حديثه. وقال أبو حاتم: صالح الحديث، يكتب حديثه، وهو شيخ!! وقال ابن حبان في الثقات: كان يخطئ.. إلخ.

(٣) المستدرك (١/ ٦).

والذي أراه: أن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه، كما يبدو ذلك في كتب التخريج، والعلل، وغيرها! وإنما يؤخذ بها فيما لا معارض له، ولا إشكال في معناه.

وهنا إشكال أي إشكال في الحكم بافتراق الأمة أكثر مما افترق اليهود والنصارى من ناحية، وبأن هذه الفرق كلها هالكة وفي النار إلا واحدة منها. وهو يفتح بابا لأن تدعى كل فرقة أنها الناجية، وأن غيرها هو الهالك، وفي هذا ما فيه من تمزيق للأمة وطعن بعضها في بعض، مما يضعفها جميعا، ويقوي عدوها عليها، ويغريه بها. (كما ينافي خيرية هذه الأمة، وأنها أمة مفضّلة، وأنها أمة مرحومة).

ولهذا طعن العلامة ابن الوزير في الحديث عامة، وفي هذه الزيادة خاصة، لما تؤدي إليه من تضليل الأمة بعضها لبعض، بل تكفيرها بعضها لبعض.

قال رحمه الله في «العواصم» وهو يتحدث عن فضل هذه الأمة، والحذر من التورط في تكفير أحد منها، قال: وإياك والاغترار بـ «كلها هالكة إلا واحدة» فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة، ولا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة.

قال: وعن ابن حزم: إنها موضوعة، غير موقوفة ولا مرفوعة، وكذلك جميع ما ورد في ذم القدرية والمرجئة والأشعرية، فإنها أحاديث ضعيفة غير قوية[1].

(جـ) إن من العلماء قديما وحديثا من رد الحديث من ناحية سنده، ومنهم من رده من ناحية متنه ومعناه.

فهذا أبو محمد بن حزم، يرد على من يكفر الآخرين بسبب الخلاف في الاعتقاديات بأشياء يوردونها.

وذكر من هذه الأشياء التي يحتجون بها في التكفير حديثين يعزونهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هما:

١ ـ «القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة».

---

(١) انظر: العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم (١/ ١٨٦، ١٨٧).

٢ - «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة، كلها في النار حاش واحدة، فهي في الجنة».

قال أبو محمد: هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به؟[١]

وهذا الإمام اليمني المجتهد، ناصر السنة، الذي جمع بين المعقول والمنقول، محمد بن إبراهيم الوزير يقول في كتابه «العواصم والقواصم» أثناء سرده للأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه، فكان منها «الحديث الثامن»: حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا فرقة واحدة، قال: وفي سنده ناصبي، فلم يصح عنه، وروى الترمذي مثله من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص، وقال: حديث غريب. ذكره في الإيمان من طريق الإفريقي واسمه عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن يزيد عنه.

وروى ابن ماجه مثله عن عوف بن مالك، وأنس.

قال: وليس فيها شيء على شرط الصحيح، ولذلك لم يخرج الشيخان شيئا منها. وصحح الترمذي منها حديث أبي هريرة من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، وليس فيه «كلها في النار إلا فرقة واحدة» وعن ابن حزم: أن هذه الزيادة موضوعة، ذكر ذلك صاحب «البدر المنير»[٢].

وذكر الإمام الشوكاني قول ابن كثير في الحديث ثم قال: قلت: أما زيادة «كلها في النار إلا واحدة» فقد ضعفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة[٣].

---

(١) انظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٣/ ٢٩٢) طبعة عكاظ للنشر والتوزيع.

(٢) انظر: العواصم والقواصم (٣/ ١٧٠ - ١٧٢). وانظر كتابنا «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

(٣) ذكره الشوكانى تفسير الآيات ٦٥ - ٦٧ من سورة المائدة (٢/ ٥٩) طبعة دار الفكر. بيروت. وانظر: الصحوة الإسلامية المذكور ص٣٤-٣٩. طبعة دار الشروق بالقاهرة.

(٥)

في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

١ ـ لماذا التنادي بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي؟

٢ ـ من الذي يكتب التاريخ الإسلامي؟

٣ ـ كيف يكتب التاريخ الإسلامي؟

١ـ لماذا التنادي بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي؟

تنادى الكثيرون في هذا العصر بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي؛ ليكتب وفق منهج جديد، وتفسير جديد.

ولا ريب أن هذا مطلوب ومهم، ولكنه مزلق خطر، فإن كل جماعة تريد أن تكتب التاريخ وفق مدرستها الفكرية، وعقيدتها «الأيديولوجية».

فالعلماني الليبرالي يريد أن يوجه التاريخ في كتابته ليخدم الفلسفة الفردية، والنظرة الرأسمالية، ويلون الأحداث ويفسرها وفقا لذلك.

والماركسي يريد أن يفسر التاريخ تفسيرا ماديا، وأن يستبعد الفكرة الغيبية والروحية ـ من الإيمان بالله وبالوحي وبالآخرة ـ في توجيه الأحداث، وأن يؤيد الفلسفة الجماعية، والصراع الطبقي، حتى في السيرة النبوية، فهو يقسم الصحابة بين يمين ويسار، ويدير بينهما صراعًا موهومًا.

والقومي العربي ينظر إلى كل شيء من خلال نزعته القومية، فلا يكاد يعترف بالأقوام الأخرى. وهو يجر الوقائع جرا ليخدم قوميته، ويعطي العباقرة في جوانب العلم والعمل: جنسيته القومية، ليكثر من أبطاله . . . وهكذا.

تاريخنا كما تريده القوى الكبرى:

كما أن بعض القوى الكبرى في عالمنا اليوم ـ وعلى رأسها أمريكا ـ: تريد أن نغير من أجلها هويتنا وذاتيتنا، وتريد لذلك أن تتحكم في حاضرنا، وأن تقرر لنا ما يجب أن نتعلمه، حتى أحكام ديننا!! وأن تنوب عنا في تقرير مصيرنا ومستقبلنا ـ

هذه القوى نفسها تريد كذلك أن تتدخل في ماضينا، لتصوره لنا على ما تريده هي، فتأخذ منه وتبقي، وتغير منه وتبدل، فلا غرو أن تطلب علنًا - أو من وراء ستار - أن نحذف من تاريخنا: غزوات الرسول وسراياه، وفتوحات الصحابة والتابعين، ومعارك المسلمين في رد حروب الفرنجة (الصليبيين) ورد غارات التتار، وأن نحذف أسماء أبطالنا: أبي عبيدة، وسعد، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعقبة ابن نافع، وطارق بن زياد، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، ومحمد الفاتح، وأمثالهم.

والخلاصة: أنهم يريدون أن يكتبوا لنا التاريخ بأقلامهم - أو بأقلام عبيدهم وخدامهم - ليقدموا لنا مسخًا مشوهًا، لا يمت إلينا بصلة، ولا نعرفه ولا يعرفنا.

وكتابة التاريخ بهذه الطريقة لا تفيد، بل هي تضر أكثر مما تنفع. ولو فعلنا ذلك سنضطر بعد عدة سنين: أن ننادي من جديد، بإعادة كتابة ما كتب، وهكذا دواليك.

ولهذا إذا أردنا كتابة التاريخ الإسلامي، فلابد أن نحدد الهدف من إعادة كتابته، وأن نحدد النواقص التي نريد أن نتفاداها فيه، ونتفق عليها. ونحدد المنهج الذي يكتب التاريخ على أساسه.

٢ ـ من يكتب التاريخ الإسلامي؟
وكيف يكتب؟

وبهـذا نرى أنه ليس كل من تخصص في علم التاريخ قادرا على أن يكتب تاريخنا الإسلامي. فلابد أن يتسلح لذلك بثقافة إسلامية تمكنه من فهم هذا التاريخ، وفهم أمته التي صنعته، وفلسفتها وعقائدها وشرائعها وحضارتها. ويعرف الطريقة التي كتب بها مؤرخونا الأوائل تاريخ الأمة، وما فيها من نقاط ضعف، يجب أن تستدرك. ويعرف المصادر الكثيرة المتعددة التي يجب أن يستقي منها التاريخ، غير مصادر التاريخ العام المورثة، وهي مصادر شتى، ذكرنا عدداً منها، ونحن نتحدث عن مسؤولية المؤرخين.

كما يجب أن يشعر بمسؤوليته أمام الله تعالى، وأمام ضميره، وأمام الأمة عما يكتب، فما يكتبه يمس عِرْض أمة كبرى، قامت على أساس دين عظيم، وصنعت حضارة شامخة.. فلا يجوز الاستهانة به أو التساهل فيه. ولهذا يجب أن يحترز ـ أول ما يحترز ـ من التحيز والهوى الذي يعمي ويصم، ويضل عن الحق. وأن يحرر الوقائع الشائكة ـ وخصوصا فى عصور الفتن والصراع ـ من الروايات المدسومة، والحكايات المضللة، كما نبه على ذلك من قديم: السيد محب الدين الخطيب، والدكتور محمد فتحى عثمان، وغيرهما.

آفتان يجب التحرر منهما:

إن كتابة تاريخ الأمة يجب أن تحرر من آفتين أساسيتين:

أولاهما: ضعف التوثيق والإثبات.

وثانيتهما: سوء التفسير والقراءة للأحداث.

والتحرر من هاتين الآفتين شرط أساسيّ لاعتماد منهج صحيح لكتابة تاريخ أمتنا.

١ـ ضعف التوثيق:

فأما ضعف التوثيق، فقد تحدثنا عنه، وفصلنا فيه من قبل عند كلامنا عن مسؤولية المؤرخين الأوائل في قبول كل ما نقل وتدوينه ونشره، وإن كان سنده مكذوبا أو واهيا أو مجروحا، في نظر أئمة التجريح والتعديل. وحسبهم أنهم نقلوا إلى من بعدهم الخبر بسنده، وعلى من أراد الاستيثاق أن يبحث عن رجال السند، ومدى عدالتهم وضبطهم.

وأن المنهج الصحيح لكتابة هذا التاريخ: أن نعيد النظر في أسانيد الروايات، فإذا كان الراوي صاحب نحلة ويروي ما يروج نحلته، ويؤيد طائفته، فلابد أن نقف منها موقف المتشكك إن لم يكن موقف الرافض. وكذلك إذا كان الراوي متهما بالكذب أو بفحش الغلط وعدم الضبط، أو نحو ذلك، مما يسقط اعتبار روايته أو يشكك في قبولها. أعني: أن لابد هنا أن نستعين بمنهج المحدثين، وإن كان جمهور المؤرخين يرفضون ذلك، لأنهم لا يحسنون التعامل مع هذا المنهاج.

وقد ناقشنا بعضهم ممن حضر المؤتمر العالمي للسنة والسيرة الذي عقد في قطر في مطلع القرن الخامس عشر الهجري فقالوا: إننا لو حكّمنا منطق المحدثين لم يكد يبقى لنا في التاريخ شيء يعتمد عليه. وكان جوابنا: على الأقل يجب أن نحكّم هذا المنهج في القضايا الكبيرة المختلف فيها، حتى نقيم الحجة على المخالف، ولا يكون ترجيحنا بلا مرجح.

ولا نعني بمنهج المحدّثين: البحث فى الشكل دون المضمون، أعنى البحث فى الأسانيد والرواة، دون العناية بالبحث فى النص أو «المتن» حسب تعبير مصطلح الحديث.

بل لابد من البحث فى الأمرين كليهما : السند والمتن معا . بحيث ننظر فى الرواة ومدى صدقهم وعدالتهم من ناحية ، ومدى حفظهم وضبطهم وإتقانهم من ناحية أخرى ، بحيث تتوافر الثقة بهم من الناحية الأخلاقية ، ومن الناحية العقلية . وهو ما كان عليه الأئمة الأولون الذين جمعوا بين الحديث والفقه معا ، وسماهم بعضهم فقهاء الحديث ، مثل الأئمة مالك وسفيان الثورى والشافعى وابن حنبل والبخارى وأمثالهم .

فكم رفض هؤلاء أحاديث رواها حفاظ كبار معروفون ، لأنها مخالفة لقواطع الدين أو قواطع العلم ، أو لآيات القرآن ، أو لأحاديث أخرى أقوى ثبوتا وأكثر استفاضة . وهذا ما يجب أن نستفيد منه فى تقويم الروايات التاريخية لقبولها أو رفضها .

ولهذا وجدنا ابن خلدون يرفض كثيرا من «الأعداد» المذكورة فى كتب التاريخ عن بنى إسرائيل وغيرهم ، لما فيها من مبالغات وتهويلات يأباها العقل ، وتكذبها وقائع عصرها ومعطياته .

ولا ينبغى للمؤرخ أن يكون متناقضا فى مفاهيمه ومعتقداته ، فيؤمن بالشىء وضده ، ويقبل روايات تاريخية يرفضها منطق الدين الذي يؤمن به . كأن يقبل روايات واهية تشوه عصر الصحابة ، وعصر التابعين ، اللذين جاءت صحاح الأحاديث تبين أنهما من خير قرون الأمة .

كما ينبغى ألا تتناقض معطيات العلوم المختلفة عنده ، فيقبل من علم التاريخ ، ما يتناقض مع معطيات علم الاجتماع ، أو علم النفس ، أو علم الاقتصاد ، أو العلوم الطبيعية ، أو الرياضية ، أو العلوم الدينية .

وكذلك لا يجوز أن يتعارض ما يرويه التاريخ مع «سنن الله» التى أقام عليها الكون ، وربطها بشبكة الأسباب والمسببات ، فهذا العالم لا يسير جزافا ، ولا يسير على سنن متغيرة ، تثبت اليوم وتنفى غدا ، بل هى سنن ثابتة ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر : ٤٣) .

٢ ـ سوء تفسير التاريخ:

كما يتعرض التاريخ للتحريف والتشويه في تدوينه، يتعرض لهما أيضًا في قراءته وتفسيره.

وفي عصرنا هذا نجد الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية تعمل عملها في قراءة التاريخ وتفسيره وتوجيه وقائعه. وقد انعكس هذا على التاريخ الإسلامي أيضًا.

فالمستشرقون ـ في الغالب ـ حين يبحثون في التاريخ[١]، يخدمون به فكرة بيتوها عن محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، فمحمد ليس برسول الله، والإسلام ليس بدين الله، وأصحابه ليسوا إلا ثلة من المغامرين المتنافسين على الدنيا!

وإذا كان هذا رأيهم في الصحابة فكيف من بعدهم؟

لا دين عندهم إلا اليهودية والمسيحية، أما الإسلام فهو في زعمهم نسخة مُحرَّفة منهما، ولا عبقرية عندهم إلا للغربيين، ولا حضارة غير حضارة اليونان والرومان. والمسلمون لا يزيدون على أن يكونوا نقلة لهما... إلخ.

وفي سبيل هذا يُغْفلون أحداثا قيمة، ويضخمون أحداثا تافهة، ويردون أخبارا صحيحة، ويعتَمدون أخبارا ضعيفة أو مكذوبة، يتصيدونها من أي كتاب مثل «الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة، ومن كتب الأدب، مثل كتب الجاحظ، ومثل كتاب «الأغاني» للأصفهاني. وكثيرا ما نراهم يقرؤون الخبر التاريخي قراءة محرفة، لا أدري: أهو جهل باللغة وأساليبها أم هو عن عمد وسوء قصد!

ويوجهون هذا كله توجيها مسموما يؤيد اعتقاداتهم السابقة عن الإسلام وكتابه ورسوله وصحابته وأمته ورسالته وحضارته.

---

(١) انظر: كتاب: المنهج عند الغربيين في كتابة التاريخ الإسلامي للدكتور عبد العظيم الديب، من منشورات «كتاب الأمة» بالدوحة.

والماركسيون يفسرون التاريخ ـ وفقا لفلسفتهم المعروفة ـ تفسيرا ماديا مستخدما نظرية «الصراع الطبقي»، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره وانتشاره، ويعتسفون في ذلك كل الاعتساف، ويُحَمِّلون الأحداث ما لا تحتمل بحال، ويقسمون الصحابة إلى يمين ويسار، ويديرون صراعا موهوما بينهما . . وهكذا.

وكثير من كتاب المسلمين أنفسهم، يخلعون على حوادث التاريخ، ومواقف رجالها في هذا: ما يتصورونه اليوم من ألاعيب وأكاذيب، ويتخيلون العلاقة بين عمر وخالد، أو بين عثمان وعلي، أو بين علي وطلحة والزبير، من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات الأحزاب، وتجار السياسة في عصرنا، ويفسرون المواقف والأحداث تبعا لهذا التصور الظالم، المتجني على هذا الجيل الرباني، المثالي الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله.

والقوميون من العرب يوجهون التاريخ الإسلامي كله وجهة قومية، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية العربية! ورسول الإسلام ذاته بطل قومي جادت به أمة العرب على الإنسانية! ولا نعجب بعد ذلك إذا غدا «أبطال الإسلام» وعلماؤه ورجالاته الكبار على مدار تاريخه «أبطالا عربا»، مع أن منهم فرسا وأفغانا وهنوداً وغيرهم! ولا نعجب أيضا أن تسمى الحضارة الإسلامية «حضارة عربية» مع أنها بلا ريب إسلامية بحكم أهدافها وقيمها وفلسفتها المستمدة من الإسلام . . إسلامية بحكم بواعثها ودوافعها المرتبطة بخدمة الإسلام . . إسلامية بحكم العناصر التي أسهمت في بنائها وتشييد أركانها، وهي عناصر تشمل كل الأجناس والشعوب الإسلامية (من فرس وأفغان وهنود وأتراك وأكراد وبربر وغيرهم) . . إسلامية بحكم الرقعة التي امتدت إليها وأثرت فيها، وهي رقعة واسعة تشمل العالم الإسلامي كله.

على أن للعرب فضلاً لا ينكر، فهم عصبة الإسلام الأولى، وحملة رسالته الأولون، ومبلغو القرآن والسنة إلى العالمين. وفيهم بُعِثَ الرسول الخاتم، وبلسانهم

نزل الكتاب الخالد، وفي أرضهم حرم الله وحرم رسوله، والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. ولكن هذا شيء، وتحريف التاريخ شيء آخر.

ومن سوء القراءة للتاريخ: أن يحكم عليه وعلى الأمة التى صنعته، من خلال التاريخ السياسى وحده تاريخ الملوك والقادة السياسيين والعسكريين وإغفال المجتمع الكبير بكل فئاته وطبقاته المتعددة، من العلماء والأدباء والزهاد والحكماء، والتجار والصناع والزراع وغيرهم، ممن نبه عليهم الحديث الشريف: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟»[1]. فأشار إلى أن الفئات الضعيفة والمغمورة فى المجتمع هى عمدة الرزق والإنتاج فى السلم، وعمدة الضر فى الحرب.

لذا كان على المؤرخ أن يعطيهم حقهم والمساحة اللازمة لهم، واللائقة بهم عند كتابة التاريخ.

أعداء التاريخ وعبيده:

وعلينا عند كتابة التاريخ: أن نتحرر من التأثر بفئتين تجنح إحداها إلى الإفراط، والأخرى إلى التفريط.

فنحن نعلم أن هناك أناسا من حولنا، ومن بني جلدتنا، ينكرون الماضي، ولا يطيقون التراث، ولا يعيرون أي اهتمام للتاريخ. ويرونه كله ظلمات بعضها فوق بعض.

إنهم يزعمون أنهم دعاة التجديد، والتجديد عندهم: أن نهدم بنيان الماضي، ونبدأ من جديد، وعوام الناس في بلادنا يقولون: من ليس له قديم فليس له جديد. إنهم يريدون أن يحذفوا «الفعل الماضي» من اللغة، ويحذفوا أمس من«الزمن»، وكما وصفهم شوقي:

---

(١) رواه البخارى عن سعد بن أبى وقاص.

ولو اسـتطاعـوا في المجـامع أنكروا

من مـــات من آبائهم أو عُــــمَّـرا

وفي مقابل هؤلاء من يريدون أن نحبس أنفسنا في قمقم الماضي، وأن نظل نجتره بأفراحه ومآسيه، بمحامده ومثالبه، لا نبرحه ولا نعدوه، أو لا نصنع لأنفسنا تاريخًا جديداً. على نحو ما قال الشاعر:

كن ابن من شـئت واكـتـسب أدبًا

يغنيك مـحـمـوده عن النسب

إن الفـتـى من يقـول: هاأنا ذا

ليس الفـتى من يقـول: كـان أبي

بل بعض هؤلاء لا ينظرون إلى تاريخنا إلا على أنه كله أمجاد ومناقب، مدافعين عن أعتى الطغاة فيه!

وقد رددنا على هذين الاتجاهين المتقابلين. في عدة كتب لنا:[1] اتجاه الذين يتنكرون للماضي، ويريدون أن ينسلخوا منه، واتجاه الذين سجنوا أنفسهم في الماضي، لا يريدون أن يخرجوا منه.

مدرسة جديدة لكتابة التاريخ:

ومنذ عقود من السنين في مصر نشأت جماعة تريد أن تعيد كتابة التاريخ وفق منهج جديد، وبخاصة: تاريخ الشخصيات الإسلامية، فتمحص الأسانيد، وتقارن الروايات، وتراعي الاتجاه العام للشخصية، والاتجاه العام للمجتمع.

كما يراعَى سياق الأحداث، بحيث يوضع الحدث في مكانه وزمانه وسياقه التاريخي. ولا نحاكم الأحداث إلى زماننا ومعاييرنا نحن، فيكون في هذا ظلم كبير.

---

(١) منها كتاب «الوقت في حياة المسلم» وكتاب «ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة» وكتاب «بينات الحل الإسلامي» وكتاب «كيف نتعامل مع التراث؟». وغيرها.

وكان من أبرز من نادى بذلك الأديب والناقد والمفكر الكبير: سيد قطب عليه رحمة الله، وقد سجل ذلك في رسالة صدرت بعنوان: «التاريخ: فكرة ومنهاج» بين فيها ما ينبغي أن تكون عليه كتابة التاريخ.

وكان من هذه الجماعة: عالم أزهري، راسخ القدم في علمه، نير البصيرة في رؤيته، غير متحيز لشرق أو غرب، قادر على التمحيص والتحقيق، هو العلامة الشيخ محمد صادق عرجون رحمه الله.

وقد أخرج الشيخ عرجون ثلاثة كتب في هذا السياق. بدأها بكتاب «عثمان بن عفان» فأنصف عثمان، وأنصف الأمة، وأنصف التاريخ.

ثم ثنى بكتاب «خالد بن الوليد» نقد فيه الروايات، وحلل الأحداث، وحقق المواضع التي كانت مثار الجدل في تاريخه، مثل عزل عمر له، وزواجه من امرأة مالك بن نويرة وغيرها، تحقيق العالم المدقق، والمؤرخ المتثبت. والحكم المنصف.

ثم ثلَّث بكتابه الجليل في السيرة النبوية: «محمد رسول الله» في أربعة أجزاء، فدرس فيه أحداث السيرة المهمة دراسة تحليلية معمقة موسعة، تحقق الأسانيد، وتوازن بين الأقوال والروايات، وتفند الشبهات، وترد المفتريات، وتصحح المفاهيم. فجزاه الله عن دينه وعن أمته وتاريخها خيراً.

وانبرى عدد من العلماء الباحثين لمثل ما انبرى له الشيخ صادق عرجون رحمة الله عليه لتصويب الأغلاط، وكشف المغالطات، والرد على الأكاذيب المتعمدة، التي روجها أعداء الأمة، ودخلت ـ للأسف ـ على عقول كثير من أبنائها المخلصين.

فكتب الدكتور جمال عبد الهادي: سلسلة دراسات، تحت عنوان «أخطاء يحب أن تصحح فى التاريخ» كما كتب الدكتور عبد العزيز الشناوي عن «الدولة العثمانية: خلافة مفترى عليها». إلى غير ذلك من الدراسات القيمة بأقلام علماء أثبات مستقلين.

المبالغة في تحسين صورة التاريخ:

وكما أنكرنا على الذين يبالغون في إظهار المثالب والنواقص في تاريخنا، وربما لم تثبت عند التحقيق: ننكر كذلك على الذين يبالغون في تحسين صورته، ولو بالدفاع عمن لا يستحق الدفاع.

فقد بالغ بعض الدارسين، فكتب رسالة ماجستير أو دكتوراه، عنوانها: «الحجاج بن يوسف المفترى عليه» دافع فيها عن الحجاج، محاولاً أن يهون من سيئاته، وأن يضخم من حسناته.

ولاشك في أن للحجاج حسنات وسيئات، ولكن سيئاته أثقل بكثير في الميزان من حسناته، وإثمه أكبر من نفعه. ويكفي ما سفك من دماء حرمها الله، بالظِّنَّة والشبهة، وربما بغير ظنة ولا شبهة.

وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسيره ما رواه عن بعضهم أنه قال: كنت واقفًا على رأس الحجاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث، وهم أربعة آلاف وثمانمائة، (وكان كثير منهم من العلماء) فقَتَل منهم نحو ثلاثة آلاف، حتى قُدِّم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جزاك الله عن السنة والكرم خيرًا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً**﴾ (محمد: ٤). هذا في حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مننت ولا فديت! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم!

فقال الحجاج: أف لهذه الجيف! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خلوا سبيل من بقى. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل(١).

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٦) طبعة دار الكتب المصرية.

فـانظر كـيف قـتل الرجل هذا العـدد من المسلمين ـ نحـو ثلاثة آلاف ـ دون أن يتحرى ويستوثق : أيجوز قتلهم أم لا؟مع أن الثابت منذ عهد الصحابة أن أسير البغـاة لا يقتل، ومدبرهم يترك ولايتبع، وجريحهم لا يجهز عليه! ولكن دماء الناس كانت هينة على مثله.

ولقد كتب الإمام الذهبي عن الحجاج عدة أسطر معبرة في «سير الأعلام» فقال : كان ظلومًا جبارًا، نابيا، خبيثًا، سفاكًا للدماء. وكان ذا شجاعة وإقدام، ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن.

قـد سـقت من سـوء سيـرته في تاريخي الكبيـر، وحـصـاره لابن الزبيـر بالكعبـة، ورميـه إياه بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحـرمين. ثم ولايتـه على العـراق والمشرق كله عشرين سنة. . وحروب ابن الأشعث له، وتأخيره الصلوات. . إلى أن استـأصله الله. فنسبُّه ولانحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان.

قال : وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله[1].

لقد عبنا الذين شوهوا صورة تاريخنا الإسلامي في أزهى عصوره، وشوهوا صور كثير من الأبطال والأفاضل، بما نسبوا إليهم من أقوال أو أعمال، لم تثبت صحتها عنهم.

وكذلك نعيب من يريدون أن يجملوا لنا وجوه الطغاة والجبارين الظلمة، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، والذين سفكوا الدماء، واستحلوا الحرمات، فهم يحاولون تبرير ما اقترفوه من سيئات. وتسويغ ما سجل عليهم التاريخ من كبائر موبقات. وهيهات هيهات!

إن من دلائل الإيمان الصادق لدى المؤمن : أنه إذا غضب لم يخرجه غضبه عن

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء(٤ : ٣٤٣).

الحق، وإذا رضى لم يدخله رضاه في الباطل. لذا كان من الأدعية النبوية المأثورة: «وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا».

دفاع د.عويس عن بني أمية:

وقد دافع صديقنا د. عبد الحليم عويس عن بني أمية دفاعا حارا في كتابه «بنو أمية بين السقوط والانتحار» وذكر في ذلك أشياء جيدة، واعتبارات حسنة، ولكنه غلا في دفاعه غلوا غير مقبول، حين نصب نفسه محاميا عن تاريخ بني أمية كله بأخطائه وخطاياه.

حتى إنه تحامل تحاملا غير مبرر على الخليفة الذي أجمع كل الناس على أنه أعدل بني مروان-بعد عمر بن عبد العزيز- وهو يزيد بن الوليد.

في حين دافع دفاعا غريبا عن الوليد بن يزيد، الذي أجمع كل المؤرخين على انحرافه وفساده.

كما خالف إجماع الأمة فعَدَّ معاوية أقدر في الإدارة السياسية من أمثال علي ابن أبي طالب، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص- من كبار الصحابة الذين توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، والذين رشحهم عمر للخلافة من بعده- فضلا عن الحسن والحسين وعبد الله بن عمر !!

يقول د. عويس بالحرف الواحد[1]:

«كان في معاوية ميزات قلما توافرت في بناة الدول.. فهو ممن تحقق فيهم شرطا «القوة والأمانة». قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

وقد كان في الصحابة من هو أتقى منه، وأورع منه دينا، وأكثر منه سابقة في

(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار ص ١٨ نشر دار الصحوة بالقاهرة.

الإسلام. . وعليّ والحسن والحسين والزبير وطلحة: أزكى منه في ذلك، لا ينكر هذا منكر، ولا يماري فيه مسلم. . وسعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن عمر وغيرهم.

لكن معاوية كان أقوى من كل هؤلاء في صناعة الحضارة، وقيادة الأمة، وليس كل تقي صالح في أمور الدين: الأقدر والأصلح - بالضرورة - في أمور الدنيا. ومعاوية نفسه كان يدرك هذه الحقيقة، وقد خطب الناس، فقال لهم في تواضع المؤمنين: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم في عدوكم، وأدرّكم حلبا!»[1] أ. هـ.

فانظر كيف جعل معاوية أصلح وأقدر في صناعة الحضارة، وقيادة الأمة من علي وطلحة والزبير وسعد، قادة الأمة الذين رشحهم عمر للخلافة، والذين حملوا الرايات، وقادوا المعارك الكبرى، في عهد النبوة، وعهد الخلفاء. ومن الحسن والحسين وابن عمر رضي الله عنهم. وهذه مجازفة لا يجرؤ عليها مؤرخ، ولم يقل ذلك أحد من سلف الأمة وخلفها فيما نعلم.

وما استشهد به من قول معاوية: إنما قاله بعد موت علي وطلحة والزبير وسعد، فما كان ليجترئ أن يدعي أنه أقدر من هؤلاء، وما طلب الخلافة لنفسه في حياة عليّ، إنما كان يطالب بدم عثمان!

من حق كل باحث أو مؤرخ - بل من واجبه - أن يدافع عن بني أمية فيما افتري عليهم من مظالم لم يقترفوها، أو حمل عليهم من أوزار ارتكبوها، ولكنها ضخمت أكثر مما ينبغي، أو فيما أحسنوا فيه من فتوح وعمارة وحسن إدارة، ولم تذكر في محاسنهم. إلى غير ذلك من صالحات الأعمال.

ولكن الذي لا يقبل من باحث أو مؤرخ: تبرئتهم من كل تهمة نسبت إليهم، وتضخيم ما قدموه من خدمات للإسلام والمسلمين، وكأنهم برآء من كل سوء.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١٣٤).

أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد:

حتى القضية التي لم يختلف في شأنها المسلمون وعَدُّوها من المآخذ على معاوية، وهي ولاية العهد، وأخذ البيعة لابنه يزيد، وما زال في المسلمين عدد من الصحابة الأكفاء، وبهذا حول الخلافة إلى ملك يتوارث، فسن هذه السنة السيئة في المسلمين، وانتهت الخلافة الراشدة، فأصبحت كسروية أو قيصرية، فلم يفعل ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم من تركها للمسلمين يختارون لأنفسهم أفضل من يرونه أصلح لهم، وأقدر على حملها، ولم يفعل ما فعل أبو بكر في استخلاف أفضل من يراه من المسلمين ممن ليس من عصبته، بعد استشارة المسلمين فيه، ولم يفعل ما فعل عمر من جعلها في مجموعة من أهل الحل والعقد من المسلمين يختارون من بينهم من يرتضونه بإجماعهم، أو من تتفق عليه أكثريتهم.

لم يفعل معاوية واحدا من هذه الأمور، ولم يسلك مسلك الرسول ولا مسلك أبي بكر، ولا مسلك عمر، بل جعلها في عقبه، في ابنه يزيد.

ومع وضوح هذا الأمر: نجد أخانا الدكتور عويسا يتولى منصب محامي الدفاع عن هذا الأمر، الذي استنكره المسلمون سلفا وخلفا!

قال عويس بعد دفاع قوي في الاعتذار عن معاوية:

«بقي أن نقف عند نقطة أخرى يحاسب عليها «معاوية» فإذا كان معاوية ـ كما ذكرنا ـ أهلا لأن يلي الخلافة، وقد أثبت جدارته فيها.. فثمة نقطة ثانية هي أقل قبولا لدى كثير من الناس، وهي ترشيحه لابنه يزيد، كي يلي الأمور بعده... وهم يعترضون على هذا الترشيح من زاويتين:

١ ـ زاوية أنه حول الخلافة إلى وراثة وملك عضوض...

٢ ـ وزاوية عدم جدارة يزيد، فقد كان هناك من هم أجدر منه...

أما فيما يتعلق بقضية تحويل الخلافة إلى ملك عضوض، فالحكم فيها يقتضي

الرجوع إلى أصول نظام الحكم في الإسلام، وهل هناك - إذا ما استثنينا قاعدتي الشورى والعدل - إلزام بنظام معين . . .

وحتى الشورى - وهي قاعدة ملزمة - هل تتم بطريقة الانتخاب الجماعي، أو بطريقة أهل الحل والعقد، أو بطريقة أقرب الناس إلى إمكانية البيعة في العاصمة؟

وحتى البيعة بالإكراه التي يلغيها الإمام مالك، ويقول فيها: «لا بيعة لمكره» هل تسمح - حتى ولو كانت بالإكراه - بالخروج الانقلابي الثوري، وإحداث الفتن . . ؟ أو تسمح بما هو أقل من ذلك فحسب، مثل عدم التجاوب والسلبية في العلاقة بالحاكم[1]»؟!!

تكلف الدفاع عن البيعة ليزيد:

ومما نأسف له هنا: أن الكاتب حاول أن يتمحل للتهوين من الأمرين المعترض عليهما، وهما:

- تحويل الخلافة إلى وراثة وملك عضوض.

- وعدم جدارة يزيد لمنصب الخلافة، فقد كان هناك من هم أجدر منه.

وهما أمران في غاية الوضوح لمن تأمل وأنصف واعترف بالواقع.

فأما تحويل الخلافة إلى ملك، فهو ثابت بالحديث النبوي، وبإجماع الأمة، ومعاوية هو الذي سن هذه السنة وتولى كبرَها، وتحمّل وزرها. وهي التي عانت الأمة من جرائها ما عانت. وقد روى الذهبي في «سير الأعلام» عن الحسن «البصري»: أن المغيرة بن شعبة أشار على معاوية ببيعة ابنه، ففعل. فقيل له: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غَيٍّ لا يزال فيه إلى يوم

(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار لعبد الحليم عويس ص ٢٠، ٢١ وما بعدها.

القيامة! قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء أولادهم، ولولا ذلك لكانت شورى![1].

فما بال الدكتور عويس يقول: إن الإسلام لم يلزم في أصول الحكم فيه بنظام معين! أي إنه يريد أن يضفي الشرعية على النظام الوراثي[2]. كيف وهو يقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة: ١٢٤).

وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبي ولا من سنة خلفائه الراشدين، كما ذكرنا، فهو إذن من محدثات الأمور، التي حذر منها الحديث أو رآها بدعه، وكل بدعة ضلالة. وقد سماها بعض الصحابة كسروية أو قيصرية!!

وقد أخسر عويس الميزان في هذا الأمر، ليتحدث عن الخروج الانقلابي الثوري، وإحداث الفتن، كأن كل همه أن يثبت شرعية يزيد بن معاوية، ويدين الحسين بن علي! وهذا في الحقيقة ليس موضوع بحثنا. إن موضوعنا هو تحويل الخلافة ـ القائمة على الاختيار الحر والشورى والبيعة النزيهة ـ إلى ملك وراثي.

وبالنسبة للأمر الثاني: من ناحية جدارة يزيد للخلافة، فلا يشك من يعرف المجتمع الإسلامي يومئذ: أن هناك من كان أحق وأولى بالخلافة من يزيد في سابقته وعلمه وعمله ومكانته، ويكفيه صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتلقي عنه، والجهاد معه، من أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، رضي الله عنهم جميعا. فأين يزيد من هؤلاء؟ وأين الثرى من الثريا؟!

واتكأ الكاتب هنا على العلامة القاضي أبي بكر بن العربي، الذي قال: إن

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩.

(٢) انظر: بحث الشيخ الغزالي في كتاب «الإسلام والاستبداد السياسي»: هل تورث الزعامة؟

معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى . . . فعدل إلى ولاية ابنه، وعقد له البيعة، وبايعه الناس، وتخلف عنها من تخلف! فانعقدت البيعة شرعا؛ لأنها تنعقد بواحد، وقيل: باثنين!![1] أ. هـ.

وكنت أود من د. عويس: أن يرجع إلى المناقشة القوية الممتعة التي دارت بين السيد محب الدين الخطيب ناشر كتاب «العواصم من القواصم» لابن العربي ومعلّق حواشيه، وبين الشيخ محمد الغزالي الذي رد على ابن العربي، - برغم جلاله وتبحّره - بمنطق قوي رصين. وماذا أبقينا لعلماء السلاطين، الذين يفرّخون الفتاوى، التي تبرر لهم ما يصنعونه، وتمنحهم سندا شرعيا أمام جماهير الناس؟!![2]

ومما قاله عويس: وأيا ما كان الأمر، فلم يكن يزيد كما وصفوه، بل هو من الطبقة الأولى من التابعين، وعنه قال عبد الله بن عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس!!

ولا أعرف أحدا من السلف أو الخلف ذكر يزيد في علماء الناس. ولا أعرف سند هذه الرواية عن ابن عباس، وما أظنها تصح عنه في يزيد.

قال عويس: وقد علمه أبوه العدل والإنصاف والتواضع، وأرسله لغزو القسطنطينية سنة ٤٩هـ وقد شهد له محمد بن الحنفية، ودافع عنه[3] . . . إلخ

وكم كنت أحب أن يكون أخونا د. عويس في هذه الموضوعات التاريخية الشائكة: قاضيا محايدا، بدل أن يجعل من نفسه محاميا متحمسا للدفاع عن موكله حيال خصومه، وفي غمرة الحماس والاندفاع يفقد الموضوعية والحياد.

---

(١) انظر: العواصم من القواصم ص ٣٣١ بتحقيق محب الدين الخطيب. وانظر: بنو أمية بين السقوط والانتحار ص٢٤.

(٢) انظر: مقال الغزالي في الرد على محب الدين الخطيب في كتابه «في موكب الدعوة» طبعة مكتبة نهضة مصر.

(٣) انظر: بنو أمية بين السقوط والانتحار ص ٢٤.

وأعدل ما يذكر في يزيد: ما ذكره مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» إذ قال عن يزيد: «ويزيد ممن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين «أي الأموية والعباسية» وكذلك في ملوك النواحي، بل فيهم من هو شر منه. وإنما عظم الخطب لكونه ولّي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسع وأربعين سنة، والعهد قريب، والصحابة موجودون، كابن عمر، الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده»[1] أ. هـ.

ولا نقول ما قاله شيخنا الشيخ محمد الغزالي عن يزيد: إنه شاب خليع لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية، فضلا عن أن يقود أمة! فالذي يظهر من سيرته أنه لم تكن تنقصه القوة والكفاية، إنما تنقصه الأمانة والديانة، وقد نقل الذهبي عن محمد بن أحمد بن مِسمَع، قال: سكر يزيد، فقام يرقص، فسقط على رأسه، فانشقّ وبدا دماغه!

قال الذهبي: قلت: كان قويا شجاعا، ذا رأي وحزم، وفطنة وفصاحة، وله شعر جيد، وكان ناصبيا (يبغض عليا وآل البيت) فظا غليظا جلفا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر. افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بوقعة الحرة (بالمدينة) فمقته الناس. ولم يبارك في عمره. وخرج عليه غير واحد بعد الحسين. كأهل المدينة، قاموا لله، وكمرداس بن أديّة الحنظلي البصري، ونافع بن الأزرق، وطواف بن معلّى السدوسي، وابن الزبير بمكة[2]. أ. هـ.

وذكر الذهبي عن نافع، قال: مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى. فقال ابن مطيع: إنه يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب (أي القرآن) قال: ما رأيت منه ما تذكر (أو ما تذكرون) وقد أقمت عنده، فرأيته مواظبا للصلاة، متحرّيا للخير، يسأل عن الفقه. قال: ذاك تصنع ورياء.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٦.
(٢) المصدر السابق ص ٣٧، ٣٨.

ونقل الذهبي أيضا عن نوفل بن أبي الفرات قال: كنت عند عمر بن عبدالعزيز، فقال رجل: قال أمير المؤمنين يزيد، فأمر به، فضرب عشرين سوطا[1].

فهذه منزلة يزيد عند الخليفة الراشد عمر، وعند معاصريه من كبار التابعين، وعند أئمة الإسلام المعتدلين، دعك من الشيعة وموقفهم من يزيد فهو معروف.

إننا نريد كتابة التاريخ وفق منهج علمى موضوعى، يزن الأحداث والمواقف والأشخاص بالقسطاس المستقيم، دون وكس ولا شطط، ولا تحيز لطرف ضد طرف ولا طغيان ولا إخسار فى الميزان.

اعتدال محمد قطب في نظرته إلى التاريخ الإسلامي:

وبرغم أن الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب موافق لشقيقه الأكبر الشهيد سيد قطب في اتجاهه الكلي العام في الجانب الفكري، وفي جل الأفكار والقضايا الجزئية، وكلا الأخوين يحيل على كتب أخيه: نجد محمد قطب مخالفا أخاه في قضية التاريخ، فلم يقس عليه، كما قسا شقيقه رحمه الله وغفر له، ولا سيما عهد بني أمية.

ولعل بقاءه - مد الله في عمره - عقودا من الزمن، أتاح له فرصة لمراجعة بعض أفكاره، على ضوء المناقشات والمحاورات، التي تتم بين أهل العلم والفكر، في الساحات الجامعية وغيرها.

ولهذا اتسم رأي محمد قطب هنا بالاعتدال والإنصاف الذى يحسب فى ميزانه، فأنصف بني أمية، وأعطاهم حقهم، وإن انتقدهم في بعض مواقفهم، ولامهم على أخطائهم وانحرافاتهم، وإن لم يتبع بعض المؤرخين في تضخيمها وتهويلها، بغية أن يسقطوا بها ما كان لهم من محاسن وآثار طيبة، انتفع بها المسلمون.

---

(١) نفسه ص٤٠ وتاريخ الإسلام: ٣/ ٩٤.

فهو يعيب بشدة موقف المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي، ومحاولة تشويهه، والتعمية على أمجاده ومزاياه.

يقول حفظه الله في كتابه: «كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟»:

يحرص المستشرقون - كما قلنا - على تشويه معالم التاريخ الإسلامي عامة، لأكثر من سبب واحد..

فهم أولا يشعرون بالحقد والغيظ من اعتزاز المسلم بإسلامه، أو ما يمكن أن نسميه «استعلاء الإيمان». يقول توينبي في محاضرة له عن «الإسلام والغرب»: «من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي المسلم الذي كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من عل.. وبما أن التركي التقليدي القديم كان يَعُدّ نفسه من طينة خاصة: حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئا ممقوتا..»[1].

ومن ثم يكون طبيعيا أن يعمل هؤلاء المستشرقون - وهم الجناح الثقافي للمخطط الصليبي الصهيوني - على محاولة قتل هذا الاعتزاز في نفوس المسلمين. ولما كان التاريخ الإسلامي في أمجاده الباهرة على امتداد تاريخه من أهم أسباب هذا الاعتزاز في نفس المسلم، فمن الطبيعي أن يلجأ المستشرقون إلى محاولة تشويهه بشدة، لعل ذلك يطفئ لمعانه، ويذهب بروعته وبهائه، فلا يعود سببا من أسباب الاعتزاز، بل يصبح - إن أمكن - سببا من أسباب النفور ودواعي الانسلاخ!

وإذا كانت محاولاتهم لتشويه صورة التاريخ الإسلامي قد امتدت إلى العصر الذهبي للإسلام - بكل قممه الشامخة وآفاقه الرحيبة - بل امتدت في تبجح إلى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - أعظم من حملته الأرض في تاريخها كله،

---

(١) تعريب الدكتور نبيل صبحي بعنوان: «الإسلام.. والغرب.. والمستقبل» طبع بيروت - ص ٥١.

فلن نستغرب إذن محاولاتهم لتشويه ما تلا ذلك من التاريخ، الذي يحوي بالفعل أخطاء وانحرافات واقعية يمكن أن يستند إليها في التشويه والتمويه، حين تجسم وتكبر، وتعطي من الدلالات ما يخدم أهواء ذوي الأهواء!

ثم إن للمستشرقين هدفا آخر من تشويه معالم التاريخ الإسلامي إلى جانب قتل «استعلاء الإيمان» الذي يثير حفيظتهم؛ لأنه يصعب مهمة القضاء على شخصية المسلمين وتمييعها.. ذلك الهدف هو: محاولة القضاء على الصحوة الإسلامية الخطرة التي تؤذن بعودة الإسلام إلى الوجود والسيطرة كما كان من قبل، وهو أشد ما تفزع منه الصليبية والصهيونية كما بيّن «ولفرد كانتول سميث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث ISLAM IN MODERN HISTORY» و«نثروب» في كتابه «السيف المقدس THE SACRED SWORD» والعديد غيرهما من المستشرقين.

ولما كانت أمجاد التاريخ الإسلامي من أشد الأدوات التي تستخدمها الدعوة الإسلامية تأثيرا في وجدان الناس، لأنها تذكرهم بهذا التاريخ العظيم الذي انقطعوا عنه، فتحفزهم إلى محاولة استئنافه من جديد، فمن الطبيعي بالنسبة لأصحاب المخطط - والجهاز الثقافي بصفة خاصة - أن يحرصوا على تشويه ذلك التاريخ، لعلهم يبطلون مفعوله بالنسبة للدعوة الجديدة. فحين يشوهون صورته على النحو الذي يقومون به لا يكون دافعا من دوافع الحركة، بل لعلهم إن أمعنوا في تشويهه يحدثون حالة من اليأس إزاء الحركة الجديدة، كأنما يقال لهم: أهذا هو التاريخ الذي تتحدثون عنه وتدعوننا لاستئنافه؟! لقد انتهى الإسلام بعد الخلافة الراشدة، فانفضوا أيديكم من المحاولة، ولنعش في القرن العشرين بأدوات القرن العشرين! ولنأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها، فلا أمل يرجى من بعث الإسلام من جديد، وقد انتهى من أربعة عشر قرنا من الزمان!! تلك أهدافهم، وهذه وسائلهم..

موقف المؤرخين العرب المتأثرين بالمستشرقين ومنهجهم:

ثم يجيء «المؤرخون العرب» فيأخذون سمومهم بلا تحفظ، فرحين مستبشرين أن وقعوا على تلك «الكنوز» التي كشفت الغاشية عن عيونهم، فأبصروا ما كان خافيا عليهم من حقائق هذا التاريخ!

وقد يغرهم ما تلجأ إليه المدرسة الحديثة من المستشرقين - وعلى رأسها جب، وولفر كانتول سميث، وجرونيباوم - من مزج السم بالعسل، فيظنونهم مخلصين للحق، نزيهين نزاهة «علمية!» فيأخذون عنهم بلا تحفظ . . يقول قائلهم: إن هؤلاء كتاب منصفون، يبدون إعجابهم بما يرونه في الإسلام مستحقا للإعجاب، فلولا أن المآخذ التي يذكرونها مآخذ حقيقية ما ذكروها! وقد كانت هذه الأمور خافية علينا من قبل؛ لأننا متأثرون بعاطفتنا نحو الإسلام، وينبغي لنا أن نتخذ «الروح العلمية» ونتجرد من العاطفة لمصلحة البحث العلمي ذاته!

أفليس هذا ما قال عنه رب العالمين: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢).

أفما كان يجدر بنا بعد هذا البيان الرباني الهادي: ألا نأخذ حقائق ديننا عن أعداء هذا الدين؟!

دراسة خط الانحراف بأمانة:

ثم يبين محمد قطب كيف ندرس التاريخ بما له وما عليه، دون أن تكون هناك التغطية على انحرافاته، بل نقومها تقويما عادلا بالقسطاس المستقيم. فيقول:

حين نراجع تاريخ هذه الفترة المتطاولة من الزمان، فسنجد ولا شك انحرافا تدريجيا عن حقيقة الإسلام. ولكن حجم هذا الانحراف يجسَّم عن عمد، ويكَبَّر حتى يملأ فراغ الصورة، ويصغَّر إلى جانبه أو يُخْفى ما بقي في دنيا الواقع من معالم الإسلام الأصلية، لإعطاء هذا الإيحاء المسموم في النهاية: أن الإسلام قد انتهى

بنهاية عصر الخلفاء الراشدين (أو حتى قبل ذلك!) فلا فائدة ترجى من محاولة بعثه من جديد . .

وحين نراجع ما كتب عن تاريخ هذه الفترة لتصحيح منهج كتابته، فلن تكون وسيلتنا هي التغطية على خط الانحراف، فذلك مخالف للمنهج الرباني: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢). ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء: ١٣٥).

كلا! لا نلجأ أبدا إلى تزوير التاريخ . . بل إننا في حاجة إلى دراسة خط الانحراف بأمانة كاملة وبتركيز. فهذه هي الأخطاء التي ارتكبها المسلمون في أثناء سيرهم الطويل على درب الإسلام، وقد تراكمت حتى سدت الطريق، وأوشكت في الأخير أن تقضي على هذه الأمة وتمحوها محوا من الوجود. فنحن - في محاولتنا الجديدة لاستئناف السير في الطريق - في حاجة شديدة إلى تبين هذه الأخطاء ودراستها، واستيعاب عبرتها، حتى نتجنبها في محاولتنا الجديدة، لكي لا نتعثر كما تعثرنا من قبل، ولكي ننقذ أنفسنا من البوار حين نعلم أي شيء أصابنا بالبوار .

نحن إذن في حاجة «تربوية» إلى دراسة خط الانحراف. ولكنّ هناك فرقا واضحا بين دراسته لاستخلاص العبرة منه، ودراسته للإيحاء بأن الإسلام لم يطبق إلا فترة وجيزة، وأنه - من ثم - نظريات جميلة غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع!

هنا حق يراد به حق، وهناك حق يراد به باطل، فضلا عما في الطريقة التي يقدم بها هذا الحق من تهويل وتضخيم وتحريف!

مقدار الانحراف في العهد الأموي:

ثم يقول محمد قطب:

حين نبدأ بالفترة الأموية فسنجد في سياسة الحكم انحرافا عن الصورة المثالية التي

تطبقت في فترة الخلفاء الراشدين، أبرز معالمها تحول الحكم من الخلافة إلى الملك العضوض كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: «الخلافة بعدي ثلاثون عاما ثم يأتي الملك العضوض»[١].

صحيح أنه لا يوجد نص يحدد شكل الحكم في الدولة الإسلامية، فقد جاء النص على أمرين رئيسيين: الشورى، الحكم بما أنزل الله:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى: ٣٨).

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩).

ولكن لم يرد نص تحديد شكل الحكم: خلافة أم ملك؟ مدى الحياة أم لمدة محددة؟ إلى غير ذلك من التفصيلات الإجرائية التي ترك أمرها لاجتهاد الأمة المسلمة عند التطبيق. ولكن الذي نص عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ووقع في عهد بني أمية بالفعل هو انتقال «الحكم» من الخلافة إلى «الملك العضوض» بما يوحي به التعبير من وقوع المظالم على الناس[٢].

ومن أعدل ما سطره محمد قطب هنا قوله:

على أن الأمر الذي يجب التركيز عليه كثيرا هو الحجم الحقيقي للانحراف الذي وقع في عهد بني أمية بالقياس إلى ما بقي من حقيقة هذا الدين في عالم الواقع.

---

(١) رواه أحمد والترمذي. وقد خرجناه وتحدثنا عنه.

(٢) المصدر السابق صـ١٢٦-١٢٨.

إن هناك - كما أشرنا مرارا من قبل - **وَهْمًا يُجسَّم عن قصد وغير قصد، مفاده**: أن الانحراف الذي وقع في عهد بني أمية - فضلا عما بعده - قد قضى على هذا الدين! وهو وَهْمٌ يكذبه الواقع! وأبسط ما يقوله الواقع: إن هذا الدين مازال باقيا في الأرض إلى هذه اللحظة - بدليل الصحوة الإسلامية - بعد وقوع انحرافات بني أمية بأربعة عشر قرنا على وجه التقريب!

وشهادة الواقع تكفي..

ولكن الذي نريده هنا هو محاولة تحديد حجم ذلك الانحراف بالقياس إلى ما بقي سليما من الصورة.

لقد حدث دون شك هبوط عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده. وهذا الهبوط عن تلك الذروة هو ذاته أحد أسباب الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهى منذ ذلك الحين!

نحب أن نقرر بادئ ذي بدء: أن تلك الذروة - بكل روعتها - لم يكن يفترض أن تدوم في الأرض كثيرا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن وجوده بشخصه عليه الصلاة والسلام كان عاملا مهما فيها، كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملا مهما فيها كذلك، وهما عاملان - بطبيعتهما - لا يتكرران ولا يدومان!

ونحب أن نقرر كذلك: أن الجيل الذي ارتفع إلى تلك الذروة قد ارتفع إليها تطوعا لا تكليفا، وأن الله لم يفرض على البشر أن يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضا، وإن كان قد حبب إليهم ذلك بكل تأكيد. وإنما ارتفع ذلك الجيل الفريد إلى تلك الذروة بأنه أخذ المندوبات والمستحبات كأنها فروض، وألزم بها نفسه تطوعا لا تكليفا.

ونضرب بعض الأمثلة التي توضح ذلك.

لقد قرر الله أخوّة المؤمنين بعضهم لبعض فقال جل شأنه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠). وفرض التكافل بين القادرين وغير القادرين فرضا عن طريق الزكاة، وترك ما فوق ذلك للتطوع بقدر ما تجود به النفس. أما الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩)، فقد تطوعوا من عند أنفسهم بدرجة أعلى من تطوع القادرين، فهم لم يتطوعوا عن سعة بعد أن استكفوا لأنفسهم، بل آثروا على أنفسهم مع كونهم في حالة خصاصة، وتلك قمة لا يقدر عليها كل الناس، ولم يفترضها الله على أحد من الناس!

وقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه» (متفق عليه عن النعمان بن بشير) فوجه المسلمين إلى اتقاء الشبهات. أما الذين قالوا عن أنفسهم: «كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام» فقد تطوعوا من عند أنفسهم بما لم يفرضه الله ولا رسوله، تقربا إلى الله وحبا في مغفرته ورضاه..

وبهذا وذاك وأمثاله تفرد ذلك الجيل الفريد.. ولكنا لا نحاسب أحدا بمقتضى ذلك التطوع النبيل. ولا نحاسب بني أمية، ولا بني العباس، ولا آل عثمان، ولا غيرهم من الحكام بتلك القمم الشاهقة التي وصل إليها أفراد في المجتمع المسلم في عهد الذروة، كان على رأسهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم. إنما نحاسبهم بما فرضه الله عليهم فرضا، وجعل النكول عنه ذنبا يساءلون عنه أمام الله يوم القيامة، فيغفر سبحانه لمن يشاء، ويؤاخذ من يشاء.

أي أننا لا نحاسب بني أمية ـ ولا غيرهم ـ بعدل عمر رضي الله عنه، ولكن نحاسبهم بما وقع في «الملك العضوض» من مظالم لا يرضى الله عنها. ولا نؤاخذهم بعفة الخلفاء الراشدين ـ الخمسة ـ (خامسهم عمر بن عبد العزيز) في التعامل مع بيت مال المسلمين، ولكن نؤاخذهم بتأولهم الفاسد في الإنفاق من

بيت المال لتأليف قلوب الناس لحكمهم ولأشخاصهم بينما قرر الله أن يكون الإنفاق من الزكاة لتأليف القلوب للإسلام. ونؤاخذهم بضرب كل المعارضين بالعنف، بينما كان بعض المعارضين يحتجون على مخالفات بني أمية، ولا يسعون إلى الحكم لمجرد إزاحة بني أمية عن السلطان، وكان العلاج الصحيح للأمر هو عدول بني أمية عن أخطائهم، لا ضرب المعارضين الذين احتجوا على تلك الأخطاء.

خلاصة القول إذن أن الهبوط عن مستوى الذروة الأولى لا يُعَدّ في ذاته انحرافا، إنما هو الأمر الطبيعي المتوقع بعد غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد أن ينتهي أثر النشأة الجديدة في نفوس الناس، ولا يؤدي ذلك الهبوط كذلك إلى انتهاء الإسلام من الأرض، فقد جعل الله في المستوى العادي للإسلام - أي الذي يلتزم بما فرضه الله فرضا ولا يزيد عليه - سعادة أهل الأرض جميعا لو أنهم اتبعوه والتزموا به، بما لا يتحقق من أي نظام جاهلي يجري تطبيقه في الأرض، وجعل جزاءه في الآخرة هو الجنة.

وإنما الذي يؤاخذ عليه بنو أمية وغيرهم - كما أسلفنا - هو الانحراف عن هذا المستوى الملزم إذا هبطوا عنه. وقد حدث هذا الانحراف بالفعل، فما حجمه؟ وما أثره في التطبيق الواقعي للإسلام على عهد بني أمية؟

يكفي أن نسجل فقط حركة الانسياح الإسلامي في الأرض، التي تمت في عهد بني أمية، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين!! إن حركة الفتح الإسلامي ليست مجرد توسع في الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار.

إنما هي أكبر حركة «هداية» للناس في التاريخ، وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور. وقد يبدو هذا الكلام في حس «المثقفين» لأول وهلة مجرد تشابه مع دعوى كل «دولة عظمى!» أنها نشرت الحضارة في الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة!

فلننظر إذن في تاريخ «الإمبراطوريات» في القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية. الإمبراطورية الآشورية. الإمبراطورية الفينيقية. الإمبراطورية الرومانية. الإمبراطورية الفارسية. الإمبراطورية الهندية. الإمبراطورية الصينية.. الإمبراطورية البريطانية. الإمبراطورية الفرنسية. الإمبراطورية الأمريكية. الإمبراطورية الروسية.. إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التي يعج بها تاريخ الأرض..

كيف قامت أولا؟ وماذا نشرت في الأرض؟

فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدما لتلك الدولة الأم يمدونها بالرجال المقاتلين، ويمدونها بمختلف الخيرات لتنتفش هي وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فأمر لا أحسبه يحتمل المراء..[1].

وكذلك ما نشرته فى الأرض، أى شىء هو؟ لم تنشر هداية حق ولا رسالة عدل، بل همها العلو والاستكبار فى الأرض.

خط الانحراف في العهد العباسي والعثماني:

ويتابع محمد قطب مقولته المتزنة، متحدثا عن خطر الانحراف فى العهد العباسى، والعهد العثمانى، مبيّنا أن خط الانحراف الذي بدأ مع الأمويين قد زاد انحرافا، وأضيفت إليه انحرافات جديدة. وأن الحكومة والمجتمع كليهما زادا بعدا عن الإسلام بدرجات متفاوتة. وأن هذا كله قد أدى إلى مصيره الحتمي بالنسبة للحكومة والمجتمع حسب سنة الله، فزالت الحكومة العباسية زوالا كاملا من الوجود، وأصاب المجتمع ما أصابه من الجراح. ولكن الإسلام ذاته لم يكن قد زال من الوجود..

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص١٣٤ - ١٣٦.

إنما كانت الدولة العباسية في بغداد (والدولة الإسلامية في الأندلس) فروعا في الشجرة، جفت فماتت وسقطت. ولكن الشجرة ذاتها كانت ما تزال حية الجذور، قادرة على إنماء فروع جديدة بدلا من التالفة.. وهكذا ولدت الدولة العثمانية الفتية التي ملأت الساحة لعدة قرون، وشملت رقعة واسعة من الأرض، وخاضت وقائع كثيرة مع الأعداء.

وقد تحدث عن الفترة العثمانية حديثا بصيرا ينبغي مراجعته، فهو نافع ومهم لمن يريد أن يفهم تاريخ هذه الأمة.

وقد أطلنا الاقتباس هنا من كتاب محمد قطب، لما في دراسته من عمق، وما في وجهته من صدق، وما في خطه من اعتدال وتوازن بين المتحاملين على تاريخنا، والمبالغين في الدفاع عنه إلى حد التكلف والاعتساف، وكذلك أردنا أن ننصف محمد قطب ممن اتهموه بأنه يتبنى خط شقيقه في كل شيء، فنبين أن الرجل هنا له رؤيته الخاصة، وفكره المستقل.

ضرورة خلع المنظار الأسود والمكبّر:

إننا نوصي هنا ونؤكد بضرورة النظرة الموضوعية المحايدة، ووجوب خلع المنظار الأسود، والمنظار المكبِّر.

وأكثر الذين يتحدثون عن تاريخنا، وينظرون إليه من وراء منظار أسود، أو منظار مكبر: إنما استقوا أفكارهم الأساسية من خارج حدودنا، من أساتذتهم المستشرقين، الذين ينظرون إلى تاريخنا وتراثنا كله من زاوية غربية، تزدري كل ما هو شرقي، ومن ورائها عصبية صليبية كامنة، تكره كل ما هو إسلامي، ومن خلال مصلحة استعمارية دافعة، تسخر العلم للأهواء والمنافع!

هذا شأن المستشرقين مع تراثنا، إلا من عصم ربك، وقليل ما هم.

وما أبلغ ما وصفهم به العلامة أبو الحسن الندوي في مؤتمر «الإسلام والمستشرقون»، الذي عقد منذ سنوات بمدينة «أعظم كره» بالهند: أنهم

أشبه شيء بمفتشي القمامة، لا تقع أعينهم إلا على القاذورات، وأكبر همهم البحث عنها!

وهكذا رأيناهم مولعين بتتبع العورات، والبحث عن نقاط الضعف والانحراف، وإن وهت أسانيدها، ولم تثبتها الرواية ولا الدراية، وذلك لإبرازها وتقويتها وتضخيمها، والنظر إليها من خلال مجهر (ميكروسكوب) مكبر، يجعل من الحبة قبة، ومن القط جملا، بل من النملة فيلا!

حتى الرموز المشرقة التي أجمع المسلمون في عصورهم كلها على فضلها وعظمتها، حاولوا أن يحطموها، مثل: عمر بن عبد العزيز، الذي عَدَّه المسلمون خامس الراشدين، وشبهوه بجده عمر بن الخطاب.

فقد رأينا ممن فتحت لهم الصحف أبوابها ليكتب، يتهمه بسوء الإدارة، والجهل بالسياسة والاقتصاد، والتسبب في خراب الدولة! هكذا قال أحدهم بكل تبجح، على حين دافع عن طاغية الأمويين الحجاج بن يوسف![1].

ولو كان المجتمع المسلم بالسوء، الذي يصور به عهد بني أمية: ما استطاع أن يمد شعاع الإسلام إلى تلك الآفاق الشاسعة في آسيا وإفريقية وأوربة، من الصين شرقا إلى الأندلس غربا.. أو كان بالسوء الذي يصور به في عهد بني العباس: ما استطاع أن يقيم هذه الحضارة الرائدة التي علمت العالم، وأشرقت الأرض بنورها عدة قرون.

ومن المعلوم أن انحراف حاكم من الحكام في تلك العصور، لم يكن ليؤثر في سير المجتمع كله، والتأثير في أعماق الشعب فكرا وخلقا وشعورا وسلوكا. فلم تكن لدى السلطة أجهزة ولا مؤسسات قادرة على مثل هذا التأثير، كما في عصرنا، الذي تستطيع الدولة بواسطة الأجهزة التربوية والثقافية والإعلامية أن تصنع فكر الشعب وذوقه، وتوجه مشاعره وسلوكه، الوجهة التي تريد، إلى حد كبير.

---

(١) رددنا عليه في الباب الأول، فصل «نموذج صارخ لتحريف التاريخ».

إن من الضروري لمن يريد أن يكتب تاريخنا الإسلامي من جديد، بل لكل من يريد أن يقرأ هذا التاريخ قراءة صحيحة، بعيدة عن الغلو والتفريط: أن يخلع من فوق عينيه المنظار الأسود، الذي يلون له كل ما يراه بلون قاتم، فلا يرى أمامه شيئا مشرقا أو ناصعا. كما يخلع المنظار المكبر الذى يضخم الأشياء يجعلها أكبر من حجمها بأضعاف مضاعفة. وأن ينظر إلى الأمور والوقائع والأشخاص نظرة منصفة، ملتزمة بما أمر الله به من القسط والعدل الذي قامت به السماوات والأرض، مهتدية بالمنهج الوسط الذي هدى إليه القرآن: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٨، ٩).

الاستفادة من المنهجيات المعاصرة:

ويحسن بالمؤرخ المسلم أو الذى يتعرض لكتابة تاريخنا الإسلامى: أن يستفيد من كل «المنهجيات» الحديثة والمعاصرة[١]، التى ظهرت فى الغرب، وتأثر بها كثير من أهل الشرق، إيجابا أو سلبا، على أن ينظر إلى هذه المنهجيات نظرة موضوعية حيادية، لا يعاديها من قبل أن يعرفها ويدرسها، ولا يأخذها قضية مسلمة بعُجَرها وبُجَرها.

فما كان منها نافعا فى دراسة تاريخنا أو كتابته من جديد، أخذناه وانتفعنا به، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها. ولا سيما ما يتعلق باستخدام الآليات العلمية التى وفرتها العلوم الاجتماعية والإنسانية من الإحصاء والرصد، والقياس والتحليل والمقارنة وغيرها، فهذه لا يرفضها عاقل.

وما كان يحتاج إلى تعديل عدلنا فيه، حتى يغدو صالحا لنا، قابلا لأن يدخل فى منظومتنا الفكرية والمنهجية.

وما كان منها منافيا لمسلماتنا الدينية والفكرية: أعرضنا عنه، فليس هناك من

---

(١) انظر: نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامى-د. محمد تضفوت، نشر: رؤية للنشر والتوزيع.

يفرض علينا أن نأخذ ما لا ينفعنا، أو ما يتناقض مع أصول هويتنا وخصوصيتنا العقدية والثقافية والحضارية. بوصفنا أمة وصفها الله بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وينبغى أن ننبه هنا إلى الخطر من تحريف تاريخ أمتنا، لحساب فلسفات وثقافات أخرى، بدعوى «القراءة المعاصرة» للتاريخ. فقد حرّف بعضهم القرآن، وانحرفوا به عن طبيعته، ورسالته ومضمونه، لخدمة أيديولوجيات وثقافات مغايرة، بل معادية، تحت هذه الدعوى العريضة الزائفة: القراءة المعاصرة للقرآن! ليخرجوا علينا بدين جديد: لم يعرفه رسول الله، ولا أصحابه، ولا التابعون لهم بإحسان، ولا علماء الأمة فى كل مذاهبها ومدارسها طوال أربعة عشر قرنا.

وإذا كان هذا حدث فى القرآن المحفوظ بحفظ الله تعالى، فلا غرو أن يحدث مثله وأكثر منه فى تحريف التاريخ!

النظرة الشمولية للتاريخ:

ونذكّر فى ختام حديثنا هنا بما سبق أن نبهنا عليه، وأفضنا فيه، وهو: ضرورة النظرة الشاملة لتاريخنا.

يجب على من يكتب هذا التاريخ كتابة تنصف الحقيقة: أن ينظر إليه من أفق أوسع، فلا يقتصر على التاريخ العسكرى، والسياسى، وعلى طبقة الملوك والأمراء والقواد، كما غلب ذلك على تاريخنا الإسلامى من قبل.

بل يجب أن تتسع دائرة التاريخ ليشمل المجتمع كله، والحياة كلها، فيؤرخ للجماهير كما يؤرخ للحكام. ويؤرخ للعلماء والصلحاء، كما يؤرخ للخلفاء والوزراء، ويعنى بالطبقات المستضعفة من الفلاحين والعمال والحرفيين وصغار التجار، كما يعنى بطبقات السياسيين وأصحاب الملك. ويعنى بالقرى النائية عنايته بعاصمة الخلافة أو الملك.

وينبغي الاهتمام بتاريخ المؤسسات الاجتماعية المختلفة: المدارس والجامعات والجوامع، والمكتبات، والقضاء والمحاكم، والفتوى والمفتين، والأوقاف، والمستشفيات والبيمارستانات، والتكايا والربط والسبل ودور الأيتام وغيرها.

بهذه الروح، وبهذه البصيرة، وبهذه الرؤية، وبهذه الوسطية المتوازنة: يجب أن ينظر إلى التاريخ، وأن يُكْتَب التاريخ، إذا أردنا نحن أن نكتبه لأنفسنا، ولم يرد غيرنا أن نكتبه له كما يريد. بهذا المنهج العادل: ننصف آباءنا، وننصف أنفسنا، وننصف ديننا، وننصف حضارتنا، وقبل ذلك كله ننصف الحقيقة.

اللهم ألهمنا كلمة الحق في الغضب والرضا، وفي الحب والكره. واهدنا سواء السبيل. آمين.

الفهرس

(٢) الدولتان الأموية والعباسية وموقفهما من شريعة الإسلام

(٣) تاريخ له مآثر ومفاخر

(٤) من المسئول عن تشويه تاريخنا

(٥) في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي